الطفولة ورعايتها

قراءات بمنظور إسلامي

د. محمد وجيه الصاوي

أستاذ ورئيس قسم أصول التربية الإسلامية

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" (٥) الحج

صدق الله العظيم

المحتويات

مقدمة

القراءة متعة لمن يهواها فهي غذاء العقل، وتجعل المتعلم ثري القريحة، مطلع على أطياف الفكر المختلفة، فيجول في سياحة علمية بين عالم الكتب والأفكار ويلتقط من بينها ما يروق له، فيعمل بما يحب، ويتأمل فيما هو جديد، ويرفض كل ما يشككه في دينه وقيمه.

إن الكتاب خير صديق: "وخير جليس في الزمان كتاب" ولا أدري هل هذا القول مازال ساريا المفعول؟ وقد يكون هناك شك في هذا، حيث إن الطلبة قد انعكس ضيقهم من الكتاب المقرر، إلى الكتب التي تتناول مجالات تدخل في إطار الهوايات والقصص والمغامرات المشوقة، فضاق الطلبة بالقراءة.

ولعلنا في هذا الكتاب نجذب القارئ قليلا نحو فكر متنوع يدور حول التربية الإسلامية في منظورات مختلفة: حول الطفل، والفكر التربوي لعلماء الإسلام، وقضايا فكرية معاصرة وبعض من المقالات التي نتحاور من خلالها.

إن الأفكار المطروحة كثير منها جمعته للحوار حوله لنقرأها قراءة عميقة ونحلل أبعادها بفكر حر، حتى نتعلم كيف نفكر ونناقش، ونقرأ ما وراء النص.

داعيا الله القدير أن يوفق الطلبة والطالبات إلى ما فيه الخير والرشاد.

أ.د محمد وجيه الصاوي

مدينة نصر

أكتوبر ٢٠٠٤.

elsawy22@yahoo.com
0103886617

الفَصْلُ الأَوَّلُ

تربية الطفل في الإسلام

تربية الطفل في الإسلام

مقدمة :

للطفولة في الإسلام منزلتها الرفيعة، وأهميتها الدقيقة، فقد عنـــى الإســـلام بــهذه المرحلة من عمر الإنسان، فحباها بالكثير من الرحمة والعطف، إلـــى جـــانب الصقـــل والتربية .

وفى ظلال الدين الوارفة، كان لهذه المرحلة من الحياة أبعاد جانبية، تدفقت القلـــوب خلالها بعواطف من الحب، سكبته مع فجر تلك المرحلة، بما أودعه الله في الأعماق من صلات الروح والدم، حتى كانت النظرة إلى الأبناء، تعني النظرة إلـــى داخـــل الكيـــان النفسي أو أكثر، وحتى أحس بعض الشعراء بأن أبناءنا هم أكبادنا فقال :

وإنما أولادنا بيننـــــــــا أكبادنا تمشي عـلـى الأرض

لو هبت الريح على بعضهم لا متنعت عيني عن الغمض

ولأهمية هذه المرحلة، نجد تفاضل الأمهات بمقدار ما يقمنه من حنـــان وإشـــفاق، ورعاية وعطف، وبمقدار ما يقمن به من واجبات الزوجية ورعايتها.

إذا تساءلنا : ولماذا كل تلك العناية بالطفولة، والاهتمام البالغ بها ؟ فإن الجواب هو : لأن الطفولة هي المرحلة الأولى للشباب، ولأن الطفولة هي رائدة المستقبل، فالعنايـــة بها أمر ضروري، تمليه حاجة المستقبل، وتلح عليه دنيا الحاضر، وتحفز نحوه عـــبر الماضي ودروسه.

أما بالنسبة للمستقبل، فلأن أطفال اليوم، هم رجال الغـــد وهـــو العـــالم والطبيـــب والمهندس والمعلم والقائد .. وهكذا .

وأطفالنا اليوم في مسئوليتنا، وغدا يحملون المسئولية، وتلك هي سنة الله في خلقـــه، فليس لجيل أن يعمر في الأرض ما شاء وليس لأحد أن يعيش دنياه كما يريد من العمـــر الطويل والحياة الممدودة .

ولهذا فكل جيل يسلم الأمانة إلى جيل، وكل عهد يترك الرسالة لمن بعده، فإذا كان الجيل السابق أو العهد السابق واعياً للمستقبل،، ناظرا بعين الجد والإخلاص، للأجيال اللاحقة،عنى بالطفولة، وأكد الوصية بها، لأنها هي رائدة المستقبل، فإن كان الأبناء مسلحين بالإيمان، مستنيرين بالعلم مدعمين بالتجربة والوصايا والنصائح والخبرات، وإذا كان الأبناء في تكوينهم الأول أخذوا الطابع الجاد، وتمرسوا في خطى حياتهم على العلم والعمل، والإخلاص والخلق الفاضل، والتربية الإسلامية الصحيحة، القائمة على العمل والقدرة قبل القول والتوجيه، وقامت حياتهم على الإيمان بالله، وانتهاج منهاج الحق والعدل، والجد والاجتهاد، نهضت في مستقبل حياتها، وتسلمت الرسالة وهى قادرة على حملها، غير هيابة ولا وهنانة .

وإذا كان الجيل السابق واعياً لحاضره معنيا به، فإنه لا تشغله فيه مهمة عن مهمة، ولا رسالة عن أخرى، ولا ينسى في زحمة الحياة وتكدس الأعمال والمطالب، وضخامة رسالته، ثقل أمانته، لا ينسى مع كل هذا وذاك رسالته تجاه الطفولة، ولا حقوقها، لأنها بحاضرها ووجودها قد أخذت موقعها في الحياة غيرها هو المسئول عنها، وغدا تكون هي المسئولة عن غيرها وهكذا .

وإذا كانت العناية بالطفولة لها هذه الأهمية، فإن أولى الأطفال بالعناية هم أولئك الذين فقدوا آباءهم، فهم في أشد الحاجة إلى الرعاية الدائمة، والاهتمام الأكيد والصادق، حتى نعوضهم عن الحنان الذي فقدوه، والأبوة التي حرموا منها، ولا يتأتى ذلك إلا في جو يفيض بالرحمة ويعنى بالتعليم .

والعناية بالطفولة في الإسلام من الموضوعات الأساسية الهامة التي عالجها القرآن الكريم وترجمتها السيرة النبوية المطهرة ونظمها الفقه الإسلامي لتكون حقا زينة الحياة الدنيا، حيث قال تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا) [(1)] وفى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم شواهد حافلة

---

(1) الكهف ، ٤٦.

بالرعاية الصادقة بالطفولة، وفيها لمحات تربوية ونفسية مليئة بالحنان والعطف على الأطفال فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يداعب الأطفال الصغار ويتلطف معهم ويقضي معهم وقتا في اللعب . والدليل على ذلك ما رواه الطبراني عن جابر قال : قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يمشي على أربعة (أي على يديه ورجليه) وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول : " نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما " [٢].

كيف اهتم الإسلام بالطفل ؟

نعرض هنا لمحات من مواقف الإسلام الخالدة تجاه الطفل، قبل أن يولد وبعد مولده، في صورة مختصرة لا نسعى من وراء ذلك حصر كل أبعاد هذا الجانب - فكل جانب منها يحتاج لدراسة - ونعرض الآن ما وضحه الإسلام في بناء الأسرة قبل خروج الطفل للحياة .

أولاً : قبل مولد الطفل :-

١-الحياة الزوجية وبناء الأسرة في الإسلام :-

الأسرة هي مدرسة الحياة الأولى، التي فيها يتلقى الأبناء العادات والتقاليد، وفي ظلها تترعرع أخلاقهم، وفي أحضانها تنمو عواطفهم، لذا أحاطها الإسلام بعناية فائقة، وأرسى الإسلام للأسرة أسس الحق والخير، ووضح لها معالم الطريق بين الحقوق والواجبات .

وكما عني الإسلام بالأبناء منذ طفولتهم إلى شبابهم، وحتى نهاية مرحلة الحياة ووجه الأبناء إلى رعايتهم، وحسن معاملتهم وتنشئتهم، فإنه عني بالوصية بالآباء، وأدار ما يجب نحوهم من رعاية، رداً لبعض الفضل الذي لهم على أبنائهم وعرفانا لهم الجميل.

---

(٢) عبد الله ناصح علوان ، تربية الأولاد في الإسلام ، ط٦ ، ج٢ ، ١٩٨٣ ، ص ٩٣٧.

وتلك الحقوق والواجبات، تدور في حلقة متصلة من سلسلة الحياة فأبناء اليوم هـــو آباء الغد وآباء اليوم كانوا أبنا الأمس، أما بالنسبة لحقوق الأبناء فإنها تأخذ مسارين :

إن الطفل في حياتنا نبت صغير لابد له من الرعاية التي يرتوي فيها من عواطفنـــا المتدفقة بالحب، كما لابد من المحافظة عليه من الآفات فإذا ما استوى عـــودة الريـــان، بعيدا عن الأجواء الغائمة، استطاع أن يستنشق عبير الحياة صافياً، وتفتحت عيناه علـــى هذا الاستقرار والأمن، فيقطع أشواط المرحلة الأولى منذ فجرها بعيدا عن العقد النفسية، بعيدا عن التوتر الأسرى، فإذا به باسم للحياة مقبل على دوره فيها بالأمل والعمل .

أما إذا كان الجو الأسرى حوله غائماً، وتفتحت عيناه على مؤثرات نفسية تثيرهـــا الأسرة، وأحس بجفاف العواطف، التي تتأرجح بها الحياة بين مد وجزر، فإنـــه عندئـــذ يستشعر الضيق، والملل والإعياء النفسي الذي كثيراً ما يترك في حياته بعض الرواسب.

ومن هنا كان على الوالدين أن يعالجا مشاكلهما بسهولة ويســـر، ودون تصـــايح أو تظاهر أمام الأطفال، وأن يجعلا من حياتهما مشاهد نابضة بكل ما هو حسن وجميل .

ومن أهم ما يجب على الآباء أن يحرصوا عليه، هو أن يسود جو الهدوء والســـكن والمودة في الأسرة، بحيث لا يتطاير شجار بين الأبوين، أو الأخوة الكبار، فيؤثر ذلـــك على الصغار، ويجعلهم في جو غائم متوتر، وألا يختلط الأبناء بذوي السلوك السيئ، أو العادات المرذولة من أقرانهم، لأن ذلك يؤثر في سلوكهم، وينتقل عدوى الخلق الســـيئ من الآخرين إليهم .

٢-اختيار الزوجة الصالحة :-

ونظراً للدور الهام الذي تلعبه الأم في حياة الطفل يقرر الإسلام عند التفكير في بناء الأسرة حق الطفل في أن تختار أمة على أساس من الدين قبل كل اعتبار دنيوي آخـــر جرت العادة باعتباره عند الاختيار، لما له من أثر في تربية الأولاد واستقرار الأســـرة وسعادته . قال تعالى :(ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمه مؤمنة خير من مشركة

ولو أعجبتكم)[٣] وعن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تنكح المرأة لأربع لما لها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها فأظفر بذات الدين تربت يداك"[٤].

وأحاط الإسلام الطفل بالرعاية الكاملة والرضى النفسي عبر نموه المتواصل وتطور حياته فقبل الولادة لابد من اختيار الزوج للأم الصالحة والدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوجوا في الحجز الصالح فإن العرق دساس " [٥] والحجز (بضم الحاء وسكون الجيم) المنبت الصالح .

من حق الطفل أن يعيش في كنف أب وأم صالحين، فالرجل المسلم عند الزواج يختار له المرأة الصالحة أخلاقاً ودينا وصحة بدنية، وكذلك الزوج سيصبح أبا والدا لأبنائه وبناته لذا فصحته الجسمية وسلامته العقلية واستقامته الخلقية . وأصلا سلامة عقيدته المسلمة أساس أكيد في الأبوة الصالحة، وعلى الزوج أن يدقق في اختيار الزوجة بكل عناية وروية وتبصر، لأن الأم هي المدرسة الأولى للطفل ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في شأن اختيار الزوجة الصالحة عند الزواج إياكم وخضراء الدمن، قالوا : ومن خضراء الدمن يا رسول الله، قال : المرأة الحسناء في منبت السوء "ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث يبين الأثر الذي تنتجه الوراثة حين يقول: " تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس ".

كما نادى الإسلام بالتكافؤ الخلقي القيمي النفسي والصحي بين الزوجين لأنه أساس الوئام والوفاق بين الزوجين مما يساعد على تهيئة الجو الصالح لتنشئة الأجيال [٦].

---

(٣) سورة البقرة ، ٢٢١.

(٤) البخاري بحاشية السندى ، ج٣ ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية د.ت. ص ٢٤٢.

(٥) رواه ابن عدى الجامع الصغير الجزء الأول .

(٦) محمد متولى الشعراوى ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

وحرصا على صحة أولاد من الضعف والأمراض الوراثية وجه الإسلام الأب إلى ألا يتزوج من القرابة القريبة .

وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" لا تنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاويا "[٧] (أي نحيفا) . كما أكد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما وجد بني السائب يحرصون على الزواج من أقربائهم فقال لهم: " قد ضويتهم (أي ضعفتهم) فأنكحوا في الغرائب "[٨].

٣-آداب المعاشرة الزوجية :-

ومع أن النسل والتوالد من الأمور المباركة أو المحببة في الإسلام إلا أن ذلك مشروط بالقدرة على الإنفاق وحسن الإعالة، قال عمرو بن العاص على المنبر يوم الجمعة خطيباً يعظ المسلمين بمصر وينهاهم عن الفضل وكثر العيال، فقال " ...يا معشر الناس إياكم وخلال أربعة فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، وعلى الضيق بعد السعة وإلى الذلة بعد العزة : إياكم وكثر العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقيل بعد القال، من غير درك ولا نوال ".

وقول الرسول الكريم " يا معش الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج " والباءة المقدرة على الزواج والإنفاق، وقد وضع الإسلام محددات، وخطوات سليمة حتى عند المعاشرة الزوجية، فهناك آداب تتبع، حتى يخرج الطفل نبتا صالحا، قال النبي صلى الله عليه وسلم أما لو أن أحدهم يقول حين يأتي أهلة باسمه الله اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ثم قدر بينهما في ذلك أو قضى ولد لم يضره شيطان أبداً .(صحيح البخاري)

٤-رعاية الأمومة (الأم الحامل):-

---

(٧) أبو حامد الغزالي ، المرجع السابق ، ص ٢٧٤.

(٨) زكريا السرى ، الأحكام الأساسية للأسرة الإسلامية في الفقه والقانون ، ط ٤ ، القاهرة : دار الشباب للطباعة ، ١٩٨٤ ، ص ٤٠.

وتمتد حقوق الطفل قبل ولادته وهو جنين في بطن أمه فتكثر بسببه الواجبات على الأم الحامل، فلا يحل لها أن تفرط في حملها وتجهض نفسها، وفرض الإسلام عقوبة وتعويضا إذا تسبب أحد في إسقاط جنين امرأة لأنه صار روحا وجسدا له حقوق الإنسان وحرمانه التي تعرض المعتدى لغضب الله [٩].

كما تعهد الإسلام الجنين بالتغذية والحفظ والرعاية فأمر الزوج بالإنفاق على زوجه الحامل حسب مقدرته، وأمره ألا يضيق عليها ولا يكلفها مالا تطيق، قال تعالى: " أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن"[١٠].

ورحمة من الله بالجنين رفع الإسلام عن أمة المشقة التي تعود عليه بالأذى فرخص لها الإفطار في رمضان خوفا على الجنين فيهلك، وعلى الأم فتضعف . عن أنس بن مالك الكعبى قال، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة وعن الحبلى والمرضع الصوم [١١]، كما منع الإسلام إقامة الحد على الأم الحامل حتى تضع حملها وترضعه حتى يستغني عن الرضاعة وتقوم على حضانته حتى الفطام . فعن سليمان بن بريدة عن أبيه، النبي صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة من غامد من الأزد، فقالت : يا رسول الله طهرني، فقال: ويحك، أرجعي فاستغفري الله وتوبي إليه، فقالت: أراك تريد أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك، قال : ما ذاك ؟ قالت إنها حبلى من الزنا . قال أنت : قال نعم، فقال لها حتى تضعي ما في بطنك، قال فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت قال فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قد وضعت الغامدية، فقال: إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه، فقال الرجل من الأنصار فقال إلى رضاعة يا نبي الله قال فرجمها[١٢].

---

(٩) السيد سابق ، فقه السنة ، المجلد الثاني ، ط٧ ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٥ ، ص ٥٦٥.

(١٠) سورة الطلاق ، ٦ .

(١١) محمد بن على الشوكانى ، نيل الأوطار ، ج ٤ ، القاهرة : مكتبة دار التراث ، د.ت ص ٢٣٥.

(١٢) محمد بن على الشوكانى ، مرجع سابق ، ص ١١.

٥-حق الطفل في الميراث وهو جنين :-

ومن الحقوق التي أقرها الإسلام للجنين حق التملك بالوصية والإرث، فهو يرث ممن يتوفون قبل ولادته، وتصح الهبة والوصية له ويتحمل في ماله كافة الحقوق التي على الإنسان للغير (١٣) وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا استهل المولود ورث "(١٤).

٦-حق ثبوت النسب :-

صانت الشريعة الإسلامية الأنساب من الضياع والكذب والتزييف وجعلت ثبوت النسب حقا للولد يدفع به عن نفسه المذلة والضياع (١٥)، وترجع أهمية هذا الحق إلى أنه يترتب عليه حقوق أخرى بينتها الشريعة كحق النفقة، والرضاع، والحضانة، والإرث، ويتعلق به الله تعالى لاتصاله بحقوق حرمات أوجب الله رعايتها (١٦).

وقد أحاط الإسلام النسب بسياج من الحضانة يحميه من الشك ويدفع عنه الشبه، فلم يقبل نفى النسب لمجرد اختلاف الشبه فهذا الأعرابي الذي شك في نسب الطفل الذي ولدته زوجته، ويقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ولد لي غلام أسود وأنا أبيض، فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يرمى إليه الأعرابي من محاولة نفى النسب والطعن فيه، وقال له : هل لك من إبل ؟

قال: نعم، قال : ما ألوانها ؟ قال : حمر، قال : هل فيها من أورق ؟ قال: نعم قال : فمن أين ذلك للون الأورق والآباء حمر ؟ قال الرجل : لعله نزعة عرق وورث هذا

(١٣) جاد الحق على جاد الحق ، حقوق الطفل في الإسلام ، مجلة الأزهر . جمادى الأولى ١٤٠٩هـ .

(١٤) محمد بن علي الشوكاني ، مرجع سابق ، ص ٦٧.

(١٥) محمد الحسيني ، الأحوال الشخصية ، القاهرة : المكتبة الأزهرية ، ١٩٨٣ ، ص ١٣٤.

(١٦) كمال صالح البنا ، مرافعات الأحوال الشخصية للولاية على النفس في ضوء الفقه وأحكام النقض ، القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٧، ص ص ١٦٧-١٦٨.

اللون من جد بعيد، قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعل ابنك هذا نزعة عـرق وورث هذا اللون الأسود من جد بعيد كذلك [١٧].

وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم الطعن في النسب كالكفر، لأن الكفر يؤدى إلـى الحرمان الأخروي والطعن في النسب يؤدى إلى الحرمان الدنيوي، فعن أبـي هريـرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اثنتان في الناس هما بـهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت [١٨] . وقد شدد الرسول صلـى الله عليـه وسلم في التثبت والتأكد من النسب وتوعد الذين يكتمون الحقيقة في الأنساب بالكفر وعدم دخول الجنة، وهذا التشديد يتمشى مع عناية الإسلام بصيانة الأسرة من كل شبهة، فعـن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا ترغبوا عن آبـائكم، فمن يرغب عن أبيه فهو كفر " [١٩] وعن سعد رضى الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " من أدعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام فذكرته لأبى بكرة فقال : وأنا سمعته أذناي ووعاه قلبي من رسول الله (صلى الله عليـه وسلم) [٢٠].

وصونا للأنساب من الضياع وحفظا للحقول الأسرية المرتبطة بالقرابة، فقد حـرم الإسلام التبني، وهو أن ينسب الشخص إلى نفسه طفلاً يعرف أنه ولد غيره وليس ولـدا له، وكان العرب في الجاهلية يفعلون ذلك واستمر فترة في صدر الإسلام حتى نزل قوله تعالى :" وما جعل أدعيائكم أبنائكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهـو يـهدى السبيل، وأدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آبائهم فـإخوانكم فـي الديـن

---

(١٧) موسى شاهين لاشـين ، فتـح المنعـم شـرح صحيـح مسـلم ، ج١ ، القـاهرة : مطبعـة دار التـأليف : ١٩٦٩ ، ص ٣٧١.

(١٨) المرجع السابق ، ص ٣٧٢.

(١٩) البخاري ، ج ٤ ، ص ١٧٠.

(٢٠) البخاري ، ص ١٧٠.

وموإليكم "[٢١]ومن هنا حرم الإسلام التبني وأبطل العمل به ونفى أن يكون طريقا لإثبات البنوة .

ثانياً – الطفل بعد الولادة :-

٧-حسن اختيار الاسم :-

ومن عناية الإسلام بالأبناء : تخير الاسم الحسن، فذلك من حق الولد على أبيه وفى الحديث، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا سميتم فعبدوا " [٢٢] . والمراد بهذا التوجيه النبوي أن يسمى الوالد ولده عبد الله، أو عبد الرحمن وهكذا، بالإضافة إلى واحد من أسماء الله الحسنى، ليظل في الاسم إشعار وإعلان بالعبودية لله . وليكون لأبناء المسلمين تمييز خاص عن غيرهم، وأسماء تحمل أروع المعاني الإسلامية .

ومن الأسماء ما هو غير ذلك، وهو لا شك حين يحمل معنى حسناً، أو يكون على اسم صحابي من الصحابة رضوان الله عليهم، أو له معنى طيب، فهذا أيضاً حسن وطيب. وقد ورد في بعض الأحاديث، أحب الأسماء إلى الله. قال صلى الله عليه وسلم : " أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن "

ومن الأسماء ما كان على اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل: "محمد وأحمد" إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يأمر بالتسمية باسمه ينهى عن التكني بكنيته، فيقول صلوات الله وسلامه عليه :" تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي "[٢٣].

وإذا كانت العناية بالأبناء بلغت هذا الحد في الإسلام، فإن لهذه العناية دلالة هامة بشأن الأبناء، ذلك أن الطفل في حياته الأولى، وفى طفولته الضعيفة، لا يملك من أمره شيئاً، ولا يملك من شأنه وشأن اسمه شيئاً، لذا كان على الآباء أن يعنوا بهذا الأمر، وهو

---

(٢١) سورة الأحزاب ، ٤ .

(٢٢) رواه الطبراني والبيهقي .

(٢٣) متفق عليه .

وإن كان في ظاهرة بسيطاً إلا أن له تأثيرا بعد ذلك على نفسية الطفل بعد أن يكبر ويخرج إلى المجتمع، فيظهر أثر التسمية السيئة في حالاته النفسية بين أقرانه .

وإذا كنا نرى تعاليم الإسلام تدعو إلى تخير الأسماء الحسنة للأبناء، فليس المراد بحسن الأسماء ما يوافق هدى الناس أيا كانوا، وعلى أية حالة كانت مشاربهم وأذواقهم، بل أن تخير الإسلام للأسماء الحسنة مثل له فيما سبق من الأحاديث كعبد الرحمن، وأسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والتابعين وغيرهم من أصحاب الأسماء الحسنة .

ولا نطلق العنان لتخير الأسماء ولا ندعه لأذواق غير طبيعية، تفرط في تدليل الأبناء، فتسمى بأسماء لا معنى لها، أو بأسماء الغربيين، وأسماء غير المسلمين فهذا خطأ فاحش، وجرم شنيع في حق الأبناء والإسلام [٢٤].

٨-الرضاعة وشروطها ومدتها وأهميتها :-

إن أول حق من حقوق الطفل على أمه هو حق الرضاعة، فقد أجرى الله سبحانه وتعالى اللبن في صدر الأم جامعا لكل أنواع الغذاء المناسبة لتكوين الطفل وألهم الله الأطفال وهداهم إلى الإقبال على امتصاص لبن الأم من ثديها بقدرته وحكمته كما خلقه سبحانه وتعالى وحوله من دم إلى لبن صافى فيها عناصر الغذاء والتكوين وبناء جسم الطفل ونظم سبحانه وتعالى مدة الرضاعة لمن أراد إتمامها في قوله (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة)[٢٥].

وعلى الأم أن تؤدى واجب الرضاعة ما دامت قادرة فهو حق للطفل أجراه الله تعالى في صدرها، وحدد القرآن الكريم مدة الرضاعة بحولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، ولا يمانع الإسلام بالفطام قبل الحولين بشرط أن يكون بعد تراض وتشاور

---

(٢٤) أحمد عمر هاشم "الطفولة في الإسلام" المؤتمر الدولي للطفولة في الإسلام" القاهرة ٩-١٢ أكتوبر ١٩٩٠، ص ٣٨.

(٢٥) سورة البقرة ٢٣٣.

بين الأب والأم وبحيث لا يلحق الطفل ضرر كما قال سبحانه وتعالى:" فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ".

ولبن الأم هو الغذاء الإلهي الذي أعده الله تعالى وأجره حقا للطفل وهو أنسب وأصح غذاء له . وقد أعد الله تعالى في الأيام الثلاثة الأولى في لبن الأم سائلا خاصا يسد حاجة الطفل إلى الغذاء في أول حياته، ولهذا السائل الخاص أثره في إصلاح الجهاز الهضمي لدى الطفل .

والأم المرضع تستشعر بأنها تؤدى ناجيها تجاه طفلها وتستشعر طعم الأمومة التي تجيش بها عواطفها فتقوى وحدانيا ومعنويا . ولأهمية حق الرضاعة، أكد الإسلام المطالبة به والحفاظ عليه رعاية للطفولة وحماية للأبناء .

ومن رعاية الإسلام لحقوق الطفولة أن عنى القائمون من أولياء الأمور بمشروعية دفع جزء من المال لكل فطيم إلا أن هذا الإجراء دفع بعض الأسر الفقيرة أن يعجلا أطفالهم على الفطام قبل انتهاء المدة، إلى أن كان عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فغير هذا القانون وجعل هذا المبلغ الذي يدفع للطفل كضمان اجتماعي يشترط فيه الفطام بل يدفع لكل طفل من أول يوم ولادته حتى لا يتأثر الأطفال باستعجال الفطام قبل أن يتموا مدة الرضاعة المطلوبة .

ذات ليلة قدم المدينة بعض التجار فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لعبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه هل لك أن تحرسهم الليلة؟ قال : نعم، فباتا يحرسانهم، سمع عمر بكاء صبى، فتوجيه نحوه فقال لأمة : اتقى الله واحسني إلى صبيك ثم عاد إلى مكانه .

فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبي، فأتى إلى أمه فقال لها: ويحك أنى أراك أم سوء مالي أرى أبنك لا يقر له قرار منذ الليلة من البكاء؟ . قالت يا عبد الله لقد أضجرتني منذ الليل، أنى أحمله على الفطام فيأبى، قال: ولم ؟ قالت ؟ لأن عمر لا يفض إلا للفطيم . قال: وكما له ؟ قالت : كذا وكذا شهر قال : يا بؤسا لعمركم قتل من

أولاد المسلمين، ثم أمر مناديا فنادى إلا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام وكتب بذلك إلي الآفاق " أنا نفرض لكل مولود في الإسلام ".

ومن دور الأم في تنشئة الطفل قيامها بالحضانة، فهي رحيمة بالأبناء، أعرف بالتربية، وأكثر رأفة وصبرا، ولهذا كانت الأم أحق بحضانة الطفل من الرجل .. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أبني هذا كان بطني له وعاء وثدي له سقاء، وحجري له حواء، وأن أباه طلقني وأراد إن ينتزعه مني، فقال صلى الله عليه وسلم : أنت أحق ما لم تنكحي" (٢٦). " بل قد تكون الأم أكثر رعاية لمصلحة الطفل، وهى حين تكون كذلك تكون أحق بحضانة ورعايته، قال الحسن البصري : سمعت شيخا يقول : تنازع أبوان صبيا عند بعض الحكام فخيره بينهما فاختار أباه، فقالت أمه: أساله لأي شئ أختار أباه ؟ فساله فقال: أمي تبعثني إلى الكتاب كل يوم والفقيه يضربني، وأبى يتركني بالبيت ألعب مع الصبيان فقضى به للأم، وقال: أنت أحق به (٢٧).

أما عن أهمية لبن الأم بالنسبة للطفل فقد أصبح من الحقائق العلمية أنه لا بديل للطفل من اللبن الذي خلقه الله لما يتضمنه من مكونات تختص بنمو المخ والأعصاب والقدرات الذهنية بالدرجة الأولى، فضلا عن أنه يتناسب مع جنس المولود، علاوة على درجة الحرارة المناسب (٢٨).

وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن أهمية عملية الرضاعة لا تقتصر على مجرد إطعام الطفل وتغذيته إذ أن الاتصال البدني بين الأم والطفل أثناء الرضاعة له آثاره الإيجابية على الطفل من الناحية النفسية، لذا ينصح علماء النفس الأمهات اللاتي يرضعن أطفالهن

---

(٢٦) رواه أبو داود.

(٢٧) زاد بن معاد .

(٢٨) عبد الحكيم السيد عبد الله ، أهمية الرضاعة الطبيعية ، مجلة الأزهر ، ذو القعدة ١٤٠٦ هـ ص ٣٤.

بالزجاجة أن تحمل طفلها وتضمه إلى صدرها، كما هو الحال في الرضاعة الطبيعية حتى يشعر الطفل بحنانها وحرارتها، مما يقلل من حالات القلق والتوتر لديه[29].

وهنا نلاحظ أن الأم حين تكون رعايتها وعنايتها بالطفل فهي أولى بأن يكون معها. ومن أهم جوانب رعاية الأم للطفل : أن ترعاه خلقيا كما ترعاه جسمانيا، وأن تنشئة على الإيمان بالله وعلى عبادة الله، وعلى الأخلاق الفاضلة، قولا وعملا وأن تراقبه في كل أحواله . وتوجهه إلى ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة، وألا تتكل على توجيه أبيه له، فإن أباه قد لا يلازمه وقتا كبيراً كما تلازمه أمه باعتبار أنها أكثر لزوما له وللبيت[30].

٩-رعاية الأم لطفلها :-

أن للأم دوراً هاما وأصيلاً، لأن مسئوليتها أهم، لأنها تلازم الطفل أكثر من الأب وأكثر من أية جهة أخرى .

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

إن الأم راعية لبيت زوجها ...ومسئولة عن أبنائها وعن أطفالها .

كما جاء في الحديث: "والأم راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها" .والأم التي لا تلازم أبنائها، وتنشغل عنهم بمهامها أو ضيوفها أو عملها هي مقصرة في أهم الواجبات المنوطة بها، فإن أهم واجبات الأم بل أن أول واجباتها رسالتها في بيتها .

ولا يكفى أن تكون الأم مبرزة في ميادين العمل والنشاط والجمعيات خارج البيت ولا يحظى أبناؤها بالرعاية الكافية، إنها حينئذ تكون مقصرة في أهم الواجبات ففي أحضانها تنمو عواطف الأبناء وتغرس عاداتهم وتقاليدهم، وتترعرع أخلاقهم فإذا لم تقم

---

(٢٩) سعد جلال ، الطفولة والمراهقة ، القاهرة : دار الفكر العربي ، د.ت ، ص ١٢٦.

(٣٠) أحمد عمر هاشم ، مرجع سابق ص ٥٢.

الأم بهذا الواجب أو تخلت عنه، وتخلى الأب أيضا لكثرة مهامه وأعماله فإن الطفل ينشأ نشأة اليتيم إن كان أبواه على قيد الحياة، كما يقول الشاعر :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلا

إن اليتيم هو الذي تلقى له أما تخلت أو أبا مشغولا

ولقد وجه الإسلام إلى العناية بالأهل والأبناء في طليعتهم حتى لا يفرط الآباء أو الأمهات في واجبات أبنائهم وأهليهم .

يقول الله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة "(٣١).

إن الأبناء، والأطفال بصفة خاصة يمثلون رعية الأب والأم في المنزل وسيسأل كل من الأب والأم عن تلك الرعية فإما يحفظها ولم يضيعاها في الحديث : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها "(٣٢).

الحضانة :-

الحضانة حق من حقوق الطفل لاحتياجاته إلى من يرعاه ويتولى تربيته، كما أنها حق للحاضن أيا كان أبا أو أما، وفق ذلك كله حق الله تعالى امتثالا للأمر بالتزام الطفل بالإرضاع كما نصت عليه الآية الكريمة (الوالدات يرضعن أولادهن ..) وقد عرفها الفقهاء : بأنها القيام بحفظ الصغير الذي لا يميز ولا يستقل بأمره وتعهده بما يصلحه ووقايته مما يؤذيه ويضره وتربيته جسمياً ونفسياً وعقلياً كي يقوم على النهوض بتبعات الحياة والاضطلاع بمسئولياتها (٣٣).

---

(٣١) سورة التحريم ٦ .

(٣٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣٣) السيد سابق ، فقه السنة ، مرجع سابق ، ص ٣٣٨.

والحضانة على الترتيب الذي استقر عليه الفقه الإسلامي تقدر مصلحة الطفل، وتتلاءم واحتياجاته الصحية، والنفسية، وهي أن الأم أولى بحضانة الطفل ما لم تتزوج .

قال أبن القيم : لما كانت النساء أعرف بالتربية وأقدر عليها وأصبر وأفرغ لها، لذا قدمت الأم ولاية الحضانة، وذلك من محاسن الشريعة والاحتياط للطفل (٣٤).

ولقد ذكّى الرسول صلى الله عليه وسلم فعل نساء طيبات مات عنهن أزواجهن فاصطبرن ولم يتزوجن من بعدهم كي يتفرغن ويخلصن لتربية أولادهن . قال صلى الله عليه وسلم " أنا وسعفاء الخدين في الجنة كهاتين - وأشار بإصبعيه الوسطى والسبابة " قالوا يا رسول الله: وما سعفاء الخدين؟ قال:"امرأة توفى زوجها فقعدت على عيالها" (٣٥)

أما عن دور الأب فقد جعل الشارع واجبه أبان مدة الحضانة إلى جانب كونه مكلفاً بالإنفاق على الطفل وحاضنته، متابعة حياة ونمو الطفل ومراقبته هو ومن تحضنه في سائر أحواله حتى يتمكن من تخطى مرحلة الضعف.

ولما كانت الحضانة حقا للصغير فإن الأم تجبر عليها إذا تعينت بأن يحتاج إليها ولم يوجد غيرها، كي لا يضيع حق الطفل في التربية والتأديب (٣٦).

أن مدة الحضانة ليس فيها دليل من كتاب ولا سنة قاطعة والمدار فيها على نفع المحضون، فالأولى أن تطول مدة الحضانة أو تقصر بما يحقق للطفل النفع والخير، ذلك يختلف باختلاف الظروف والأحوال . ولما كان الطفل في فترة الحضانة بحاجة إلى عناية البالغين به بدرجة تفوق فيها مدتها وحدتها طفولة كل الكائنات الحيوانية، على جميع مستوياتها، فإن لهذه الفترة دلالة اجتماعية والنفسية، وعلى هذا يظل الوليد الإنساني فترة طويلة بحاجة شديدة إلى استمرار عناية البالغين به كشرط لاستمرار بقائه أولا، ثم لبقائه فرداً إنسانياً ثانياً وبدون هذه العناية من جانب البالغين ودون استمرارها

---

(٣٤) ابن القيم الجوزى ، زاد المعاد من هدى خير العباد ، ج٤ ، بيروت : دار الكتب العربي ، د.ت.

(٣٥) الصنعاني ، مرجع سابق ، ج ١١ ، ص ٢٩٩.

(٣٦) زكريا البرى ، الأحكام الأساسية للأسرة ، مرجع سابق ، ص ١٩٣.

لا يستطيع الفرد الإنساني أن يتعدى مرحلة الفردية البيولوجية وحدها دون أن يكتسب الصفات الاجتماعية والنفسية التي تجعل منه إنساناً له مقومات وصفات الإنسانية .

١٠-حق النفقة (الإنفاق على رعاية الطفل):-

يرى الفقهاء أن نفقة الأبناء ذكوراً وإناثاً واجبة على الأب واستدلوا على ذلك بالكتاب والسنة والإجماع (٣٧): أما الكتاب فقال تعالى : (فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن) (٣٨) . ووجه الدلالة في هذه الآية أن إيجاب الأجرة لإرضاع الأولاد يقتضي إيجاب مؤنتهم .

ومن السنة: ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" تصدقوا قال رجل عندي دينار، قال تصدق به على نفسك، قال عندي دينا آخر قال تصدق به على زوجتك، قال عندي دينار آخر، قال : تصدق به على ولدك . قال عندي دينار آخر قال : تصدق به على خادمك، قال عندي دينار آخر، قال أنت أبصر به "(٣٩).

وأما الإجماع، فقال ابن المنذر، أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم أنه على المرء نفقة أولاده الأطفال الذين لا مال لهم، لأن ولد الإنسان من بعضه وهو بعض والده، فكما يجب عليه أن ينفق على نفسه وأهله، يجب عليه كذلك أن ينفق على بعضه وأهله "(٤٠).

وقد سما الإسلام بالنفقة على الأبناء حتى جعلها أفضل من النفقة في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك "(٤١).

---

(٣٧) رشاد حسن خليل ، نفقة الأقارب في الفقه الإسلامي ، دراسة مقارنة : دار المختار ، ١٩٨٧ ص ٤٧.

(٣٨) سورة الطلاق ٦ .

(٣٩) الشوكان ، ج٦ ، مرجع سابق ، ص ٣٢١.

(٤٠) عبد الرحمن العدوى، الوسيط في اللغة والفقه الإسلامي، أحكام الأسرة والمواريث، القاهرة: عالم الفكر، ١٩٨٩ ص ٦٧١

(٤١) الشوكان ، مرجع سابق ، ص ٣٢٠.

وقد جعل الله ثواب النفقة على الإناث أعظم، فعن عائشة رضى الله عنه قالت : جاءتني امرأة معها ابنتان، ثم قامت فخرجت فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال : من يلي من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن كن له سترا من الناس "[٤٢].

١١-حق الطفل في الحياة :-

وهو أول حق اقره الإسلام للطفل بحيث لا يجوز هدر حياته أو الاعتداء عليها بأية صورة من الصور، يقول الحق سبحانه وتعالى، (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق)[٤٣]. وذلك لأن الأطفال كانوا يقتلون في إسبرطة بسبب ضعف بنيتهم الجسمية، أو بسبب فقر بعض قبائل العرب في الجاهلية، وبعض الحضارات الأسيوية [٤٤].

والحياة يهبها الله تعالى، فلا يحق لأحد ولو كان والدا أو والدة أن يسلبها، فالله تعالى وحده بيده الحياة والموت : والدليل قوله تعالى :(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيراً "[٤٥].

وعند عرب الجاهلية كانت البنات توأد وقد أشار الله تعالى في قوله " وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت "[٤٦]. وفي قوله تعالى : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم)[٤٧]. ومما سبق نعلم أن نظرة الإسلام لحق الطفل في الحياة نظرة كريمة تعلى من شأنه وتمنحه الفرصة الكاملة في حياة إنسانية كريمة .

١٢-المساواة بين البنين والبنات :-

---

(٤٢) متن البخاري ، بحاشية السندى ، جزء ٤ ، مرجع سابق ، ص ٥١.

(٤٣) الأنعام ، ١٥١.

(٤٤) رابح تركي، حقوق الطفل بين التربية الإسلامية والتربية الغربية، مجلة العلوم الاجتماعية، ع٢، يوليو ١٩٨٠، ص ١٠٥

(٤٥) الإسراء ٣١.

(٤٦) التكوير ، ٨-٩.

(٤٧) الأنعام ، ١٤٠.

ولقد كانت نظرة بعض الناس للبنات في المجتمع الجاهلي نظرة خاطئة، امتد بـــها الخطأ إلى درجة الظلم والإجرام، حيث أصبحت حياتها رخيصة، بل تمثل عبئا ثقيـــلاً، وعارا وسبة في حياتهم القائمة . قال تعالى :(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجه مســوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في الـتراب ألا ساء ما يحكمونه)[48].

ولقد جاء الإسلام بهديه الواضح، فأرسى منهج الحق والعدل وأقام أسس الإصـــلاح في شتى المجالات، في الفرد والأسرة، والمجتمع والأمة، وفـــي كـــل أفـــراد الجنـــس البشرى، ولقد رفع الإسلام الظلم عن البنات، ذلك الظلم الذي وصل إلى حد أن يحمـــل البعض ابنته الصغيرة على ذراعيه، ليدفنها حية وهى على ذراعيه . يقول الله تعـــالى (وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت).

لقد حرم الإسلام وأد البنات، وهيأ لهن من أسباب الأمن والاستقرار ما يكفل الحيـاة المطمئنة، وقرر لهن الحقوق العادلة، والإنصاف التام .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مـــن عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا هو، وضم أصابعه "

وهنا نقف على القيمة العالية لتربية البنات، وعلى مدى مكانه من يعول البنات، أنــه قريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم قريب من رحمة الله، أمن من عذابه إذا استقام على الحق وأدى واجبه نحو بناته وعناية ورعاية .

وإذا كانت العادات الجاهلية قد انمحت بانقضاء عهدها، وبزوغ شمس الإسلام، التي أضاءت طريق الحياة، وأزالت كل التقاليد البالية، والعادات السيئة . إلا أن هناك بعـض الرواسب المرة في بعض المجتمعات البشرية وتلك الرواسب تتمثل في تـــبرم بعــض الناس واشمئزازه، إذا جاءت له أنثى فلا يهش لها كما يهش للذكر، ويتقبلـــها مـــن أول

(48) سورة النحل ٥٨-٥٩.

وهلة على مضض،و لا يقتصر الأمر عند هذا الحد فحسب، بل أن البعض يتبرم بزوجه ويسئ معاملتها، وكأنها بيدها شئ من الأمر، مع أنها لا حول لها ولا طول، ولا يملك هذا الأمر إلا الخالق القادر، العليم الخبير، الذي يفعل ما يشاء ويختار، وحكمته العالية خفيت عن العقول، إنه سبحانه وتعالى له ملك السماوات والأرض، وما دام له ملك السماوات والأرض، فهو سبحانه يخلق ما يشاء، ويهب من يشاء فهو العليم بكل شئ وهو القادر على كل شئ .

قال تعالى : (لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما أنه عليم قدير) [٤٩].

ولأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يصور الخلق في الأرحام، من ذكورة أو أنوثة، ومن بياض أو سواد، وهكذا قال سبحانه : (هو الذي صوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) . (وجعل الله لكل ذكر أو أنثى جزاء عمله، ولا يضيع الله عمل عامل) [٥٠]، قال تعالى : (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض)[٥١].

وهكذا أنصف الإسلام كلا من الذكر والأنثى، ونقى الإسلام حياة الأسرة من رواسب الجاهلية، وأرسل ضوءه المبين إلى دنيا الناس، فوقف المسلمون على أمور دينهم، وحرصوا على تعاليمه السمحة، التي تأخذ بأيديهم إلى بر الأمان والطمأنينة وقد أنقذ الإسلام الطفولة البريئة والأنثى الضعيفة من الجهل المطبق والعدوان الصارخ الذي كان يتهدد الإنساني بالضياع والخسران.

---

(٤٩) سورة الشورى ، ٤٩-٥٠.

(٥٠) سورة آل عمران ، ٦.

(٥١) سورة آل عمران ١٦٥.

ومن ذلك يتضح لنا أن الإسلام قد قضى على العادات السيئة من وأد البنات، ومن بغضهن، كما قضى على تلك الرواسب الأخرى من كراهية ولادة البنت، وسوء معاملة الزوجة بسبب ذلك .

١٣ – حسن المعاملة والتربية الصحيحة والتنشئة الإسلامية :-

والحقوق والواجبات، بين الآباء والأبناء، تدور في حلقة متصلة من سلسلة الحياة فأبناء اليوم هم آباء الغدو وآباء اليوم كانوا أبناء الأمس، أما بالنسبة لحقوق الأبناء فإنها تأخذ مسارين :

الجانب الأول :-

جانب العطف والرحمة، وللعطف على الأبناء أثر بالغ في تنشئتهم وتفتح مداركم، شريطة إلا يفضي إلى التدليل المفرط، الذي يؤثر على سلوكهم الجاد في الحياة .

وعدم الرحمة والعطف على الأبناء ومعاملتهم بالقسوة والغلظة، أو تعرضهم للجفوة من الآباء، يعرضهم إلى إظلام نفوسهم، وانطفاء شعلة الذكاء في عقولهم، ويغريهم العقوق والتمرد، وربما الغواية الفساد .

ومن أجل ذلك يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم الوصية بالأبناء، والعطف عليهم والرحمة بهم، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : رأى الأقرع بن حابس والنبي صلى الله عليه وسلم يقبل ولده الحسن فقال لي : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :" من لا يَرحم لا يُرحم ".

وأما الجانب الثاني :-

فهو إحسان أدبهم وتنشئتهم النشأة الصالحة التي تقوم على أسس الدين الصحيحة، بعيدا عن الترهات والأباطيل، بعيدا عن الخرافات والأساطير، فلا يملأ الآباء رؤوس أبنائهم بالخرافات، بغية تسليتهم، أو تهدئتهم في بعض الأحيان، كما ينبغي في جانب التربية ملاحظة التسوية بين الأبناء ذكوراً وإناثاً، فلا يفضل الذكر على الأنثى ولا

يفضل بعض الأبناء ذكوراً على بعض، ولا بعض الإناث على بعض فإن في مثل هذه الحالات رد فعل سيئ، يؤثر في علاقات الأبناء بعد ذلك، بعضهم مع بعض ويمزق وشائج الرحم والرحمة، ويزرع في نفوسهم الحقد والضغينة .

ولكن عندما ينظر إلى الطفولة على أنها رائدة المستقبل، ونسلم لها الراية شيئا فشيئاً، وتدرب على كل شئ في كل مرحلة، بما يتوام مع ميول الأطفال وإدراكهم، وتضاعف لهم برامج التعليم والتوجيه والتربية والتشجيع، فقد تتفتق عقولهم على عبقرية أو موهبة تأتي بالجديد وبالنافع، وباكتشافات تنفع الحياة والمجتمعات .

إن للطفولة المعوقة حقوقاً يجب أن نؤديها لها، وكل إنسان في المجتمع بحسب موقعه فيه وبقدر طاقته . وعلى الوالدين والأسرة واجب ديني وأسرى وإنساني تجاه الطفل المعوق إنه ليس له صدر حان سواهم، فهم أهله وهو أولى الناس به، وأجدر أن يقوموا بما يحتاجه وأن يهيئوا له متطلباته، وكل أسباب الحياة السعيدة .

وبعد الأسر قد تشمئز أو تأنف من طفلها المعاق، أو قد تستحي منه أمام الناس، وهذا خطأ فاحش وظلم كبير وارتكاب لأكبر الخطايا في حق طفولتهم بل عليهم أن يقوموا بتوفير الراحة والأمن والعلاج والتعليم والتدريب، حتى يشعر الطفل بوجوده، ويشعر بالحنان وأن يراقبوا الله تعالى في أمر خلقه، وفى بعض أبنائهم وهم إن كانوا مخلصين، وقاموا برسالتهم تجاه طفولتهم، يجزيهم الله جزاء حسنا في الدنيا والآخرة .

الحقوق التربوية:-

١٤-حق الطفل في التعليم :-

ليس كالإسلام دين جعل العلم فريضة وشعيرة، وحث على طلبه في كل مكان واكتسابه بكل الوسائل، ومن ثم حق الأطفال في التعليم يصبح واجباً دينياً لا سبيل إلى التهرب منه. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من

جهالة أهله "(٥٢) . ويتفق مع هذا الحديث المثل الصيني، " لأن تطعم طفلك دون أن تعلمه خطيئة كبرى لا تغتفر " . ومثل ذلك ما ذكره مفكر مسلم " من ربى ماله ولم يرب ولده، فقد ضيع الولد والثروة " (٥٣).

وقد كرر الرسول صلى الله عليه وسلم في مناسبات كثيرة حق الأولاد على آبائهم في تعلم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم. عن أبي رافع قال: "قلت يا رسول الله للولد حق كحقنا عليهم ؟ " قال صلى الله عليه وسلم :" نعم، حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة وألا يرزقه إلا طيباً " (٥٤) . وفي رواية عن رافع بلفظ " قلت يا رسول الله : لأولادنا حق كحقنا عليهم ؟ فذكر صلى الله عليه وسلم " من حقهم على آبائهم تعليم كتاب الله والرمي والسباحة "(٥٥).

ويرى ابن مسعود أن التعليم ضرورة حياة وتقدم، وأنه من معلم يؤجر لتعليمهم حتى لا يصبح الناس أميين . فالتربية – كما يقول الجاحظ – ضرورة لإخراج الناس، من حد الطفولة والجهل إلى حد البلوغ والاعتدال الصحة والتمام " (٥٦).

يخلق الطفل ميالا بطبعه للحركة واللعب، ميالا بطبعه للمعرفة والاستطلاع فالحركة واللعب وحب المعرفة تمثل أنواعاً من الحاجات النمائية الأصلية عند الطفل .

وأوضح المنهج التربوي في الإسلام حق الطفل في التربية والتعليم والتنشئة السلوكية . وجعل ذلك واجب من الواجبات الأساسية في الأبوة والأمومة أو من يقوم مقامها . فللأسرة أثر كبير وعميق في تربية البنين والبنات . ودعوة الإسلام للعلم والتعليم هي دعوة أساسية تستهدف إيجاد المجتمع المسلم المثقف الواعي، فإن أول آية من القرآن الكريم نزلت على الرسول تدعو للعمل والقراءة باسم الله (اقرأ باسم ربك

---

(٥٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين مرجع سابق ، ج ٢ ص ٥٢٩.

(٥٣) أحمد شلبي ، التربية الإسلامية ، نظمها وفلسفتها ، وتاريخ ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨، ص ٢١١.

(٥٤) الترمذي مرجع سابق ، ص ٢٣٩.

(٥٥) العجلوني ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٩٥.

(٥٦) رسائل الجاحظ ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦.

الذي خلق) هي دعوة صريحة للتعلم والأخذ بأسلوب العلم والمعرفة . ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم أهمية تعليم الأطفال وقابليتهم في قوله " العلم في الصغر كـــالنقش على الحجر "[٥٧] ذلك لأن قابلية الولد للتعلم وهو صغير أكثر من قابليته وهو كبـــير . وحق الطفل في التربية والتعليم حق عظيم وكبير وهو من المسئولية التي سيسأل عنـــها الأب والأم . والدليل على ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال : " كلكـــم راع وكلكم مسئول عن رعيته " [٥٨].

وتحدثنا السيرة النبوية أن الرسول طلب من أسرى قريش في غـــزوة بـــدر ممـــن يعرفون القراءة والكتابة أن يفدى كل واحد منهم نفسه بتعليم عشرة أطفال مـــن أبنـــاء المسلمين القراءة والكتابة حتى إذا قام بهذا العمل أصبح حرا من الأسر، وهذا مما يـــدل على مسئولية المجتمع على وجوب توفير التعليم والثقافة للطفل .

كما لم تبخس البنت حقـــها فـــي التعليـــم، فطـــالب العلـــم فريضـــة علـــى كـــل مسلم : ذكراً كان أو أنثى، وقد ألزم الإسلام كل رجل مسئول عن رعيته بتعليم زوجاتـــه وإمائه، وبناته كما يعلم أبناءه[٥٩].

وقد نهض المسلمون الأوائل بهذه المهمة في بيوتهم، وكان العلماء أول من قـــدروا هذه المسئولية التربوية إزاء بناتهم، فعلموهن القرآن وأحكام الدين وعلومه وآدابه مـــع القراءة والكتابة، وكانت منهن نابغات وصلن إلى أعلى مراتب العلم وأجيز منهن عـــدد كبير درسن وأجزن بدورهن للرجال والنساء، منهن على سبيل المثال - بنت سعيد بـــن المسيب أحد الفقهاء التابعين وابنة الإمام مالك وجاريته[٦٠]. كما أن القاضي الأمير أســـد بن الفرات كان يجتهد في تثقيف ابنته أسماء حتى بلغت درجة عالية في التعليم، والإمـــام

---

(٥٧) رواه البيهقي والطبراني .

(٥٨) متفق عليه .

(٥٩) محمود قمبر ، " ذاتية الطفل والنظرية التربوية في الإسلام " مركز البحوث التربوية ، المجلد الثامن عشر ، جامعة قطر ، ١٩٨٧، ص ص ١٧١-٢٦٧.

(٦٠) محمد الهلالي ، مرجع سابق .

سحنون عنى بتعليم ابنته خديجة وكانت تعقد حلقات لتعليم النساء، والقاضي عيسى بن مسكين كان يعلم الصبيان بالنهار وبعد العصر كان يدعو بناته وبنات أخيه ليعلمهن القرآن الكريم والعلم [٦١]. وتكاثرت النساء العالمات اللاتي لمعن كنجوم زاهرة في سماء العالم الإسلامي عبر العصر .

ولما كثرت العلوم وتخصص لها الدارسون، وأصبح من العسير على الآباء أن يتفرغوا لتعليم الأبناء والبنات وظهر المؤدب الخاص، منذ عهد مبكر خلال العصر الأموي، ليقوم بمهمة التعليم في البيوت نظير أجر معلوم[٦٢].

وهناك بنات كثيرات كن يترددن إلى الكتاتيب العامة يتعلمن فيها مع الصبيان، وفى كتاب الأغاني للأصفهاني حكايات دالة تعبر عن هذه الظاهرة التي تعود إلى القرن الثاني من الهجرة، وكان الإمام سحنون يكره للمعلم أن يعلم الجواري ولا يخلطهن مع الغلمان، كما كانت العادة، لأن ذلك فساد لهم[٦٣].

١٥-حق الطفل في اللعب :-

يعتبر اللعب حقاً أساسياً من حقوق الطفل ولذلك منح الإسلام هذا الحق للطفل منذ أربعة عشر قرناً بضرورة توفيره له يقول صلى الله عليه وسلم "روحوا على أنفسكم ساعة فساعة، فإن القلوب إذا كلت ملت ". فاللعب في الواقع يعتبر مظهراً من مظاهر سلوك الطفولة الطبيعية لأن الطفولة هي مرحلة اللعب والمرح في حياة الإنسان واللعب في مرحلة الطفولة المبكرة له أهمية كبرى لعظمة تأثيره في مراحل النمو بالنسبة للطفل.

ولقد أكد المربون المسلمون على ضرورة السماح للطفل باللعب لما له من تأثير بالغ في صحته النفسية والعقلية والجسمية .

---

(٦١) إبراهيم العبيدى التوزرى، تاريخ التربية بتونس، ج ١، تونس: الشركة التونسية للتوزيع ، د . ت ص ١٢٣.

(٦٢) ابن سحنون . مرجع سابق ، ص ٤ .

(٦٣) ابن سحنون . مرجع سابق ، ص ١١٧.

ونادى علماء التربية الإسلامية بحق الطفل في اللعب والترويح عن النفس بعد الانتهاء من دروسه، فحجرة الدراسة يسودها الهدوء والإصغاء للدرس والسكون مما يؤدى إلى إحساس الطفل بالملل والتعب، ولهذا فهم يسمحون للطفل خارج حجرة الدراسة بالكلام والحركة والنشاط والمرح واللعب ليروح عن نفسه ويزيل ما يحس به من السأمة والملل أو التعب(٦٤).

ويقول الإمام الغزالي في مؤلفه "إحياء علوم الدين ": " ينبغي أن يؤذن للطفل بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً، يستريح إليه من تعب المكتب ومنع الصبي من اللعب وإرهاقه بالتعليم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة من الخلاص منه"(٦٥).

قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم "من دخل السوق واشترى تحفة (لعبة) فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج وليبدأ بالإناث قبل الذكور". هذه النظرة الإنسانية الحانية، نظر الإسلام إلى اللعبة، قد يراها البعض على أنها شئ بسيط إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر على أنها كبيرة وعظيمة لها وزنها وقدرها وأجرها كأنها صدقه، وكان صاحبها يحمل هذه الصدقة إلى قوم محاويج، وبذل البهجة والسعادة، لأنهم ضعاف"(٦٦).

١٦-الاهتمام به جسمياً وخلقياً ونفسياً :-

أهتم المسلمون برياضة أبدان صغارهم أيماناً منهم ما للرياضة البدنية من أثر على تقوية الجسم وكان من أهم أنواع الرياضة البدنية التي اهتموا بها السباحة وركوب الخيل ورمى السهام،كما أن الجري أيضاً من الرياضات التي مارسها الصغار (٦٧).

(٦٤) محمد عطية الإبراشي ، مرجع سابق ، ص ١٩٣.

(٦٥) فتحية سليمان ، المذهب التربوي عند الغزالي ، القاهرة : دار الهنا ، ١٩٥٦ ، ص ٦٢.

(٦٦) عزت عبد العزيز الطويل، التنشئة الاجتماعية للطفل المسلم، دراسة نفسية، مؤتمر الطفولة في الإسلام، ص ٣٦٧-٣٧٧.

(٦٧) فتحية سليمان ، " تربية بين الماضي والحاضر " القاهرة : " دار الشروق ، ١٩٨٩ ، ص ٩٩،

والتربية الجسمية من الحقوق التربوية للطفل في المجتمع المسلم التي تتسم بمفهوم مميز لا يفصل بين النفس والجسم، فالإسلام في دعوته للتربية الجسمية يحث على ذلك الأمر، والدليل على ذلك قوله تعالى : {ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون}[٦٨]. وتوضح هذه الآية أن الأعضاء الجسمية صحيحة التركيب ولكنها لا تؤدى وظيفتها النفسية إن لم تمارس أنواعاً من الرياضة البدنية تحقق لهذه الأعضاء قوتها وصحتها .

ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله أن لبدنك عليك حقاً من طعام وراحة وتنظيف وتقويم فهو يدعو إلى هذه العناية الشاملة بالجسم والنفس معاً [٦٩]. ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : "علموا أولادكم السباحة والرماية ومروهم فليثبوا على ظهور الخيل وثباً"[٧٠].

١٧-حق الطفل في اختيار صحبته ورفاقه :-

يحتاج الطفل إلى رفاق من سنه، يتفاعل معهم ويشترك في ألعابهم اشتراكاً فعلياً، ولا بد من إشباع هذه الحاجة بإتاحة الفرصة للطفل، وأن يتصل بغيره من الرفاق في مثل سنه تقريباً على أن يكون ذلك تحت رقابة الكبار وإرشادهم وهو أمر بالغ الأهمية في نموه الاجتماعي والخلقي[٧١].

ويحرص الطفل في سلوكه على إرضاء أقرانه ليكسب حبهم وترحيبهم به كعضو في جماعتهم، ويجب الاهتمام بإشباع هذه الحاجة عند الطفل بإتاحة فرص التفاعل الاجتماعي مع أصحابه والمشاركة معهم في اللعب والعمل[٧٢].

---

(٦٨) الأعراف ، ١٧٩.

(٦٩) محمد قطب ، مرجع سابق ، ص ١٠٥.

(٧٠) رواه البيهقي .

(٧١) فوزي دياب ، " نمو الطفل وتنشئته بين الأسرة ودور الحضانة " القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، ١٩٨٩، ص ١٠٤.

(٧٢) حامد زهران ، مرجع سابق ، ص ٢٨٦.

وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم في أهمية اختيار الصديق والرفيق في قوله : " المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"[٧٣]. ويفهم من هذا الحديث أن الصديق للصديق إن كان صالحاً تقياً فيكسب منه الصلاح والتقوى، وإن كان فاسداً تأثر به وأخلاقه.

وجاء في الحديث:"مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير". ومن أهم ما ينبغي ملاحظته، هو: لزوم الآباء لأبنائهم، ومراقبتهم لسلوكهم وتصرفاتهم، وليوجهوهم أولاً بأول، وأن يتابعوهم ويرشدوهم إلى اختيار الأصدقاء الصالحين، حيث إن الصديق مرآة صديقه، يتأثر به ويؤثر كل منهما في الآخر ولذلك المتابعة والملاحظة المستمرة تفيد في التربية الصالحة للأبناء. ويعبر عن تأثير الرفاق والصحبة على الطفل المسلم قول ابن سينا حين قال: "ينبغي أن يكون الصبي في مكتبة صبية من أولاد الجلة، حسنة آدابهم مرضية أخلاقهم فإن الصبي يأخذ عن الصبي "[٧٤].

وإلا يترك الآباء أبناءهم تمتصهم تقاليد سيئة أو عادات قبيحة، أو تيارات وافدة يكون مآلهم معها إلى الضياع، وألا يعتمدوا على المدرسة وحدها في توجيههم، وألا يتركوهم إلى الخدم ويهملوا شئونهم، فلقد جاء في الحديث الأمر بلزوم الأبناء وحسن أدبهم .

١٨-حرية الطفل في التفكير والتعبير والاختيار :-

تميزت هذه الرعاية بالتوجيه الحذر، وبالتربية الهادئة الهادفة، ولنقف مع مشهد آخر من مشاهد رعاية الطفولة في الإسلام، هذا المشهد يجمع بين المراقبة والمحاسبة، بين توفير الأمن والسلام والراحة، لقد مر عمر بن الخطاب - يوماً - في المدينة فوجد بعض الغلمان يلتقطون بعض البلح من بعض الأفنية، فلما رأوه تفرقوا، إلا أن غلاماً منهم ظل واقفاً مكانه، فلما أقترب عمر منه أسرع الغلام قائلاً : يا أمير المؤمنين إن هذا

---

(٧٣) رواه الترمذى .

(٧٤) سعد مرسى أحمد ، مرجع سابق ، ص ٢٧٢.

البلح مما ألقته الريح فقال له : أرني أنظر إليه، فإن ما تلقيه الريح لا يخفى على، فنظر إلى البلح وقال : صدقت وفرح الطفل ثم قال : أترى هؤلاء الغلمان الذين هنالك ؟ أنهم ينتظرون أن أذهب وحدي فيغيروا على، ويأخذون ما معي فضحك عمر، وربت على كتف الغلام قائلاً: أمض معي وسأبلغك مأمنك، ويأخذ بيده ويسير إلى جانبه حتى يصل داره .

ونحن حيال هذا الموقف الذكي ندرك ذكاء هذا الطفل، الذي يظل واقفاً فلم يلذ بالفرار لأنه يسلكم أنه غير مرتكب لجرم، لأن ما أخذه مما يتسامح فيه، حيث إن ما تلقيه الريح قليل ويكون مهملاً، ولكننا ندرك بجانب هذا عناية عمر رضى الله عنه في تتبع هذا السلوك حتى يتبين الحقيقة فلا يدع الأمور كما يصورها أصحابها، فقال للغلام: أرني أنظر إليه فإن ما تلقيه الريح لا يختفي على، ومما لا شك فيه أنه لو تبين له غير ذلك لكان له تصرف آخر، ثم نظرة أخرى حين علم أن الأطفال الآخرون يتربصون بهذا الطفل، وتوقع منهم أن يغيروا عليه أخذه بيده حتى أبلغه مأمنه[٧٥].

١٩- رعاية اليتيم - والمعاق - واللقيط - وأطفال المشركين :-

الطفل اليتيم :-

وإذا كانت العناية بالطفولة لها هذه الأهمية، فإن أولى الأطفال بالعناية هم أولئك الذين فقدوا آباءهم، فهم في أشد الحاجة إلى الرعاية الدائمة، والاهتمام الأكيد والصادق، حتى نعوضهم عن الحنان الذي فقدوه، والأبوة التي حرموا منها، ولا يتأتى ذلك إلا في جو يفيض بالرحمة ويعنى بالتعليم .

ولقد عنى الإسلام بالأيتام، وبالتوصية بهم،والنهى عن احتقارهم أو قهرهم قال سبحانه : {فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر}[٧٦].

---

(٧٥) أحمد عمر هاشم" الطفولة في الإسلام " مؤتمر الطفولة في الإسلام، القاهرة ٩-١٢أكتوبر ١٩٩٠. ، ص ٣٥.

(٧٦) سورة الضحى ٩-١٠.

وبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم كافل اليتيم بمنزلة عالية ودرجة رفيعة، أنه يكون جاراً أو قريباً من الرسول صلى الله عليه وسلم.

ففي الحديث : "خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه " ثم قال بإصبعه: " أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ".

إن هذا النوع من الأبناء في أمس الحاجة إلى الرعاية والإصلاح، فقد يكون من بينهم عبقري نادر، أو عالم مصلح أو صاحب موهبة فائقة، قد يستفيد منه المجتمع لو عنى به وجهه وعلمه وأحسن تربيته، وقد ينقلب هذا العبقري النادر أو صاحب الموهبة الفائقة إلى شرير أو مجرم خطير عندما يترك دون تعليم أو توجيه وحسن تربية فلا تجد موهبة من يصقلها، ولا ترى عبقريته من يوجهها إلى الخير والإصلاح، فينزع إلى الشر ويتفنن فيه، وفى كل وسائله، ويحترف شروراً لا تخطر على بال .

الطفل المعاق :-

جميل جداً إعطاء الطفولة من الحقوق ما يمكنها من قيامها بدورها في الحياة، حتى تنهض في مسيرة الحياة، وتتسلم رسالتها بعد ذلك .

وجميل جداً أن تمكن لتلك البراعم نموها، وأن نتعهدها حتى تؤتى ثمارها، وتقوم بدور العطاء، بعد أن كانت في مرحلة الأخذ، فالطفولة في مراحل عمرها كالزرع الصغير، يتعهده الزارع الماهر بشتى أنواع الرعاية .

إنه يقوم بسقيه وإصلاحه، وإمداده بما يحتاج من الأغذية والأسمدة واقتلاع ما يعوق نموه من الحشائش الضارة، والنباتات الخبيثة، والآفات المفسدة له. وكذلك الحال بالنسبة لمراحل الطفولة فهي في حاجة إلى رعاية أخرى روحية من تربية وتزكية وتوجيه وصقل لروحه.

وإلى جانب هاتين الرعايتين – الجسمية والروحية – فالطفولة في حاجة إلى تنقية مناخها من كل الآفات الضارة، والغيوم الكثيفة التي تعوق جوانب النمو العقلي

والتوجيهي، وهي عديدة ومتنوعة: فمنها ما يكون في الأسرة من اختلاف بين الأبوين أو شجار بين الأخوة، أو العلاقات الأكبر بين الأسرة والأسر الأخرى، ومنها مـــا يكـــون خارج الأسرة، كالمدرسة والشارع، وغير ذلك من مواقع المجتمع الأخرى، وهذه عناية طبيعية وعادية لدى الطفل العادي.

ولما إذا انتقلنا إلى الأطفال المعوقين، فإننا نجد أنهم في حاجة إلى رعايـــة زائـــدة، وإلى رعاية أكثر، وإذا كانت الطفولة في حاجة إلى عناية فائقة، تربية وتعليماً وتوجيهاً، وفي حاجة إلى الحنان والعطف الواعيين، دون تفريط إلى حد التدليـــل المفســـد، ودون إفراط إلى حد الغلظة والقسوة، إذا كانت الطفولة في حاجة إلى كل ذلـــك، فإنـــها عنـــد الإعاقة تكون أشد ولمس، فالأطفال المعوقين لهم في أعناقنا واجب، بل واجبات يلزمنـــا الوفاء بها لهم، لأنها حقوق لهم، حقوق ألزمنا لها ديننا وضمائرنا ومجتمعنا وإنسانيتنا.

الطفل اللقيط :-

كما لم تغفل الشريعة الإسلامية هؤلاء الأطفال الذي لا يعرف نسبهم وحرموا مـــن الانتساب إلى أب يرعاهم (اللقطاء) وعالجت أمورهم علاجاً واقعياً فطـــالبت المجتمـــع برعايتهم على أساس الأمر الواقع وقياماً بواجب الأخوة الإسلامية الإنسانية، وفي ذلـــك يقول الله تعالى: {فإن لم تعلموا آبائهم فإخوانكم في الدين ومواليكم } وقرر الإســـلام أن الملتقط أحق به وعليه تربيته وتعليمه، فقد روى سعيد بن منصور في سننه قال وجـــدت ملقوطاً فأتيت به عمر بن الخطاب فقال عمر يعنى : يا أمير المؤمنين أنه رجل صـــالح فقال عمر أكذلك هو ؟ قال: نعم، قال : أذهب به وهو حر ولك ولاؤه وعلينا نفقته[٧٧].

وقد يقول قائل : إن رفض الإسلام للتبني مناف لرعايته للطفولة، وحقيقة الأمـــر أن الإسلام اعترف بالبنوة الشرعية حتى ما كان يشبهه، أما إدعاء أولاد إلى غير أبيهم فهذا لا يعترف به الإسلام لما في ذلك من اختلاط الأنساب، وضياع الحقوق وارتكاب المـــآثم وهذا بالإضافة إلى أن الإسلام لا يمنع من رعاية طفل مجهول أو معروف النســـب –

(٧٧) السيد سابق ، فقه السنة ، مرجع سابق ، ص ص ٢٥٥ -٢٥٦.

رعاية بالتربية والتعليم والإنفاق والوصية له والهبة إليه دون تغيير لنسبة إن كان معلوماً، أو استلحاقه بنسب الغير إن كان مجهولاً .

والتبني لا يمكن أن يوجد المودة والرحمة والشفقة التي توجدها الأبوة الحقيقة وفي ذلك يقول الله تعالى:{ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل}(٧٨).

وإذا كانت الأسرة الحقيقية تحقق للطفل التفاعل الاجتماعي الذي يحقق للطفل الارتباط الاجتماعي والبيولوجي، فالطفل المتبنى رغم سعادته الاجتماعية في وسط الأسرة التي تبنته، إلا أنه يبحث عن عائلته البيولوجية ويسأل عنها حتى يتحقق له العثور عليها(٧٩).

الأطفال أبناء المشركين :-

ليست رعاية الطفولة خاصة بأبناء المسلمين، بل أن سماحة الإسلام، وسمو تشريعاته ودقتها لا تجيز قتل الصبيان من أولاد المشركين إذا لم يشتركوا في القتال، فإذا اشتركوا يجوز قتلهم، وقد حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين (سنن أبى داود) .

دور المؤسسات التعليمية تجاه الطفل: المسجد-المدرسة-الإعلام-الأندية وغيرها .

نظم إعداد الطفل تربوياً :-

تتعدد نظم إعداد الطفل تربوياً وهى تشمل مختلف مناشط الحياة الاجتماعية، ويقتصر هذا الأمر في دراسته على ما يلي : الأسرة، المسجد، المدرسة، باعتبارهم يمثلون أكثر هذه النظم تأثيراً في تكوين شخصية الطفل.

---

(٧٨) سورة الأحزاب ، ٤ .

(٧٩) محمد لبيب النجيحى ، في الفكر التربوي ، ج ٣ ، القاهرة : مكتبة الأنجلو ، ١٩٨١ ، ص ١٢٣.

العلمية والروحية والجسمية، مما يسهم في إعداده إعداداً تربوياً صحيحاً في المجتمع الإسلامي[٨٠].

١- نظم إعداد الطفل في الأسرة[٨١] .

من العوامل المؤثرة في تكوين شخصية الطفل العلمية والروحية والجسمية إيجاد التعاون الوثيق بين الأسرة والمدرسة. ومن المعلوم أن مسئولية الأسرة تتركز في الدرجة الأولى على التربية الجسمية والخلقية، فالطفل في حاجة إلى قوة في الجسم والخلق بحيث يعنى بجسمه وخلقه لإعداده للحياة الاجتماعية : فالتربية الجسمية تعني الاهتمام بصحة الطفل وبدنه، وكذلك التربية الخلقية المثلى يجب أن تبدأ في البيت والأسرة من الصغر، وذلك للإثم الكبير الذي ينال ممن يضيع حق أولاده، ويهمل معيشة عياله، والدليل على ذلك ما روى عن أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت " وفي رواية أخرى " كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته"[٨٢].

٢-نظم إعداد الطفل في المسجد :-

من المؤكد أن رسالة المسجد في الإسلام تهتم بالتربية الروحية، لما لصلاة الجماعة وقراءة القرآن الكريم، من روحانيات، ورحمات لا تنقطع، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله من عنده[٨٣] هذا عن رسالة المسجد الدينية والروحانية .

---

(٨٠) عبد الله علوان ، ج٢ . مرجع سابق ٩٣٨.

(٨١) سوزان المهدى ، حقوق الطفل في المجتمع المسلم وتطبيقاقما ، مؤتمر الدولي للطفولة في الإسلام ، القاهرة ٩-١٢ أكتوبر ١٩٩٠، مجلد ١ ، ص ١١٦ - ١١٩.

(٨٢) رواه مسلم .

(٨٣) رواه مسلم .

ولكن إذا ما نظرنا إلى رسالة المسجد التربوية نجد أن الإسلام حين حث على التعليم أقبل المسلمون عليه وانتشر في المساجد والجوامع في جميع البلاد العربية وكثرت الحلقات التعليمية فيها، بجانب الصلاة والعبادة، وأحس المسلمون إنهم حقاً في حاجة إلى إنشاء مدارس علمية ومعاهد عالية، كي لا يحدث ضجيج في المساجد الضيقة في أثناء الدرس [٨٤]. وليس معنى ذلك أن دور المسجد التربوي قد انتهى لأنه ما يزال يقدم للأطفال رسالته الروحية والتربوية .

٣-نظم إعداد الطفل في المدرسة :-

ومن الأمور التي لا يختلف فيها أحد أن مهمة المدرسة تتركز على التربية العلمية لما للعلم من أثر كبير في تكوين الشخصية، ورفع كرامة الإنسان.

ومن هنا كان فضل العلم عظيماً في نظر الإسلام، فمن فضائله أن " من خرج في طلب العلم فهو سبيل الله حتى يرجع " [٨٥]، ومن فضائله أيضاً، "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة[٨٦]. وأيضاً " إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع، وأن العالم ليستغفر له في السماوات والأرض حتى الحيتان في البحر"[٨٧] ومن فضائله العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب .

وبعد ظهور المدارس كانت أهم محاولة في الإسلام لتنظيم الدراسة والتربية والتعليم في البلاد الإسلامية، هي توفير وسائل التفرغ لطلب العلم بتقديم المساعدات المالية للطلاب، وتزويد تلك المدارس بالمعلمين الممتازين والكتب النادرة، والحق أن الإسلام قد سبق الغرب في نشر التعليم، جعله واجباً دينياً ولم يجد الفقراء من المسلمين أي عقبة في سبيل التعليم .

---

(٨٤) محمد عطية الإبراشي ، مرجع سابق ، ص ٩١.

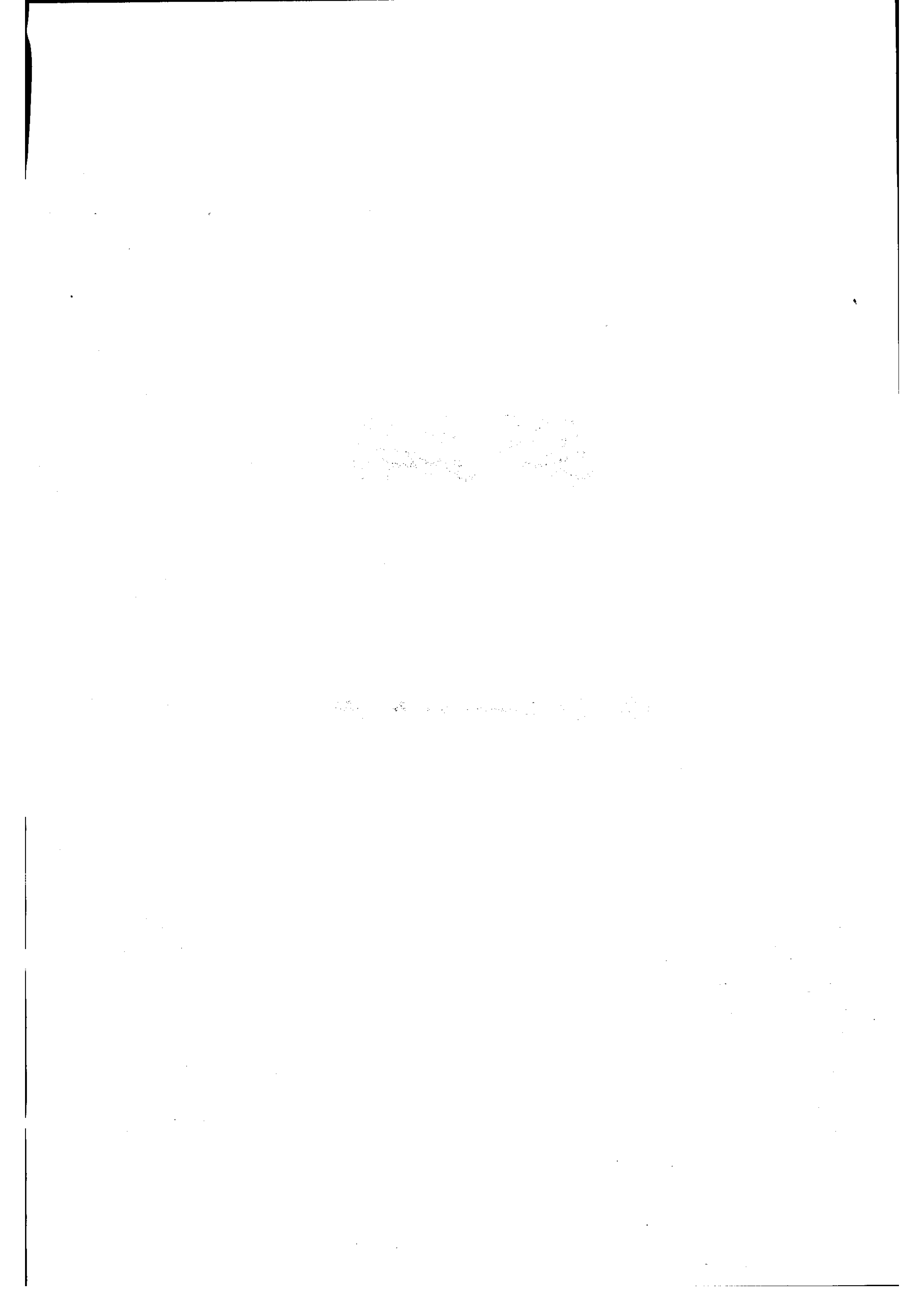
(٨٥) رواه الترمذى .

(٨٦) رواه مسلم .

(٨٧) رواه أبو داود ، والترمذى .

الفصل الثاني

آراء بعض العلماء المسلمين حول الطفل.



آراء بعض علماء الإسلام في تربية الطفل

يعتقد الكثيرون من علماء التربية في الغرب والعديد من المستشرقين أن الغرب هو الذي وضع أسس التربية الحديثة للطفل، بينما أهمل الشرق الإسلامي تربية الطفل وتقويمه، فهذا واحدا من هؤلاء المستشرقين الغربيين "كارادي فو" Carra de Vaux يذكر في كتابه "مذهب الإسلام"[1] (أن الإنسان لا يجد في الشرق الإسلامي ذلك الذوق الفطري للتعليم ، ولم يهتم الإسلام بأمر الطفل، والطفولة عند المسلمين بسيطة، وقد ألفت رسائل جليلة في التربية باللغة العربية خلال القرون الوسطى، ولكن المؤلفين لها من المسيحيين العرب).

وانساق وراء هذا القول تيار كثير من علماء التربية في الشرق، فنقلوا الكثير من أسس التربية الغربية إلى عالمنا العربي المعاصر، على أساس أنها أحدث ما جاء به قرائح الغربيين، ناسين ومتناسين أننا - نحن العرب والمسلمين - أول من وضع هذه المبادئ التربوية السليمة وطبقناها منذ آلاف السنين على أطفالنا وأولادنا، في وقت كان فيه الغرب يرزح تحت نير الجهل والخرافات.

وإلى هؤلاء المستشرقين الذين قد حاولوا طمس الحقائق التاريخية، وإلى العلماء العرب الذين استوردوا لنا أصول التربية من الغرب على أساس أن هؤلاء هم أساطين العلم والحضارة. نقول لهؤلاء يجب أن نعمل على التنقيب في تراثنا الإسلامي وما كتبه علماء المسلمين من آراء وأفكار، فهناك الغزالي، وابن خلدون، وابن سحنون، والزرنوجي، وإخوان الصفا، وغيرهم.

---

[1] - Carara de Vaux : La Doctrine de L' islam, Paris, 1956, P. 194.

وسيجد من يقرأ هذه الكتب أن هؤلاء العلماء المسلمين قد سبقوا الغرب في وضع أسس التربية الحديثة للتعامل مع الطفل وتربيته، وأن الكثير من المبادئ والخطط التربوية المستوردة من الخارج قد عرفها أجدادنا العرب المسلمين.

ونعرض هناك بعض من أهم ما قاله المسلمون في تربية الطفل والاهتمام برعايته.

الغزالي:

يعتبر الغزالي[٢] من الرواد المسلمين الأوائل الذين وضعوا المبادئ الصحيحة لتربية الطفل، وسوف نلحظ أنه يقول عن تربية الأبناء ودور المنزل في ذلك :

- أن يعتني بتربية الطفل فور ولادته وأن يراقب من أول مرة، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة، فنراه يقول "الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفسية ساذجة خالية من نقش وصورة، وهو قابل لكل ما ينقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد به، وإن عود الشر شقي وهلك، وكان الوزر في رقبه القيم عليه"[٣] يوضح الغزالي هناك دور الأسرة وهي الأساس، وما يتعلمه الطفل من والديه ومن أسرته يبقى أثره في الطفل حتى الكبر، فإن كانت الأسرة متدينة صالحة نشأ الطفل متمسكا بالدين والقيم والمبادئ.
- يؤكد الغزالي على أن يعود الطفل الاخشوشان في مطعمه وملبسه ومفرشه ويأخذ ذلك قوله "ينبغي أن يؤدب الطفل في الطعام وأن يعود الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتما، وأن يحبب إليه في الثياب البيض دون الملون والأبريسم، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين". فالغزالي يعلم أن من أسباب التهاون والاستهتار والتواكل وعدم تحمل المسؤولية وهي من

---

[٢] - ولد عام ٤٥٠ هـ وتوفي عام ٥٠٥هـ (١١١١م)

[٣] - الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٦٣.

مشاكل الشباب الحاضر هي نتيجة التدليل الزائد من قبل الآباء لأطفالهم وعدم تعويدهم على الحياة الخشنة ليشبوا قادرين على تحمل المسؤولية ومجابهة الصعاب.

- أنه يجب تكريم الطفل ومدحه على ما يأتي من أفعال حسنة ما يتحلى به من خلق حميد، أما إذا أتي أمرا مذموما على خلاف عادته فيحسن التغافل عنه خصوصا إذا لوحظ حياء الطفل، أما إذا تعود الطفل ارتكاب الأخطاء الخلقية، فينبغي أن يعاتب سرا، ويحذر من العودة إلى مثل هذه الأخطاء، وإلا كشف أمره أمام الناس، على أن الغزالي ينصح بعدم التمادي في العقاب والتأديب. وينصح ذلك فيقول "ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإن ذلك يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويخفف وقع الكلام في قلبه، وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا، وعلى الأم أن تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح".

- وبالنسبة للآداب العامة وتدريب الطفل عليها، فيرى الغزالي أن على الوالدين تعويد أطفالهم الأخلاق والعادات الحميدة، ويجنب الرذائل والمساوئ، كما يعود على توقير الكبير وقل الكلام وحسن الاستماع، وطاعة والديه ومعلميه، وعدم الافتخار على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه.[4]

- ما يمنع من مجالسة قرناء السوء ومخالطتهم، فإن أخلاق هؤلاء تنتقل إليه، كما يجب أن يعود الطفل الآداب العامة والعادات الحميدة، وفي ذلك يقول :"أن يقوى فيه خلق الحياء عند ظهوره، وأن يعلمه الطريق المستقيم في تناول الطعام والمشاركة فيه، فعليه أن يأكل مما يليه، ألا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وألا يحدق النظر إليه، ولا إلى من يأكل، وألا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وألا يوالي بين اللقم، وألا يلطخ يده ولا ثوبه، ويقبح عنده كثرة الأكل".

---

[4] - أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، ط٤، القاهرة: مطبعة الفكر، ص ٢٧٥.

الغزالي قد سبق علماء عصره بل علماء العصر الحديث، فأبرز أثر التشجيع والثناء على الزجر والتعنيف، لأن الإطراء يقوي الثقة بالنفس ويدخل السرور. وفي ذلك يقول: "ومن الأطفال من يتميز بالحياء والحساسية فينبغي إلا يهمل مثل هذا الصبي، وإنما يستعان على تأديبه بحيائه وتميزه، وإذا ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فيلزم أن يكرم عليه ويجازى عليه ويمدح بين الناس. أما إذا أخطأ في بعض الأحيان مرة واحدة فالأفضل أن نتغافل عنه ولا يهتك سره ولا يكاشفه، فإذا عاد فينبغي أن يعاتب سرا ويعظم له الأمر .. ولا يكثر القول عليه بالعقاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة.

العبدري:

لم تكن هناك سن معينة يبدأ عندها تعليم الطفل عند المسلمين، فعند البعض كان يبدأ التعليم في سن الخامسة أو السادسة، وآخرون يبدءون تعليم أبنائهم حتى السابعة وأحيانا الرابعة. وقد ترك الآباء أحرارا فلم يقيدوا بسن معينة لإرسال أطفالهم إلى الكتاب، كما لم تفرض عليهم الدولة تعلم الأبناء، ولكنهم اكتفوا بأن اعتبروا التعليم فرضا من الفروض الدينية. وينتقد العبدري الآباء الذين يرسلون أبناءهم إلى الكتاتيب في سن مبكرة، أي قبل السابعة، وهي السن التي يحددها الشعر لتعليم الطفل الصلاة والفضائل الخلقية[٥].

ورأي العبدري هذا تؤيده البحوث التربوية الحديثة، فقد قام "رودس" ببحث عن السن التي ينبغي أن يبدأ عندها إرسال الطفل إلى المدرسة، فوجد أن الأطفال الذين ذهبوا إلى المدرسة قبل سن السابعة كانوا ضعفاء في الرياضيات والمعلومات العامة.[٦]

القابسي:

يرى القابسي أن يبدأ تعليم الطفل في الكتاب بحفظ القرآن الكريم والفرائض الدينية كالصلاة الصوم، وقد يتعلم في نفس الوقت القراءة والكتابة والنحو والحساب والشعر.[٧]

---

٥ - العبدري، مدخل إلى الشرع الشريف، الاسكندرية، ١٨٧٦، ج٣ ص ص ١٦٣-١٦٤

٦ - Rosdes. L., : The forum of Education. Vol. 4, New York: 1968, p. 112.

وكان تعليم القرآن الكريم بطريق التلقين، بمعنى أن الطفل كان يكرر ما يذكره المعلم من فقرات إلى أن يتم له حفظها بطريقة آلية، وكان يعاون المؤدب في هذه العملية بعض كبار التلاميذ. ولم يعن المؤدب بالشرح في هذه المرحلة وتوضيح المعنى لتعذر الفهم على الطفل.

وقد تبدو هذه الطريقة مخالفة للطرق الحديثة في التعليم، ولكنها دلالة على كل حال على روح التقوى والحماسة الدينية، التي يجب أن ننميها في نفوس أطفالنا في الوقت الحاضر.

وكان الأطفال تتعلم كتابة الآيات القرآنية على الألواح ليس فقط بقصد حفظها، وإنما أيضا لغرض تعلم الطفل الكتابة والقراءة، ويبدأ تعلم الكتابة برسم الحروف الهجائية مع حفظها حرفا حرفا بترتيبها المعروف.

أما عن طريقة تدريس الشعر، فينصح المعلم بأن يبدأ بانتقاء الأشعار السهلة ليسهل على الطفل حفظها، وينبغي أن تكون ذات مدلول خلقي تمجد الصفات والأعمال الحميدة، فابن سينا يقول: "ويبدأ من الشعر بما قيل في فضل الأدب ومدح العلم ذم الجهل وهيب السخف، وما حث فيه على بر الوالدين."[٨]

ويرى الغزالي أن أو واجبات المربي أن يعلم الطفل ما يسهل عليه فهمه، لأن الموضوعات الصعبة تؤدي إلى ارتباكه العقلي ونفوره من العم.

القابسي والتعليم الإلزامي: قد يعتقد البعض أن التعليم الإلزامي للأطفال هو ابتكار عصري تفتق عن أفكار علماء التربية في العصر الحديث ، ولكننا هنا نستطيع أن نقول أن فكرة التعليم الإلزامي للأطفال ليست وليدة هذا العصر، بل توصل إليها العلماء المسلمون الأوائل قبل أن تعرفها مدارس الغرب. فالقابسي وهو أحد علماء التربية الإسلامية يقرر أن معرفة العبادات واجبة بنص القرآن الكريم، ومعرفة القرآن واجبة

---

٧ - القابسي القيرواني، الفضيلة لأحوال المتعلمين، ج٢، ص ٤٤. مخطوط.

٨ - ابن سينا، كتاب السياسة، ط٢، ١٩١١، ص ١٣.

أيضا لضرورتها في الصلاة، ولأن الوالد مكلف بتعليم أبنه القرآن الكريم والصلاة لأن حكم الولد في الدين حكم أبيه. فإذا لم يتيسر للوالد أن يعلم أبناءه بنفسه فعليه أن يرسلهم إلى الكتاب لتلقي العلم بالأجر، فإذا لم يكن الوالد قادرا على نفقة التعليم فأقرباؤه مكلفون بذلك، فإن عجز أهله عن نفقة التعليم فالمحسنون مرغبون في ذلك، أو معلم الكتاب يعلم الفقير احتسابا أو من بيت المال.[٩]

والنتيجة التي يريد أن يصل إليها القابسي هي تعليم جميع أبناء المسلمين أغنياء وفقراء، وهذا هو التعليم الإلزامي بعينة أعلنه القابسي في القرن العاشر الميلادي، أي في صميم القرون الوسطي التي كان أهل أوربا يعيشون في خرافات وظلام من الجهل.

وقد تركزت هذه النظرية واستقرت بعد ذلك عند فقهاء المذاهب ، فجعلوا طلب العلم فرضا، فنجد في مقدمات ابن رشد أن طلب العلم والفقه في الدين فرض من فروض الكفاية كالجهاد أوجبه الله تعالى على الجملة.

ابن خلدون:

من الوسائل التربوية الحديثة الاهتمام بوسائل الإيضاح في تعليم الطفل ، وهي الوسائل الناجحة في التربية، وقد توصل إليها المربون المسلمون الأوائل قبل أن نعرفها في الوقت الحاضر عن طريق الغرب، فنجد ابن خلدون ينادي بالاهتمام بالأمثلة الحسية في تقريب المعنى إلى الطفل، ومراعاة قصور عقلية الطفل واختلافها عن عقلية البالغ، واستغلال ميل الطفل للمادة لتيسير فهمه لها ، فيقول: " فإن المبتدئ في أول مرة ضعيف الفهم، ولا يعينه على الفهم ما يلقي عليه مثل الأمثلة الحية."[١٠]

ابن سنيا:

من أهم قضايا التربية المعاصرة الاهتمام بميول الطفل والعمل على تنميتها وصقلها بكافة الوسائل التربوية لما لها من أهمية في العملية التعليمية. وقد فطن العلماء

---

[٩] – القابسي، أحوال المعلمين والمتعلمين مخطوط نشرة أحمد فؤاد الأهواني، في كتابه التربية في الإسلام.

[١٠] – ابن خلدون المقدمة، ص ٤٩٤.

المسلمون إلى هذه الحقيقة، واهتموا بها اهتماما بالغا، فنجد ابن سينا يشير إلى أهمية العناية بدراسة ميول الطفل، وجعلها أساس تعليمه وتوجيهه، وفي ذلك يقول: "ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه، وربما تأفر طباع الإنسان جميع الآداب والصنائع فلم يعلق منها بشيء.. لذا فينبغي لمدبر الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أول طبع الصبي ويسبر قريحته، ويختبر ذكاءه فيختار له الصناعة بحسب ذلك".

ابن سينا وتأديب الطفل: اهتم المسلمون بموضوع العقاب اهتماما كبيرا، وأن كان الاتجاه سار نحو بذل كل جهد لتأديب الطفل وتقويمه منذ الصغر حتى يشب على حميد الخصال، وبذلك تنعدم الحاجة إلى العقاب، فيقول ابن سينا بضرورة البدء بتهذيب الطفل وتعويده ممدوح الخصال منذ الفطام، قبل أن ترسخ فيه العادات المذمومة التي يصعب إزالتها إذا ما تمكنت من نفس الطفل، أما إذا اقتضت الضرورة إلى العقاب فينبغي مراعاة منتهى الحيطة والحذر، فلا يؤخذ الولد أولا بالعنف وإنما بالتلطف ثم تمزج الرغبة والرهبة، وتارة يستخدم العبوس أو ما يستدعيه التأنيب، وتارة أخرى يكون المديح والتشجيع أجدى من التأنيب وذلك وفق كل حالة خاصة.

هكذا نجد أن ابن سينا قد سبق علماء النفس المحدثين في الخطوات الواجب اتباعها في تقويم الطفل وتأديبه، وهي خطوات ومبادئ لا تختلف عما قننه علماء التربية في الوقت الحاضر لعلاج هذه المشكلة.

ابن مسكويه:

قدرت التربية حاجة الطفل إلى اللعب والترويح، واعتبرته لهذا الغرض مهما من الناحيتين العقلية والجسمية، فنصح الغزالي بأن يؤذن للطفل بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب، بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه بالعلم يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش.[١١]

---

[١١] – الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٥٧

ويسلك العبدري مسلك الغزالي تماما فيحبذ بشدة ضرورة الألعاب والترويح عن الطفل ، ويكرر أقوال الغزالي في هذه الناحية.

أما ابن مسكويه فيقول: " وينبغي أن يؤذن للطفل في بعض الأوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح إليه من تعب الأدب، ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد، فالرياضة تحفظ الصحة وتنفي الكسل، وتطرد البلادة، وتبعث النشاط وتذكي النفس."[١٢]

ويتضح مما سبق اهتمام المسلمين الأوائل بأهمية اللعب في تربية الطفل ، كما يتبع حاليا في التربية الحديثة، وأن كان اللعب عند المسلمين الأوائل منفصلا انفصالا تاما عن المنهج، أما في التربية الحديثة فتدخل في صميم المنهج ولا تنفصل عن الدراسة.

وبعد:

نلحظ أن المفكرين والمربين المسلمين قد أسهموا جميعا في صياغة نظريات تربوية في تربية الأطفال. فقد وضع ابن سينا برنامجا رائعا للطفولة المبكرة، فقد سبق عصره وأقر بضرورة إلزامية التعليم حين يصل الطفل إلى سن السادسة من عمره. وكذلك نادى القابسي بهذا المبدأ (إلزام التعليم) في القرن الرابع الهجري. كما اتفق ابن سينا مع الغزالي وابن خلدون وطالب المعلم بالتدرج مع الطفل في التعليم.[١٣] .

وقد شارك الغزالي ابن مسكويه في كثير من آرائه التربوية في الطفولة المبكرة حيث ذكر في الجزء الثالث من كتابه إحياء علوم الدين، آراء تربوية قيمة في تربية الطفل حيث قال فيه: "إن الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش، ومائل إلى كل ما يمال إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه، وكل معلم له، وإن عود الشر شقي وهلك،

---

[١٢] - ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص ٢٠.

[١٣] - نجم الدين علي مروان، الطفولة من منظور التربية العربية الإسلامية"، رسالة الخليج العربي، العدد ٨، السنة٣، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٣ . ص ٣٥

وكان لوزر في رتبة القيم عليه والوالي عليه."[14] وقد عني المربون المسلمون بطرائق التعليم ، وكانت لهم مذاهبهم في ذلك منها :

١- سن التعليم:

فقد اختلف المربون المسلمون في السن التي تبدأ عندها تعليم الطفل فهي ليست ثابتة، وقد ترك الآباء أحرارا فلم يقيدوا بسن معينة لإرسال أطفالهم إلى الكتاب. كما لم تفرض عليهم الدولة تعليم الأبناء واكتفوا بأن اعتبروا التعليم فرضا من الفروض الدينية."[15]

٢- طريقة التعليم:

رأى بعض المربين مثل ابن خلدون وغيره أن تقوم طريقة التعليم على الفهم ثم الحفظ. وقد أدرك كبار مربي العرب أهمية التدرج في التعليم وتقريب المعلم من أذهان المتعلم شيئا فشيئا. وطريقة التعليم عند المسلمين(طريقة فردية) في الجملة، محورها الفرد وميوله واستعداداته يعني فيها المعلم بكل طفل على حدة أو يوجه تعليمه إلى الطفل المفرد، لا إلى الأطفال جملة."[16]

٣- الاهتمام بالفروق الفردية بين المتعلمين:

نادى كل من ابن سينا والغزالي وابن خلدون وغيرهم بأن الأطفال يختلفون في استعداداتهم وما هيئوا له وأن بينهم فروقا في القدرة على التعلم وأن بعض الأطفال أقدر من غيرهم في تعلم مجالات معينة من العلم، كما أن منهم من لا يصلح تعليمه إلا لحد معين لا يتعداه، ويرى المربون المسلمون ضرورة توجيه الطفل إلى ما يناسب حاجاته من تعليم وأن يترك ما لا يقدر عليه سواء كان هذا علما حرفيا أو

[14] - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣، القاهرة: مطبعة عثمان خليفة، ١٩٣٣، ص ٧١.

[15] - محمد عطية الإبراشي، التربية الإسلامية وفلاسفتها، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت، ص ١٨٧

[16] عبد الله عبد الدائم، "التربية عبر التاريخ "بيروت: دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٤، ص ص ١٨٤-١٨٦

معرفيا حسب استعداده وتكوينه. وقال ابن جماعة: "وإذا علم المعلم أن تلميذا لا يصلح في أمر أشار عليه بتركه والانتقال إلى غيره مما يرجى فيه فلاحه".[17]

٤- إشباع حاجات الطفل:

إن الطفل يحتاج إلى إشباع حاجاته في الشعور بالأمن والاستقرار وهو بحاجة إلى المحبة والتقدير. ويتفق المربون المسلمون على ضرورة مدح الطفل وتشجيعه إذا ما ظهر أي شيء يستحق المدح وذلك تشجيعا له ويقول ابن مسكويه في "تهذيب الأخلاق" (يمدح الصبي بكل ما يظهر فيه من خلق جميل وفعل حسن يكرم عليه)[18]، والتربية الدينية خير وسيلة لإرواء هذه الحاجة ودفعها إلى الاتجاه الصحيح الذي يحقق الخير للطفل ولمجتمعه الذي يعيش فيه والإسلام يهتم بالطفل اهتماما كبيرا ويحث الآباء والمعلمين على معاملته معاملة راقية تتصل بأبعاده النفسية والجسدية والخلقية والاجتماعية، وأن يقوم على إرشاده إلى عوامل من المحبة والصداقة والتعاون.[19] وينادي القابسي والغزالي وابن سينا وابن خلدون وغيرهم بما يلي في تربية الطفل:

أولا: ضرورة مراعاة الاستعدادات الفطرية والغرائز الطبيعية للمتعلم في إرشاده إلى المهنة التي يختارها.

ولقد طالب علماء التربية الإسلامية بمراعاة ميول المتعلم واستعداداته الفطرية وقدراته الطبيعة من المربين المسلمين الذين جعل العناية بدراسة ميول الطفل أساسا لإرشاده وتربيته هو ابن سينا القائل: "ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتيه ولكن ما شاكل طبعه وناسبه، ولذلك ينبغي لمدير الصبي إذا رام اختيار

---

١٧ - محمد منير مرسي، التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٣٦

١٨ - المرجع السابق، ص ١٤٣.

١٩ - عبد العزيز عبد الرشيد، التربي الإسلامية وطرق تدريسها، الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٧٩، ص ٣٧

صناعة أن يزن أولا طبع الصبي، ويسبر قريحته، ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك".

ومن قول ابن سينا نجد أنه ينصح المربين الذين يريدون اختيار صناعة لصبي من الصبيان أن يزنوا طبعو وميله ويرفوه ويختبروا عقله وذكاءه حتى يختاروا له صنعة تناسب ميله وعقليته.[20]

ثانيا: الرفق في معاملة الطفل: كانت التربية قبل الإسلام تتبع أساليب الشدة والقسوة في معاملة الأطفال وتربيتهم، فقد كان الجلد منتشرا والعقاب القاسي شائعا، ولكن فلاسفة الإسلام تنبهوا إلى مضار هذه الأساليب في التربية، فحذروا من استعمالها، ونادوا بالرفق في تربية الأطفال وعلاج أخطائهم بروح الشفقة والرأفة والعطف والرحمة، ومعرفة البواعث التي أدت إلى هفواتهم، والعمل تداركها وتفهيم الأولاد بنتيجتها ساروا مع الطرق المثلى في التربية.[21]

ثالثا: الاهتمام بتربية الأطفال: عني المربون المسلمون بتربية الأطفال وكان اهتمام القابسي بتربية الأطفال له مغزى خاص، فالأطفال هم رجل المستقبل، ولابد من العناية بهم أشد العناية، وتنشئتهم على أحسن الأساليب المتبعة في التربية في عصره، ومن أهم آرائه الحديثة في تربية الأطفال قوله بإلزام التعليم لحرصه على أن تربية الصبيان ينبغي أن تكون موضع رعاية كبرى من الدولة والأغنياء والموسرين والآباء فكل هؤلاء مسؤول عن تربية الأطفال. وكان إلزام التعلم خطاب للمجتمع بأسره لا لبعض الأفراد فيه. وكان القابسي يرمي إلى تعليم جميع أبناء المسلمين أغنياء وفقراء في مكان واحد.[22]

---

٢٠ – محمد عطية الإبراشي، مرجع سابق، ص ١٩١

٢١ – محمد عطية الإبراشي ، مرجع سابق، ص ٣٧

٢٢ – أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، القاهرة: دار المعارف، د.ت، ص ص ١٠٠-١٠١

كما نادى ابن سينا بتعليم القرآن الكريم للطفل بمجرد تهيؤ الطفل للتلقين جسميا وعقليا. وعلى الطفل أن يتعلم حروف الهجاء. كما اهتم ابن سينا بالجانب الخلقي من التربية ، ويبدي حرصه الشديد على أن ينشأ الطفل نشأة دينية صحيحة شأنه في ذلك شأن جميع فلاسفة التربية الإسلامية.[٢٣] كما عني الغزالي عناية فائقة بتربية الطفل فوضع له منهجا يتناول نواحي التربية الثلاث الجسمية والعقلية والخلقية. والأسس والمبادئ التي تراعي في تطبيقه والمواد الدراسية التي يدرسها الطفل، والطرق التي تقدم بها هذه المواد وهي التوجيهات الفنية ويمكن إجمال ذل فيما يلي:

البدء في تربية الطفل منذ ولادته، فالغزالي يطالب بأن يوضع الطفل في حضانة امرأة صالحة تقية، ولا يقوم بإرضاعة إلى امرأة توافرت فيها هذه الصفات، كما يرى الغزالي أن يربى الطفل تربية رياضية، حتى لا يتسلم للكسل أو يعتاده وينادي أيضا بالتربية البدنية للطفل لأنها تقوى جسمه وتملؤه نشاطا وحيوية.[٢٤] كل هذه المواقف التربوية والنظريات النفسية التي أتى بها الفلاسفة المسلمين وتناولها مربو العرب قد كونت الأساس القوي للاتجاهات التربوية الحديثة في تربية الطفل.[٢٥]

ويرى ابن مسكويه أن ظهور الحياء على الطفل هو أول خطوة نحو السير به في طريق الكمال والعقل. "فإذا نظرت إلى الصبي فوجدته مستحيا مطرقا بطرفه إلى الأرض غير وقاح الوجه ولا محدق إليك فهو دليل نجابته، وهذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب أن تعمل وتترك".

---

٢٣ - علي الجمبلاطي، أبو الفتوح التوانسي، "دراسات مقارنة في التربية الإسلامية" القاهرة: الانجلو المصرية، ١٩٨٤، ص ٩٩

٢٤ - علي الجمبلاطي، المرجع السابق، ص ١١٩

٢٥ - نجم الدين على مردان، مرجع سابق، ص ٤١

ويرى الغزالي أن الطفل يولد معتدلا صحيح الفطرة وأن البيئة هي التي تغير أخلاق الصبية وينصح بإبعاد الصبي عن قرناء السوء وبعدم تعويده على التراخي والكسل أو التساهل في التعامل معه ويصر على إبعاده عن التدليل والتنعيم.[٢٦]".

ومن المناسب أن نقدم المفكر سيد قطب واحدا من المعاصرين لنعرض أفكاره تجاه الأمومة والطفولة وخاصة في الجوانب التي يقترح فيها حلولا عملية لرعايتها.

سيد قطب ورعاية الأمومة والطفولة:

يرى سيد قطب إن عاطفة الأمومة وحدها تكفي في رعاية الوليد؛ وإن عاطفة الأبوة وحدها تكفي في النهوض له وللأم بالنفقة، ولكن الإسلام يضيف إلى العاطفة الفطرية التكليف الصريح. شأنه في ذلك شأنه في كل جوانب الحياة. إنه يبث العقيدة ويستثير الوجدان، ولكنه لا يدع التكاليف غامضة مبهمة، وإنما يحددها بالنص ويزيدها بالتشريع. وكذلك يفعل في حق الطفولة"[٢٧]. "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئا كبيرا" (الإسراء ٣١).

فأما الوالدان فلهما حقهما المقابل وفي الإسلام كل حق يقابله واجب - يزيد عليه ما يناسب الأبوة والأمومة من احترام وطاعة وأدب."وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين أحسانا "(لقمان ١٤) [٢٨]".

المرأة شطر النفس البشرية، وحارسة العش الذي تدرج فيه الطفولة وأنها الأمينة على أنفس عناصر الوجود..[٢٩] . ويرى الأمومة في الأم الرؤوم التي ترعى النسل، فليس من أجل متعة مادية، أو لذة، بقدر ما هي وظيفة. "وأما العلاقة بين الجنسين أداة لخدمة النوع البشري، بإنشاء المحضن الآمن النظيف الواعي المتخصص، لإنتاج

[٢٦] – سعد مرسي أحمد، مرجع سابق، ص ٢٨٥

[٢٧] – سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، بيروت: دار الشروق، ط٦، ١٩٨٢.ص ٩٦

[٢٨] – سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، المرجع السابق، ص ١٠١

[٢٩] – سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ط٧، بيروت: دار الشروق، ١٩٨٢، ص ٧١.

النوع البشري، بإنشاء المحضن الآمن النظيف الواعي المتخصص، لإنتاج صناعة البشر - وهي أثمن وأغلى صناعة في هذه الأرض، باعتبار الواجب - لا اللذة، وهو عماد هذه العلاقة، لتعلق المستقبل البشري كله بها، وقيام التمدن البشري عليها."[30]

سلام البيت[31]:

يرى سيد قطب أن التنشئة الاجتماعية هامة في غرس صفات حميدة في الطفل، وأنها جو الود والوئام هو أساس الطفولة السعيدة فيقول "البيت مثابة وسكن؛ وفي ظله تنبت الطفولة، وتدرج الحداثة، ومن سماته تأخذ سماتها وطابعها، وفي جوه تتنفس وتتكيف.. وكم من أحداث وحوادث وقعت على مسرح المجتمع، وأثرت في سير التاريخ، تكمن بواعثها الخفية في مؤثرات بيتية.، والفرد الذي لا يستمتع في بيته بالسلام، لن يعرف للسلام قيمة، ولن يتذوق له طعما، ولن يكون عامل سلام وفي أعصابه معركة، وفي نفسه قلق، وفي روحه اضطراب. ، والإسلام يتجه إلى بذر بذور السلام في البيت، وفي ذات الوقت الذي يتجه فيه إلى الضمير الفردي، وإلى المجتمع الدولي فكلها حلقات متضامنة، وفيما بينها ترابط واتصال."[32]

الرباط المقدس:

يقول سيد قطب أن أساس المودة والرحمة هما دعامتين أساسيتين للحياة الزوجية التي تأتي بمقدمات طيبة لطفولة سوية، مبنية على أسس إسلامية، حين صورها القرآن الكريم تصويرا، يشع منه التعاطف، ويفوح منه العبير: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة" (الروم ٢١). "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن"(البقرة ١٨٧).. وهذا الرباط الإنساني امتداد الحياة بالأولاد، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة، ويعترف بطهارتها وجديتها، وينسق بين

---

٣٠ - سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، المرجع السابق، ص ٧٢.

٣١ - سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، بيروت: دار الشروق، ط٦، ١٩٨٢.ص ٦٧

٣٢ - سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، المرجع السابق،.ص ٦٨

اتجاهاتها ومقتضياتها، ذلك حين يقول: "نساؤكم حرث لكم"(البقرة٢٢٣). فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار.

فلابد من الارتباط من الرضى والاستئذان، فلا تزوج المرأة بغير إذنها ورضاها: "لا تنكح الثيب حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها الصموت"(أخرجه الشيخان). ولابد فيه من الرؤية ليكون هذا الرضى جديا وقائما على حقيقة، ومنبعثا من شعور: "فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما"[٣٣] ولابد فيه من العلانية.. ولابد فيه من نية التأبيد لا التوقيت..

ويرى سيد قطب، أنه لكي يهيئ الإسلام للبيت جوه؛ ويهيئ للبراعم الناشئة فيه رعايتها ..أوجب على الرجل النفقة وجعلها فريضة، كي يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ما تشرف به على هذه البراعم اليانعة، وما تهيئ به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها. فالأم المكدودة بالعمل للكسب، المرهقة بمقتضيات العمل، المقيدة بمواعيده، المتشتتة الطاقة فيه .. لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها.[٣٤].

والفتاة إما مثقفة ثقافة نسوية خاصة تناسب طبيعتها وتناسب وظيفتها، وبالتالي لها أن تترقب زوجا وترجو عشا، وإما شاذة عن الطبيعة والوظيفة، فيجب أن يستمر هذا الشذوذ، فلا تتطلع إلى الزواج والعش والأطفال والأسرة، لأن لهذه الحياة مستلزمات لم تتهيأ لها، بل بعدت بثقافتها عنها، ولتكن قربانا على مذبح العلم أو العمل، وكم للعلم من قرابين، ولكي نزيد هذا القول وضوحا نشرح مواد الثقافة التي تحتاج إليها الفتاه لتكون أما وربة بيت"[٣٥].

---

[٣٣] - (حديث عن المغيرة بن شعبة).

[٣٤] - سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، بيروت: دار الشروق، ط٦، ١٩٨٢.ص ٦٩ -٧٠

[٣٥] - سيد قطب، مجلة الشؤون الاجتماعية، ع٤، ١٩٤٠، ص ٢٤-٣٨.

ثانيا : الطفولة وأهميتها: الحق في الحياة الكريمة:

وحين يولد مولود في الدولة الإسلامية تترتب له مع حق الحياة، سائر الحقوق التي تحفظ له الحياة، والتي تجعل الحياة كريمة لائقة ببني الإنسان، والتي ترقي هذه الحياة وترفعها لتقبل عند الله. وعليه في مقابل هذه الحقوق التي يكفلها له النظام الإسلامي بمجرد ولادته واجبات لربه وواجبات إنسانيته وواجبات للجماعة التي يعيش فيها. وهذه الواجبات متوازية مع تلك الحقوق، (ولا تظلم نفس شيئا) ولا تكلف نفس إلا وسعها، والجانب الاقتصادي في هذه الواجبات وفي تلك الحقوق هو أحد الجوانب لا كلها. لأن الحياة في نظر الإسلام أوسع آمادا وأبعد آفاقا من مجرد الجانب الاقتصادي - وإن كان الإسلام لا يغفل من حسابه أهمية العوامل الاقتصادية، بل يمنحها العناية التي تستحقها في واقع حياة الإنسان. وإن المساعدات المادية المفروضة للعاجزين عن الكسب، لسبب من الأسباب، ليست سوى جانب من المساعدات الكلية التي يقررها النظام الإسلامي لكل فرد في الجماعة الإسلامية.

ويضرب سيد قطب لذلك مثالا (حق التعليم وحق التربية والتهذيب) - والإسلام يجعل العلم[؟] فريضة على كل فرد ومن ثم يجب على الجماعة أن تحقق له هذه الفريضة حين يعجز عنها - والأطفال لا يملكون تحقيق هذه الفريضة بأنفسهم لأنفسهم، ومن ثم يصبح تحقيقها من واجب الجماعة الأقرب فالأقرب من أهل الطفل، فإذا عجزوا وقع عبئها على الدولة باعتبارها الجهة المنوط بها تشريعيا إقامة الفرائض والتربية - ويدخل فيها إعداد الفرد للحياة والعمل والإنتاج حق لكل فرد، والجماعة بأجهزتها المختلفة، جهاز الأسرة وجهاز الجماعات المحلية، وجهاز الدولة في النهاية، الجماعة بأجهزتها كلها مكلفة بتحقيق هذا الواجب[٣٦].

كما يرى سيد قطب أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وهو فرض كفاية على الجماعة الإسلامية لابد أن تقوم به طائفة منها - هو نوع من التربية العامة في

---

٣٦ - سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج، ط٦، بيروت: دار الشروق، ١٩٨٣، ص ٣٢.

البيئة الإسلامية، وأحاديث الرسول (ص) تتوارد تترى في التوجيه إلى القيام بواجب التربية والتأديب، "لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع".. "ما نحل والد ولده من نحلة أفضل من أدب حسن" .. "من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو أختين أو بنتين فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة"[37].

ويقرر سيد قطب بأن "الطفولة مرحلة من مراحل العمر يجب أن يعيشها الأطفال أطفالاً، ويجب ألا نستحث فيها خطاهم ولا نعجلهم منها إلى المراحل التي تليها، فإننا لن نفلح في إنضاجهم قبل الأوان، وكل ما نصنعه هو أن نكبت نشاط الصغار ونعطل غرائزهم عن العمل ونمرض أجسامهم ونفوسهم، ونشوش أذهانهم بمعان مجردة لا يتصورون مدلولاتها". [38]

ثالثا : مشكلات الأمومة والطفولة:

١-مشكلات الأمومة: ثقافة الأم وتعليمها:

ومن أمور التعليم التي اهتم بها سيد قطب، موضوع محو الأمية، فبين أسباب الأمية وعللها، وطريق العلاج، ومما يلفت النظر في حديثه عن الأمية أنه قسمها إلى قسمين: أمية القراءة والكتابة، وأمية العقل والثقافة، ودعا إلى وجوب ألا تقف جهود الدولة عند مجرد محو أمية القراءة والكتابة بين أبناء الشعب، وإنما ينبغي أن تتخطاها إلى محو الأمية العقلية والفكرية، بتنوير الشعب، وتنبيهه إلى ما يجري عالميا، ومحليا بوجه خاص[39].

ويقدر دور الأم المتعلمة، وتأثير ثقافتها على تربية أطفالها في كونها، الأم التي تتصل بالمجتمع وتدرسه عن طريق التجربة والاحتكاك جديرة بأن تخلق من نشئها جيلاً عملياً مجرباً، بأن تتخذ في تربيته التمرينات العملية لا مجرد النظريات، فتقرب المسافة

---

[37] – سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج، المرجع السابق، ص ٣٥-٣٦

[38] – سيد قطب، "طفولتنا المسروقة"، مجلة الشئون الاجتماعية، ع٣، مارس ١٩٤٢، ص ٩٢ – ٩٥ .

[39] – عبد الباقي محمد حسين، سيد قطب حياته وأدبه، مرجع سابق، ص ٢٨٨

بين النشء والمجتمع وتقل سنوات التجربة في عمره والاصطدام فيتوفر له جزء مهم من شتى الحياة كلها سينقضي في التجارب وبين أخلاق المجتمع وطرق معاملته والامتزاج به."[40]

ومن هذا الجانب ناقش سيد قطب، ثقافة المرأة في ضوء وظيفتها الطبيعية والاجتماعية، فقال : "إن الوظيفة تخلق العضو ... وإن وظيفة المرأة هي تكوين المنزل وتنشئة الطفل .. وبالتالي إنشاء المجتمع في صورته المصغرة الأسرة، وإنه متى تحددت الوظيفة، تحدد معها نوع التربية ولون الثقافة. فإذا أريد من المرأة أن تكون منشئة الجيل القادم وجب أن تزود في ثقافتها بما يسهل هذه المهمة، ويقدرها عليها، وكل انحراف بهذه الثقافة - في أية مرحلة من مراحل التعليم - عن هذه الغاية يعتبر شذوذا بالمرأة عن غايتها وغاية الحياة الاجتماعية، وانحرافا عن الخطة المثلى لأوضاع الشعب الاجتماعية."[41]

فيرى أن الفتاة إما أن يراد لها أن تكون أما وربة بيت، فيجب حينئذ أن تلاحظ هذه الوظيفة في وضع برامج ثقافتها. وإما أن يراد بها الانحراف عن هذه الغاية الطبيعية، فتترس حينئذ على نظام الفتيان، وتكون قد وطدت نفسها ووطد أهلها نفوسهم، وعزمت الدولة كذلك على ألا تحيا هذه الفتاة الحياة الطبيعية لها؛ لأنها - ومعها أهلها والدولة - قد نذرت نفسها للعلم والبحث أو للعمل في ميدان الحياة كما تنذر الراهبات للدير.

ويتساءل سيد قطب، هل نبقي على ما ألفنا من الاحتفاظ بالمرأة لخدمة البيت وتربية الأطفال تربية صالحة، ونهيئ لها ثقافة خاصة تعدها لتأدية هذين الواجبين أم نجعل تعليمها طليقاً من كل قيد، ونسمح لها بالعمل في كل ما يعمل فيه الرجال؟ هذا ما

---

[40] - سيد قطب، "عودة إلى آثار الاختلاط"، البلاغ الأسبوعي، العدد ١١٠، ٢٤ أبريل ١٩٢٩ .

[41] - سيد قطب، "ثقافة المرأة ،"مجلة الشئون الاجتماعية أبريل ١٩٤٠ السنة الأولى، العدد (٤)، ص ٣٤ - ٣٨

يجلوه الكاتب الفاضل في هذا البحث الممتع وهو ينتصر للفكرة الأولى ويقدم الوسائل لتحقيقها، آخذا في ذلك بمنطق سليم وتدليل قويم "[42].

وسيد قطب يؤكد على أن وظيفة المرأة أذن - كوظيفة كل امرأة في وضعها الطبيعي هي تكوين المنزل، وتنشئة الطفل - وبالتالي. إنشاء المجتمع في صورته المصغرة "الأسرة" ولست أدرى أن هناك تبعه أعظم من تبعة المرأة في هذا الوضع الطبيعي الجميل، ولا أستطيع أن أتصور وظيفة أخطر من هذه الوظيفة، أو خطأ أشد من خطأ الذين يتجاهلونها ويحاولون إلباس المرأة ثوب الرجل بعقيدة أنهم يرفعون منزلتها حينئذ، وينصفونها من الغبن الذي يتوهمون! إلا إذا كان غبنا أن يؤدى الحي وظيفته كاملة في الحياة ويقوم بأعباء جنسه غير منقوصة. "[43]

وظيفة المرأة والرجل:

يقول عنهما : "هو "إنسان" من ذكر وأنثى. من نفس واحدة، نعم ولكنهما جنسان ومنهجان يعرف هذه الحقيقة بشطريها، ويكفل لشطري النفس الواحدة حقوقا واحدة - فيما يتعلق بالأصل الإنساني العام - ولكنه في الوقت ذاته يفرض على كل منهما واجبات مختلفة، وفق الوظيفة الخاصة في العمران، ووفق طاقة كل منهما ومجموعة تكاليفه، فلا يكلف المرأة المسكينة مثلا أن تحمل وترضع وتربي، وفي الوقت ذاته تعمل وتكدح وتشقى .. بينما الرجل لا يشاركها الحمل والرضاع والتربية. ثم يزعم بعد ذلك أنه ينصف المرأة ويحترمها ويرقيها! ولا يكلف المرأة أن تهمل صناعة "الإنسان" لتشتغل بصناعة "الأشياء". فالإنسان في منهجنا أغلى من الأشياء. ولا يجوز فيه أن تشتغل المرأة المثقفة الماهرة الحكيمة بصناعة الأشياء وإنتاجها؛ وأن تستجلب لأبنائها امرأة أخرى أقل

---

[42] - سيد قطب، "ثقافة المرأة"، المرجع السابق ص ٣٥

[43] - سيد قطب، "ثقافة المرأة"، "مجلة الشئون الاجتماعية أبريل ١٩٤٠ السنة الأولى، العدد (٤)، ص ٣٤ - ٣٨

ثقافة ومهارة وحكمة، ولرخص أجرا بالطبع، لتشرف لها على "الأبناء" بينما هي تشرف على "الأشياء"[44].

يرى سيد قطب أن الإسلام عني بتصحيح النظرة إلى المرأة، وبإقامة العلاقة بين الجنسين على أساس من حقائق الفطرة وبتوضيح هذه العلاقة في كل فروع من فروعها النفسية والعملية، بحيث لا تضطرب ولا تتأرجح، وذلك ببيان وحدة الزوجين وتساويهما (من الناحية الإنسانية) ليقضي على جميع النظريات الخاطئة التي كانت تزعم أن المرأة جنس منحط بذاته عن جنس الرجل[45].

تحديد النسل:

لا يقر سيد قطب تحديد النسل ويراها دعوة صهيونية صليبية، ويقول: "تطلع علينا نغمة لا يدري مبعثها إلا الله، والراسخون في العلم من اليهود والصليبيين. نغمة تحديد النسل.. لماذا ؟ لأن مصر تضيق بسكانها، ولأن موارد الرزق لا تنمو بنسبة نمو السكان، ولأن الأرض الزراعية محدودة. جميل نحن معكم في أنه حين تعجز موارد البلد عن إعالة سكانه يجب أن يقف نمو هؤلاء السكان، ولكن حين تكون في موارد هذا البلد بقية فيجب أن يستمر سكانه في التزايد، لأن نمو السكان في هذه الحالة ضمانة من ضمانات القوة في المجال الدولي."[46]

فهل استنفدت مصر وسائلها لزيادة مرافقها؟ إن في مصر من الموارد والمرافق، ما يكفي لإعاشة ضعف سكانها كما يقول بعض الخبراء، وأمامنا مثل واحد في سيناء، فهي كافية لإعاشة مليون من الناس، لو وجدت من يعمرها ويرد إليها الحياة.

فلماذا يتجه التفكير أو ما يتجه إلى وقف نمو السكان؟ ومرة أخرى نكرر ، أننا لا نعارض – بل نحتم – وقف نمو السكان حين يثبت أن مرافق البلاد غير قابلة للنماء. أما

---

[44] – سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ط7، بيروت: دار الشروق، 1982، ص ص 167-168.

[45] – سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ط7، بيروت: دار الشروق، 1982، ص 65.

[46] – سيد قطب، دراسات إسلامية، ط5، بيروت: دار الشروق، 1982. ص 115.

حين يثبت أنها قابلة لأن تتضاعف ، فإنه من الحمق، أو الاتجاه المريب، أن تثور مثل هذه النغمة (تحديد النسل).

ويرى سيد قطب أن كثرة الأبناء في الريف لها دعم اجتماعي واقتصادي، فيقول : "على أن حكاية تحديد النسل أو زيادته، لا تخضع لهذه الأفكار السطحية، التي لا تحاول التعمق في دراسة الأمور. إن الحرص على زيادة النسل في الريف ضرورة اقتصادية وضرورة اجتماعية ولا عبرة بالمدن. إن الذي لا أولاد له في الريف، يعيش في مستوى اقتصادي أقل من مستوي أبي الأولاد. كما أنه أقل هيبة وحصانة على الاعتداء! وهذه العوامل الاقتصادية والاجتماعية من القوة بحيث لا تستمع لنصائح السطحيين."[٤٧].

ويرى أن التعليم وانتشاره سوف يحل مشكلة زيادة النسل، للحاجة الاقتصادية إلى الأطفال، فيقول: "ولن يتغير حكم هذه العوامل ويخف ضغطها، إلا حين ينتشر التعليم، ويصبح هناك مورد آخر للرزق على العمل في الأرض، وقوة أخرى للحماية غير العضلات! وعندئذ فقط يستطيع الشعب كذلك أن يستعيض من قوة العدد قوة العقل، ليقف في وجوه المحيطين به."[٤٨].

الكشف الطبي قبل الزواج:

يؤكد سيد قطب على أهمية إجراء الكشف الطبي على الراغبين في الزواج، وهذا أمر جيد، حيث إنه يرى أهمية ذلك في إنجاب ذرية صحيحة بدنيا وعقليا، فيقول: "هناك أمراضا أخرى وراثية لا تقل فداحة على الأسرة وعلى الأبناء من هذه الأمراض، فالسل مثلا شديد الوطأة في عدواه للزوجة وللأبناء الذين يولدون ضعافا ثم تصيبهم العدوى بعد ذلك بالاختلاط مع أبويهم المصابين، وتختم الكارثة بموت عائل الأسرة حيث يتركهم جميعا عرضة للمرض والإهمال، وهؤلاء يبدءون بدورهم إذا قدرت لهم الحياة في تمثيل المأساة من جديد. . والأمراض العصبية واللوثات العقلية لا تقل نتائجها خطرا عن

---

[٤٧] – سيد قطب، دراسات إسلامية، المرجع السابق، ص ١١٧.

[٤٨] – سيد قطب، دراسات إسلامية، ط٥، المرجع السابق. ص ١١٨.

نتائج الزهري. ولهذا يجب أن ندخل هذه الأمراض جميعا في القائمة التي لا يتم الزواج إلا بانتفائها أو شفائها." [49].. "متى وضعنا أمام أنظارنا صورة للعواقب الوخيمة التي يثمرها ترك المرضى والمشوهين والبله والمجانين ينسلون ويتكاثرون. ويحطمون بهذا النسل والتكاثر مستقبل الأمة فوق ما يحملون أبناءهم من آلام وتضحيات".[50]

خروج المرأة للعمل:

يجد سيد قطب إن خروج المرأة لتعمل بمثابة كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول، في عصور الانتكاس والشرود والضلال[51]. فهو بذلك لا يمنع عمل المرأة إلا للضرورة القصوى.

ويحبذ سيد قطب أن تكون مهمة الفتاة في الغالب أن تصبح أما، ما دام ميدان الأعمال لا يحتمل المزاحمة ولا يتسع لأيد جديدة غير التي فيه. [52].

ويجد أن خروج المرأة للعمل تزاحم فيه الشباب، وتغلق أمامهم فرص العمل الذي يتيح له التأهل للزواج فهي بذلك تعطل على نفسها توفر شاب يقدم على زواجها، بهذا المنطق يقول سيد قطب: "ولماذا تختار هذا الوضع المقلوب لمعالجة أزمة الزواج، فتعمل الشابة ليتبطل الشباب؟! أن إيجاد عمل لشاب، معناه زواجه، وإعالة فتاه وأسره. أما إيجاد عمل لفتاه - مما يصلح للشبان - فمعناه بطالة شاب وتعويق بناء منزل ووأد أسرة." [53]

---

[49] - سيد قطب، "صحة النسل؛ أهم منابع الثروة القومية،" مجلة الشؤون الاجتماعية، عدد٤، السنة الثانية، أبريل، ١٩٤١

[50] - سيد قطب، "صحة النسل؛ المرجع السابق.

[51] - سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، بيروت: دار الشروق، ط٦، ١٩٨٢.ص ٦٩ -٧١

[52] - سيد قطب،"توحيد برامج التعلم للجنسين"، مجلة البلاغ الأسبوعي : العدد ٥,١ ٢./٣/١٩٢٩م

[53] - سيد قطب، "ثقافة المرأة ،"مجلة الشئون الاجتماعية أبريل ١٩٤٠ السنة الأولى، العدد (٤)، ص ٣٤ - ٣٨

ويرى سيد قطب أن العمل المناسب للمرأة كل ما يناسب شؤون المنزل والتربية فيقول: "ما يزال خاليا هو ميدان الأعمال النسوية أيضا كالتمريض والتربية في المنازل والتربية في المدارس وغيرها، وكل هذا لا يحتاج إلى ثقافة خاصة، غير ثقافة الرجل، وأن كان لابد من اشتراكها في المبدأ. هذه الثقافة التي تحتاج إليها الفتاة، كأم أو مربية، أو ممرضة أو مدرسة، أو مديرة منزل إنما تقوم في الأكثر على فن التربية وعلم النفس، وعلم تدبير الصحة وعلم وظائف الأعضاء، وعلم تدبير المنزل والأشغال، وما إلى ذلك مما تستوعبه التربية بأقسامها الثلاثة : الجسمية والنفسية والعقلية وما تستدعيه إدارة المنزل من خبرة خاصة بإدارته، وأن نظره للفرق الهائل بين أطفالنا وأطفال الأوربيين، ثم بين رجالنا ورجالهم، وإلى اختلاف طرق التفكير والنظر إلى الحياة وجميع المبادئ التي تبثها الأم في نفس الطفل أيام الحضانة الأولى، نظره إلى هذه الفروق ترينا كم نحن في حاجة إلى أمهات عارفات بفنون التربية خبيرات بالشئون الصحية العادية حتى لا نفقد كثير من النفوس التي أعوزتها التربية، وكثيرا من الأجسام التي نخرتها الأوباء."[٥٤]

ويرى سيد قطب أن المرأة العاملة لن تعطي منزلها الحنان والرعاية، ولن تقدم الكثير من الدفء لأطفالها، فيقول: "وبيوت الموظفات والعاملات ما تزيد على جو الفنادق والخانات؛ وما يشيع فيها ذلك الأرج الذي يشيع في البيت. فحقيقة البيت لا توجد إلا أن تنشئها امرأة؛ وأرج البيت لن يفوح إلا أن تطلقه زوجه؛ وحنان البيت لن يشيع إلا أن تتولاه أم. والمرأة أو الأم التي تقضي وقتها وجهدها وطاقتها الروحية في العمل لن تطلق في جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال"[٥٥].

ثم ينتقد الوضع الذي كان سائدا في ذلك الوقت من وجود خادمات في المنازل، لتربية الأطفال، وما له من أثر سيئ على تنشئة الطفل فيقول: "وها هي ذي كل البيوت

---

[٥٤] - سيد قطب، "توحيد برامج التعلم للجنسين"،مجلة البلاغ الأسبوعي : العدد ١,٥ ٢./٣/١٩٢٩م

[٥٥] - سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، بيروت: دار الشروق، ط٦، ١٩٨٢.ص ٦٩ - ٧٠

الكبير : في مصر تضطر لاستخدام مربيات أجنبيات لأبنائها لأنها لا تأمن من جانب المصريات في هذه المهمة الخطيرة ولأنه ليس بين المصريات من يصلحن للقيام بها لأنهن لم يهيأن لها[٥٦]..".

إن ما لمسه سيد قطب في هذا الجانب يجعلنا نقول ما أشبه اليوم بالبارحة، فنجد ما يتحدث عنه سيد قطب هو واقع بشكل كبير في منطقة الخليج، فمازالت المشكلات التربوية وعمليات التنشئة لها جذور ممتدة لم تعالج بعد.

٢- <u>مشكلات الطفولة:</u>

صحة الطفل:

يؤكد سيد قطب على أهمية الرعاية الصحية للأطفال، فيقول: "حين ننظر إلى مسألة الصحة العامة من الوجهة الاقتصادية، نرى أنها منبع أصيل من منابع الثروة القومية بل أهم منابعها على الإطلاق، وهي في هذا الوضع جديرة بالعناية الجدية التي بذلتها أمم كثيرة في أوربا وأمريكا أدركت أهميتها البالغة في حياة الشعوب. والمعروف أن الطفل المريض يتطلب من النفقات أكثر من الطفل السليم، فإذا قدر له أن يعيش كان إنتاجه أقل من إنتاج الصحيح، وبهذا تتضاعف الخسارة القومية على الأمة التي تنتظر من كل فرد فيها أن يرد إليها حين يكبر وينتج ما أنفقته عليه وهو طفل عاجز عن الكسب، ثم يزيد على هذه النفقات شيئا ما، وإلا صارت الأمة إلى الفقر نتيجة لزيادة الإنفاق على الإنتاج"[٥٧] .. "ولو كانت لدينا إحصاءات دقيقة عن هذه الحالات لتبينت لنا الكوارث التي تهدد الحياة الفردية والحياة الاجتماعية من وراء التناسل بين المصابين بأمراض معينة، وبخاصة الأمراض الزهرية والأمراض العصبية وأمراض السل الكثيرة الانتشار ."[٥٨]

---

[٥٦] - سيد قطب،"توحيد برامج التعلم للجنسين"، مجلة البلاغ الأسبوعي : العدد ٥ ,١ ٢./٣/١٩٢٩م

[٥٧] - سيد قطب، "صحة النسل؛ أهم منابع الثروة القومية،" مجلة الشئون الاجتماعية، عدد٤، السنة الثانية، أبريل، ١٩٤١

[٥٨] - سيد قطب، "صحة النسل؛ المرجع السابق.

ثم يعرض سيد قطب مواد قانون مقترح للكشف الطبي للمقبلين على الزواج رجالا كانوا أو نساء. وقدم هذا القانون بمشروع بقانون عام ١٩٢٨م. ويعلق سيد قطب على ذلك بقوله: " ومن هذا نرى أن مشروع القانون الذي قدمه حضرة عضو البرلمان المصري كان قانونا متواضعا، وقد كانت الحجة التي أبديت يومذاك ضد تنفيذه أن قلة المعامل في الأقاليم لا تسمح بإجراء عمليات التحليل التي تقدم إليها.. وما كان يصح أن تكون هذه عقبة في سبيل قانون تلجئنا الحاجة الملحة إليه، فقد جدنا بالمال في سبيل "تحسين نسل الجاموس" فلم يكن أقل من أن نجود بمثله في سبيل "تحسين نسل الإنسان". فتحل مسألة المعامل من تلقاء نفسها، وعلى أن الزمن لحسن الحظ قد حلها فانتشرت الآن بالأقاليم وأصبحت كافية لما يطلب منها. وقد أعادت وزارة الصحة في هذا العام تقديم مشروع قانون كالذي قُدم من قبل."[٥٩]

ظاهرة الأطفال المشردين:

كيف تناول قطب الظاهرة الاجتماعية الخاصة برعاية الطفولة، ومشروع المبرات الاجتماعية؟ لقد تناول الموضوع تناولا شاملا يحيط بكل الجوانب والأبعاد، وفي مقالته "مشروع المبرات الاجتماعية، أو الطفولة المشردة"[٦٠] يقول: "الطفولة المشردة إحدى مشاكلنا الاجتماعية الرئيسية الناشئة عن الفقر والتي يشترك فيها الجهل والمرض بنصيب كبير، وهي من المشاكل ذات الأثر السيئ في الحاضر والمستقبل، لأن العلة فيها تلد العلة واليوم فيها يتلوه الغد وهو أسوأ منه وأشد ظلاما. والجريمة التي تعشش في أوكار هذه الطفولة المشردة تولد جرائم أخرى في الغد القريب والبعيد.

ومنابع هذه الطفولة المشردة كثيرة متنوعة، ولكن الفقر والجريمة هما المنبعان الأصلان، وهما كذلك الوكر الذي يتلقف هذه الطفولة بعد أن تنبع وتشرد في الحياة. فالفقر هو الذي يعجز الآباء عن الإنفاق أو يسلمهم للمرض فالموت، ويترك من بين

---

٥٩ - نفس المرجع.

٦٠ - سيد قطب، "مشروع المبرات الاجتماعية، أو الطفولة المشردة" مجلة الشؤون الاجتماعية، عدد٢، ١٩٤٢، ص ٥١-٥٧

أيديهم في حياتهم البائسة، أو من خلفهم بعد أن يفارقوا هذه الحياة أطفالا صغارا لا عائل لهم، يشردون في الشوارع والطرقات، تعوزهم لقمة الخبز وخرقة الكساء، وكثيرا ما يعوزهم المأوى في القيظ والشتاء."[61]

والجريمة تساهم بدورها في تجسيم مشكلة الطفولة المشردة، فكثيرون من هؤلاء المشردين ولدتهم الجريمة أو اشترك في تكوين الشذوذ الجنسي والأمراض الزهرية فجاءوا إلى هذه الدنيا شواذ مستعصين على العلاج، وزاد نشأتهم عوجا أنهم نشأوا بلا أهل، أو بين أهل مشوهي الفطرة بالمرض العارض أو الشذوذ الموروث، ثم لم يجدوا بعد ذلك مصحات ولا معاهد تحاول ردهم إلى الفطرة السليمة، بل لم يجدوا من يطعمهم ويؤويهم مجرد طعام وإيواء. وهؤلاء يعودون بعد قليل إلى أحضان الجريمة التي أنشأتهم وإلى حياة الشذوذ التي زاملتهم، فإذا هم بعد حين منبع جديد من منابع الطفولة المشردة، بالتوالد فيما بينهم، ويقذف الجدد إلى نفس المصير في حركة آلية دائبة."[62]

النظم التعليمية تعمل ضد الطفولة:

يرى سيد قطب أن النظم التعليمية قد تكون عائقا ضد نمو الطفولة السوية، ومعوقة لقدرات الأطفال وميولهم ويوضح ذلك بقوله : "نحن نسرق في كل يوم وفي كل ساعة طفولة أطفالنا ونحرمهم إياها بحجة أننا نربيهم ونعلمهم ونهيئهم للمستقبل ونحن نؤذيهم بهذه السرقة ونفسد عليهم مرحلة من مراحل العمر العزيزة، ثم نفشل مع ذلك في تحقيق غرضنا الذي نرمي إليه لأننا نتجاهل أحكام الطبيعة ونقسر الفطرة البشرية على تخطي حلقات الزمان ونحن دائبون على إنضاج الأطفال قبل الأوان، نلهب خطاهم نحو التعقل والتوتر والتحلي بالفضائل، ونحاول أن نكبت في نفوسهم غرائز الأطفال ليصبحوا

[61] – سيد قطب، "الطفولة المشردة،" مجلة الشئون الاجتماعية، عدد٢، ١٩٤٢،ص ٥٧

[62] – سيد قطب، "الطفولة المشردة،" المرجع السابق. ٥١

رجالاً وأن نملأ أذهانهم بالمعلومات ليصبحوا علماء فتكون النتيجة أن يكرهوا الأدب والفضيلة، وينفروا من العلم والمدرسة". [٦٣].

ثم يذكر سيد قطب الوسائل التي نسرق بها طفولة هؤلاء المساكين فهي كثيرة: في مقدمتها ذلك النظام العسكري الذي نأخذهم به في حجرات الدراسة، وذلك الكبح الذي نثقلهم به على المقاعد، بحيث نعد تململ الطفل على مقعده إخلالا بالنظام. [٦٤]

ويضيف سيد قطب: "نحن لا نزال نكبح نشاط الأطفال العضوي في البيت وفي المدرسة على السواء حتى في أوقات الفسح المخصصة للعب والحركة ولا نزال نصف التلميذ الساكن الساكت أنه تلميذ مؤدب وننعت التلميذ الدائب الحركة والجري والقفز بأنه تلميذ شقي في حين أن الأول مريض يجب الفحص عن علته النفسية أو الجسدية" [٦٥]

"أننا نسرق طفولة الأطفال بوسيلة أخرى، وهي تلك البرامج المطولة الثقيلة المحشوة بمعلومات متناثرة لا تشويق فيها ولا حياة. تلك البرامج والامتحانات من ورائها تضطر المدرسين لإلهاب ظهور التلاميذ الصغار والطلاب المراهقين بالحفظ والاستذكار لأنه لا وسيلة لتحصيلها – وهي هكذا مقتضبة متناثرة إلا الحفظ على ظهر قلب والحفظ يستنفذ طاقة عظيمة، ومجهوداً مضنياً وزمناً أطول، فلابد أذن من أن يشغل التلاميذ جميع أوقاتهم بالاستذكار أو يرسبوا في الامتحان. ومن هنا تنشأ لعنة الواجبات المدرسية "التي يقضي فيها التلاميذ ما تبقى من النهار وزلفا من الليل". [٦٦]

وأسلوب تأليف الكتب وموضوعاتها يرى أنها لا ناسب الطفولة في خصائصها الحرة، فيقول: "ونحن نسرق طفولة الأطفال – بعد هذا وذلك – بالكتب التي بين أيديهم ولا سيما كتب المطالعة والمحفوظات وبالتوجيهات الخلقية والتهذيبية التي نعتمد فيها

---

[٦٣] – سيد قطب، "طفولتنا المسروقة"، مجلة الشئون الاجتماعية، ع٣، مارس ١٩٤٢، ص ٩٣ .

[٦٤] – سيد قطب، "طفولتنا المسروقة"، المرجع السابق ص ٩٥ .

[٦٥] – سيد قطب، "طفولتنا المسروقة"، المرجع السابق ص ٩٢ .

[٦٦] – سيد قطب، "طفولتنا المسروقة"، المرجع السابق، ص ٩٤ .

على المواعظ والحكم في شروحنا الشفوية أو في القطع الإملائية فأما تلك الكتب فـــهي تفرض أنها تخاطب رجالاً عركوا الدهر وخبروا الناس وتمرسوا بالتجـــارب، فتصـــب عليهم الحكم النظرية عن الشرف والمروؤة والمجد وحسن التصرف وتنقلهم من عالمـــهم الساذج البريء المفعم بالنشاط والحركة والخيال الطائر إلى عالم معقد متوقر متفلســـف يعالج مسائل الأخلاق علاج الفلاسفة أو علاج الوعاظ" [٦٧].

وقد نرى مثل هذه الأمور تأخذ منحىً آخر بأن ينادي المعلم بالقيم الأخلاق وقـــد لا يسلكها (مثل قضية التدخين).

ثم هي فوق ذلك تجبر التلميذ على أن يقول في بعض الأحيان غير ما يحس، فـــهي تضطره أن يقول: إنه يفضل العمل على اللعب، وأنه لا يحـــب صيـــد العصـــافير ولا تعذيبها، بينما غرائزه تهتف بعكس ما ينطق به لسانه. [٦٨]

ونحن دائبون على إنضاج الأطفال واليافعين قبل الأوان، نلهب خطاهم نحو التعقل والتوقر والتحلي بالفضائل والتحدث بلهجة الكبار، والنظر إلى الأشياء، والأعمال بنظرة الشيوخ ونحاول أن نكبت في نفوسهم غرائز الأطفال ليصحبوا رجالاً في بضع سنوات، وتكون العاقبة غالباً أن يكرهوا الأدب والفضيلة وأن ينفروا من العلم والمدرسة. [٦٩]

وفي النهاية يلخص مشكلة التعليم تجاه الأطفال: في قوله: "أن عيـــب المدرســـة المصرية الأصيل أنها تعد القالب الذي تضغط فيه التلميذ لتخرجه من الناحية الأخـــرى مخلوقاً كما تريد لا كما تريد الطبيعة، ولا كما يريد استعداده، فتضحي بذلك شـــخصيته المستقلة فوق ما تسرق من طفولته البريئة." [٧٠]

وهذا ينطبق على معظم الدول العربية، "فكلنا في الهم شرق".

---

٦٧ – سيد قطب، "طفولتنا المسروقة، المرجع السابق، ص ٩٥ .

٦٨ – سيد قطب، "طفولتنا المسروقة"، المرجع السابق، ص ٩٣.

٦٩ – سيد قطب، "رأي في تدريس الإنشاء"، صحيفة دار العلوم، السنة١٠، عدد١-٢ عام ١٩٤٣، ص ٣-٢٣

٧٠ – سيد قطب، "رأي في تدريس الإنشاء ، المرجع السابق، ص ٣-٢٣

رابعا: سُبل رعاية الطفولة والأمومة؟

رعاية الأمومة:

يرى سيد قطب أهمي علاج مشكلات الفتيات، وحفظ المجتمع من الانهيار، وحـل مشكلاتهن، حيث يرى أن إنقاذ فتاة واحدة من المعرضات للسقوط لا نفع للامة من ألـف خطبة في مؤتمر وألف مذكرة للمطالبة بحقوق المرأة لأن أول حقوقها صيانتها من الرق الأبيض الذي تباع فيه الأعراض والأجسام.[٧١]

هذا ما يقوله سيد قطب من ناحية تعليم البنات في ذاته، يقول أيضـا مـن ناحيـة البرنامج الذي تدرسه مدارس البنات، إذ ليس المقصود هو مجرد التعليم، ولكن أن يكون ذلك التعليم مناسباً للمهمة الملقاة على عاتق الفتاه، والتي خلقت لتؤديـها فـي الحيـاة وتضطلع بأعبائها[٧٢].

ولكن يزيد هذا القول وضوحاً يشرح مواد الثقافة التي تحتاج إليها الفتاه لتكـون أما وربة بيت، ويرى كم تصيب الفتاه منها في دور التعليم الثانوي، ودور التعليم العالي على نظام البنين. [٧٣] يذكر البرامج التي تحتاجها الفتاة لإعدادها لدور الأمومة على النحو التالي:

- "تحتاج الفتاه إلى نوع من الثقافة العقلية والمعلومات الملمة، وهذا ما تجد كفايتـها منه في البرامج الحالية في جميع أدوار التعليم، بل تجد فوق الكفاية [٧٤] هذا النـوع من الثقافة لازم للمرأة إلى حد تستطيع معه فهم الدراسات الأخرى الضرورية لها،

[٧١] - سيد قطب، "نقص تشكيلاتنا الاجتماعية"، مجلة الشئون الاجتماعية :يوليو ١٩٤٠، العدد ٣١، ص ٣٤ .

[٧٢] - سيد قطب، "توحيد برامج التعلم للجنسين"، مجلة البلاغ الأسبوعي : العدد ٥ ١٩٢٩/٣/.٢١م

[٧٣] - سيد قطب، "ثقافة المرأة ،"مجلة الشئون الاجتماعية أبريل ١٩٤٠ السنة الأولى، العدد (٤)، ص ٣٤ - ٣٨

[٧٤] - سيد قطب، "ثقافة المرأة المرجع السابق ص ٣٤

٨

وتستطيع به التفاهم كذلك مع شريكها المثقف ومسايره تفكيره. ولكنـــه وحـده لا يكفي. [٧٥]

- فهي تحتاج إلى دراسة – أن لم تكن مستفيضة فكافية عن طبيعة الطفـل وغرائــزه إحساسه وتفكيره، لتستطيع القيام على تربيته، ولا سيما فـــي الســنوات الخمــس الأولى التي ثبت أنها تكون أساس السلوك بقيه الحياة، ولنتجنب الأخطاء التي تقـع فيها الأم الجاهلة. والمثقفة ثقافة البنين العامة، كالجاهلة في هذه الناحية، لأنها لـــم تدرسها بعناية واهتمام. [٧٦]

- وتحتاج إلى دراسة عن صحة الطفل وصحة الحامل، كمـــا يجـب تمرينـــها علـــى الإسعافات الأولية والتمريض المبدئي، لأنها ستصادف يومياً في حياتها المنزلية ما تحتاج فيه إلى هذا المران. [٧٧]

- وتحتاج إلى دراسة طويلة عن أدب الأطفال أو عن مكتبة الطفل، وقصصها الســاذج، وسير الأبطال والعظماء بطريقة مشوقة جذابة، فعلى هذا الأدب الخاص تعتمد الأم المهذبة أكثر الاعتماد في تربية طفلها، ولا شئ مـــن هـذا حتـى فـي معــاهد المعلمات[٧٨].

- وتحتاج إلى معرفة شئ عن التربية الجنسية لتفهم طفلها وطفلتها في مرحلة المراهقة، فتكون صديقه للصبي ومستشار للصبية في هذه المرحلة ذات الأثر البـــارز فـــي مستقبل الأبناء. ولا يزال النظر إلى هذه الدراسة كنظر الأميين العوام! [٧٩]

---

[٧٥] - سيد قطب، "ثقافة المرأة ،"مجلة الشئون الاجتماعية أبريل ١٩٤٠ السنة الأولى، العدد (٤)، ص ٣٤ – ٣٨

[٧٦] - سيد قطب، "ثقافة المرأة المرجع السابق ص ٣٤

[٧٧] - سيد قطب، "ثقافة المرأة المرجع السابق ص ٣٥

[٧٨] - سيد قطب، "ثقافة المرأة المرجع السابق ص ٣٦

[٧٩] - سيد قطب، "ثقافة المرأة المرجع السابق ص ٣٧

- وتحتاج إلى التدبير المنزلي، إلى وضع ميزانية المنزل، وتفصيل الملابس وطهي الطعام والإشراف على الخدم، ومعالجه المشاكل اليومية في البيت وخلق جو من التسلية ومباهج الحياة به.

- كما تحتاج إلى توصية ذهنها إلى خصائص الحياة الزوجية، وتعليمها ملاطفة الزوج، وترويض الرجل! وهذا يضطرها إلى معرفة شئ كثير عن نفسية الرجال، وطرق تفكيرهم. [80]

- يرى سيد قطب بأن الفتاة قد لا تجد زوجاً، فيجب أن نسلحها بالعلم لتأمن زلات الحياة، أو أنها قد تجد الزوج فيجب أن نهذبها بالعلم لتستطيع مشاركته في الحياة. ومن الحق أن تزود من الثقافة بما يضمن لها المشاركة مع رجلها، وإذا كانت الضرورة تحتم الفتاة إلى العمل أن تسلك طريق الفني؟ ولم لا نعلمها لتكون مدرسة أو طبيبة أو مربية أو ممرضة إذا لم تجد المنزل والأسرة، وهي أعمال ضرورية للشعب وليس فيها مزاحمة للشباب. [81]

وهذه أمور لا تلقى شيئاً من العناية في المدارس العامة فليس من الغلو أذن، ولا من العبث بالصور والتشبيهات، أن نقول أن الفتاة التي لا تلم بهذه الدراسات لا تصلح للمنزل الحديث، ولا لتنشئة الجيل القادم، وأن الفتاة التي تختار دراسة البنين يجب أن تكون قد نذرت نفسها للعالم والعمل، وأصمت أذنها عن سماع كل فداء للجنس، وكل حق للأنوثة، في العش الدافئ الجميل.

رعاية الطفولة:

علاج التشرد: يجب إذن أن نفكر في قطع حلقة من حلقات الطفولة المشردة الرئيسية وهي ثلاث : الفقر والمرض أو الشذوذ، والإهمال. يعرض سيد قطب خطته العملية للقضاء على التشرد، ويرى أن الخطوة الأولى للقضاء على التشرد تكمن في

---

[80] - سيد قطب، "ثقافة المرأة المرجع السابق ص ٣٥

[81] - سيد قطب، "ثقافة المرأة ،"مجلة الشئون الاجتماعية أبريل ١٩٤٠ السنة الأولى، العدد (٤)، ص ٣٤ - ٣٨

القضاء على الفقر، وهذا يتطلب وقت طويل، وخطة طموحة ومدي بعيد يصعب إيجاد حل سريع له.

فيرى أن الحلقة الثانية وهي المرض والشذوذ فقطعها رهن التشريعات التي تمنع التزاوج بين المرضى بأمراض وراثية زهرية أو عصبية وبأمراض معدية بطيئة العلاج كالسل والجذام. إذ إن الأمراض الأولى تنشئ نسلا مريضا أو شاذا يكون نواة لمشكلة الطفولة المشردة ثم ينسل هو بدوره وتكمل الدورة التي سق الحديث عنها.[82]

فهذا المثل كفيل بأن يظهرنا على مدى جناية الآباء والأمهات على الأبناء وعلى ضرورة قطع حلقة المرض والشذوذ عن دورة التشرد. ولكن دون ذلك تشريع حازم تقف في طريقه التقاليد والجهل وقلة عدد الأطباء وإحجام المسئولين عن مواجهة الجماهير بما لا تحب. بل دون ذلك أجيال حتى تطهر السلالات إلى الحد المستطاع.[83]

أما الحلقة الثالثة من الدورة وهي حلقة إهمال الطفولة. وقد يكون قطع هذه الحلقة أسهل الحلقات الثلاث على ما تتطلبه من كثرة النفقات، وعلى ما تقتضيه من جهد ليس سهلا كما يبدو وفي ظاهرم فأما النفقات الكثيرة فلكثرة عدد الأطفال المشردين وانتشارهم في كل مكان وكل بلد فهناك الألوف من هؤلاء الذين يجمعون أعقاب السجائر ويتسلقون القطارات والباصات ويبيعون أوراق اليانصيب وينشلون محافظ النقود من الجيوب، ويمدون أيديهم وعاهاتهم للتسول، ويساعدون تجار الرقيق الأبيض وتجار المخدرات، ويرتكبون أكثر الجرائم الصغيرة والكبيرة، ومن يسعده الحظ منهم يحل ضيفا على إصلاحيات الأحداث..[84]

ويرى أنه من المفيد إنشاء عدد من المؤسسات الاجتماعية في الأحياء الرئيسية يكون غرضها الأساسي الأخذ بيد هؤلاء الأطفال، ويتحقق ذلك عن طريق البرامج

---

[82] - سيد قطب، "الطفولة المشردة،" المرجع السابق ٥١

[83] - سيد قطب، المرجع السابق، ص ٥٣

[84] - سيد قطب، المرجع السابق، ص ٥٧

الرياضية والثقافية التي تسير عليها هذه المؤسسات، وقد أنشأت هذه اللجنة أول مؤسسة من هذه المؤسسات التي أطلقت عليها اسم "المبرات الاجتماعية".[85]

ويرى سيد قطب أن إيراد هذه الهيئات محدود، والإعانات التي تقدمها لهم الدولة من ميزانيتها محدود كذلك بقدرة هذه الميزانية على مواجهة أعبائها التي تستنزف مواردها، وما يقال عن الموارد المالية لهذه الهيئات يقال عن مواردها الفكرية المحدودة بعدد قليل من أعضاؤها والمتطوعون القلائل في صفوفها. وعلى قلة هذه الموارد في المال والرجال فإنها تتصدى لمشكلة ضخمة، ثم يزيد سيد قطب بشيء من التفصيل وبذكر خطوات البرنامج الذي يقتضيه علاج هذه المشكلة على الوجه الكامل الصحيح[86]:

١- يجب أن يبدأ البرنامج باصطياد الأطفال المتشردين . وليس في كلمة "اصطياد" أية مبالغة. فالواقع أن هؤلاء الأطفال بسبب سوء وراثة الكثير منهم وسوء نشأتهم جميعا، وبسبب العادات ونوع الحياة التي اعتادوها منذ مولدهم، ينفرون أشد النفور ممن يحاولون إنقاذهم، وينتهزون كل فرصة للإفلات من أيديهم كما يفلتون من أيدي الشرطة وأقفاص السجون، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن خلفهم عصابات تستغلهم أشنع الاستغلال، بل تتجر بهم وتتداولهم بينها لقاء ثمن معلوم. فوراء كل طفل يجمع أعقاب السجائر أو ينشل محافظ النقود أو يروج لتجار الأعراض والمخدرات أو يستخدم هو نفسه سلعة في سوق الرقيق الأبيض. وراء كل واحد من هؤلاء عصابة تحرضه وتدربه على هذه الحياة وتتبع خطواته وترسم له الطريق. وهذه العصابات تحول بين الأطفال وبين من يحاولون إصلاحهم بكل أنواع المقاومة والاحتيال.

٢- دراسة نشأة كل طفل دراسة كاملة، ومعرفة عوامل الشرود على حقيقتها حتى يكون في حيز المستطاع علاج هذه العوامل علاجا مجديا. فالطفل المشرد بسبب

---

[85] - سيد قطب، "الطفولة المشردة،" مجلة الشئون الاجتماعية، عدد٢، ١٩٤٢،ص ٥١-٥٧

[86] - سيد قطب، "الطفولة المشردة،" مجلة الشئون الاجتماعية، عدد٢، ١٩٤٢،ص ٥١-٥٧

الفقر يحتاج إلى نوع من العلاج غير المشرد بسبب الشذوذ العصبي أو وراثة الشذوذ الجنسي أو الإصابات الزهرية. وقل أن يكون هناك سبب واحد للشرود، فكثيرا ما يشترك عاملان أو أكثر وفي بعض الأحيان تجتمع الأسباب كلها في حالة واحدة.

٣- وهذه الدراسة واجبة "لتصنيف المشردين" والفصل بين كل طائفة منهم كي لا تتعدى الأخرى وتزيد علتها، وكي تنفرد بجهد خاص موجه بكليته إلى علة شرودها، ولا يخفى أننا حتى اليوم فقراء في الأخصائيين لمثل هذه الدراسات. ولا تزال كلية الطب خالية من فروع الطب النفسي، كما لا تزال معاهد التربية غير معنية بإيجاد دبلومات خاصة لهذه الدراسات.

٤- الحيلولة دون الأطفال المشردين والعوامل التي تشردهم، والفصل بينهم وبين العصابات التي تستغلهم. ولعل دراسة ظروف هؤلاء الأطفال وتدوين نتائجها في سجلات خاصة، يحدد بالضبط تلك العوامل ويكشف وسائل هذه العصابات ومكانها فتكون لهذا فائدة مزدوجة:شقها الأول يعين على مكافحة الشرود، وشقها الثاني يفيد إدارة الأمن العام في مقاومة العصابات.

وهذه الحيلولة تقتضي مضاعفة النفقات لكفالة الأطفال كل الوقت ولمراقبتهم كذلك، وبدون هذه الطريقة يصبح كل مجهود عبثا لا يؤدي إلى غاية، إذ إن اتصال الأطفال بالعوامل التي شردتهم يغذي ما كمن في نفوسهم من وراثات وعادات، ويسد الطريق على وسائل الإصلاح المصطنعة التي يتوخاها المشرفون عليهم.

٥- موالاة هؤلاء الأطفال بالرعاية والمعونة حتى يشبون. إما بإلحاقهم بأعمال يكسبون منها قوتهم ويعيشون عيشة الشرفاء في مستقبل حياتهم، وإما بإنشاء منشآت خاصة لهذه الهيئات يعمل فيها كل من لا يجد عملا في الخارج من هؤلاء

الأطفال. وهذا المطلب الأخير مثالي ولكنه ضمان عملي لإثمار المجهود المضني الذي يبذله المصلحون، وعدم ضياعه بددا في مستقبل الحياة.[87]

خامسا : التطبيقات التربوية.

يقول سيد قطب "والآن يجئ واجب الأفراد وواجب الأمة في النهوض بهذه التبعات. فالمال اللازم لهذه المشروعات الضخمة لا تنهض به الموارد المحدودة لجمعيات ناشئة، وليس كذلك من شأن الدولة أن تستقل بهذا العبء فلابد إذن من التبرعات الكثيرة لهذا الواجب المفروض."

ويرى سيد قطب أن جمع التبرعات ولو مبلغ بسيط، سيصبح في النهاية مبلغا يعمل على توفير الرعاية للمشردين من الأطفال فيقول: "وفي مصر ثمانية ملايين من السبعة عشر مليونا لا [88]يعي الواحد منهم أن يتبرع بقرش واحد في الشهر فيكون مجموع القروش هو .960.000 جنيه مصري، تنهض بهذا العبء وبغيره من الأعباء، ولا تثقل أحدا بل لو تبرع أربعة ملايين فقط وهم القادرون الذين لا شك في قدرتهم بمثل هذا المبلغ التافه لكان لنا في كل عام نحو نصف مليون من الجنيهات ينهض بها العمل المشكور.

"والمال وحده لا يغني بدون الإيمان الواجب والحماسة للخدمة العامة. وفي الدول عشرات الألوف من الموظفين والطلاب. فلو أن كل واحد منهم خصص نصف ساعة في اليوم للخدمة العامة من الزمن الذي ينفقه جزافا، ومن الوقت الذي يحاول أن "يقتله" ويعيا "بقتله" ويضيق صدره به. لكان لدينا رصيد ضخم من أوقات الخدمة العامة ينهض بمعالجة مشكلة الطفولة وبكثير من المشاكل الاجتماعية الأخرى".[89]

---

[87] – سيد قطب، "الطفولة المشردة،" مجلة الشئون الاجتماعية، عدد٢، ١٩٤٢،ص ٥١–٥٧

[88] – سيد قطب، "رأيي في تدريس الإنشاء"، صحيفة دار العلوم، السنة١٠، عدد١ & ٢ عام ١٩٤٣، ص ٣–٢٣

[89] – سيد قطب، "الطفولة المشردة،" مرجع سابق،ص ٥١–٥٧

ويعني سيد قطب بذلك دعوة إلى العمل التطوعي، كمفهوم جديد للخدمة العامة، وقد سبقنا الغرب في ذلك بتنشئة أبناءهم على العمل التطوعي والخدمة العامة.

فالجانب العملي الذي يدعو إليه سيد قطب يراه في المشاركة الشعبية، حيث إن الإصلاح الاجتماعي في حاجة إلى تعبئة عامة، تعبئة الموارد والجمهور وعلى الأمة أن تقوم بهذه التعبئة إذا شاءت أن تكون أمه متمدينة وأن تفهم روح العصر الذي تعيش فيه. فإذا عز على الأمة أن تدرك هذا الواجب، فمن واجب الدولة أن تفرضه عليها فرضا. فالعالم يثب ويركض ونحن لا نزال نترنح ونتلفت في سيرنا ذات اليمين وذات الشمال[٩٠].

فبما أنه يرى أن الطفولة المشردة نتيجة لآثار سيئة فواجب حمايتها وقد اقترح حلولا عملية، من أجل حماتيها فيقول: "فإن خطورة الطفولة المشردة تكمن في كونها نبع من منابع البغاء الأساسية، فيجب أن نحمى هذه الطفولة مما تتعرض له في الأزقة والطرقات تحت تأثير عوامل الفقر وسوء التربية، وفساد القدوة أو قوة الأغراء، من الهوى إلى درك البغاء في النهاية، ونظرة واحدة يلقيها الباحث إلى الفتيان والفتيات بائعات اليانصيب وجامعات أعقاب السجاير والمتسولات وأمثالهن وإلى الأماكن التي يرتدنها لمزاولة هذه المهن والفتيان والغلمان والشبان الذين يختلطون بهن في هذه الأماكن نظرة واحدة تشير إلى المصير المحتوم لهؤلاء وهؤلاء[٩١].

فيقترح بأن هذا المنبع يجب تطهيره بإيجاد الملاجئ والمشاغل والتشديد في عقوبة أولياء أمور هؤلاء المشردين والمشردات ولنذكر دائما أن هذا البذور هي نبات المستقبل وأن في هذه الطفولة كنوزا لا يصح إغفالها فإذا لم يكن لنا من وراء العناية التامة بها إلا تطهير منبع من منابع البغاء لكان كل جهد في هذه الناحية له ما يبرره[٩٢].

---

٩٠ - سيد قطب، "مشروع المبرات الاجتماعية، أو الطفولة المشردة،" مجلة الشؤون الاجتماعية، عدد٢، ١٩٤٢،ص ٥١-٥٧

٩١ - سيد قطب، "إلغاء البغاء وإلغاء البغايا"، مجلة الشئون الاجتماعية : العدد الثالث، مارس ١٩٤١ .

٩٢ - سيد قطب، "إلغاء البغاء وإلغاء البغايا، المرجع السابق. .

الفصل الثالث

رعاية الأمومة والطفولة عند العقاد

مقدمة:

سوف نستخدم الأسلوب التحليلي والنقدي فيما كتبه العقاد عن الطفولة من خلال أدبه، محاولين الربط والبناء للفكرة العامة التي يريد أن يؤكد عليها العقاد، وسوف نستشهد بأقواله ممن عاصروه من المقربين إليه، وكتبوا عنه، وكذلك الأحاديث واللقاءات التي تم تسجيلها ونشرت له فيما يخص موضوع الأمومة والطفولة.

أولا : سمات الطفولة :

يرى العقاد أن الطفولة أقدس من القانون وأقوى من السلاح وأسحر من المال ...[1] ويقدم لنا صورة للطفولة من خلال الصفات التي يتسم بها الأطفال، فيقول : " نفوس الأطفال أصدق معرض تدرس فيه أخلاق الرجال فإن جميع ما يضحكنا من طباعهم كالأنانية، والغرور الشديد والغيرة الحادة وحبهم المفرط لاستجلاب المدح والإعجاب يظل كامنا في نفوس الرجال، تتغير أشكاله وموضوعاته من الألاعيب إلى العروض الحقيقية وهو باق لا يتغير وإنما يضطرون إلى مداراته لأنهم لا يجدون من يتحمله منهم كما كان يتحمله آباؤهم وأمهاتهم"[2] فهو يرى أن الرجال أطفال كبار ولكي نفهم مشاكلنا النفسية في الوقت الحاضر يتطلب منها فهمنا لفترة طفولتنا الأولى.

والعقاد كان يجد متعته الكبرى في التحليل النفسي، فعندما عُرضت عليه مشكلة نفسية تعاني منها امرأة، قال لمن عرضها عليه : " أمامك مذهبان .. إما أن تحلل أحداث طفولتها، وإما أن تعرف علاقتها بأبيها. أما علاقتها بزوجها هذه فلا تهم، فالزوج قد ظهر أخيرا ولو يظهر في حياتها[3].

---

[1] - العقاد ، "قداسة الطفولة " الأخبار ١٩٥٨/٩/١ .

[2] - العقاد ، خلاصة اليومية ، بيروت : دار الكتاب العربي، ١٩٧٠ ص ص ٢٥-٢٦ .

[3] - أنيس منصور ، في صالون العقاد كانت لنا أيام ، بيروت : دار الشروق، ١٩٨٣ ، ص ص ١١٨-١١٩

وكان العقاد يقارن كثيرا بين الإنسان والحيوان ، ويرى أن الحيوانات مسودة الإنسان ... فلكي نفهم الإنسان يجب أن نتجه إلى الحيوان أو الطفل أو المجنون..[٤] فهو بذلك يؤكد على أن الطفولة هي أساس فهم الإنسان وإذا ما صلحت، وكانت سوية أصبح الفرد في حياته إنسانا صالحا، صحيحا نفسيا واجتماعيا، وبدنيا .

فيؤكد العقاد بأنه لا يستطيع أن يقول أن عالم الطفل تافه، لأن الطفل نفسه صغير .. إن عالم الطفل على قدره هو مثل ملابسه وأحذيته وأفكاره ... ولكن عالم الطفل هو بداية البدايات في حياة الإنسان وليس غريبا أن تكون مبادئ علم النفس التحليلي عند أصابع الطفل، وتبدأ بتساؤلاته .. ولذلك فعلم النفس التحليلي بكل مدارسه لا يمكن أن يكون شيئا هينا لأنه يبدأ من الحركات وردود الفعل الصغير عند الأطفال[٥] .

العقاد ينظر إلى المرأة كإنسان بالغ لكنه طفلي في العقل والنفس، أي أن المرأة ليست ناضجة كالرجل وإنما هي أشبه بالطفل وفيها الكثير من صفاته وسماته فيقول : " في المرأة من أخلاق الطفل، غيرته المضحكة، ونزقة السريع واستغراقه في الحاضر الذي بين يديه، وقصور نظره، على الظواهر والقشور، ومرحه وغرابته ونفوره مما يهم ويصلح، ومحاكاته كل ما يراه، وتعويله في أموره على سواه ، وتقلبه وكذبه، ورياؤه وأثرته وولعه باستطلاع المضمرات والأسرار، وجشعه وطمعه، وافتتانه بالثناء، والإطراء[٦].

والمرأة هي في خفتها كالطفل الذي تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولا تثقله الدخائل"[٧].

---

٤ - المرجع السابق ، ص ١١٥.

٥ - نفس المرجع ، ص ١٧٤.

٦ - العقاد ، هذه الشجرة ، القاهرة : دار النهضة ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٦.

٧ - المرجع السابق ، ١٣٧ .

ويقول العقاد " أن الأطفال محبوبون لأنهم أزاهير الإنسانية وترجمان ربيعها، محبوبون أنهم بشائر الشباب والحيوية ... إنهم معلمون من الطراز الأول، لأن أخلاق الإنسانية مكتوبة في نفوسهم بالخط البارز الذي تقرؤه لأول نظرة، وهي في نفوس الكبار ضامرة أو مصفحة أو ملتبسة بوشي الرياء وزركشة العرف وزخارف التكلف والتمويه"[٨] .

كما ويصور العقاد معاني للطفولة بقصيدة " غيرة طفلة"[٩] .

ما كان أملح طفلة	من غير شيء تخجل
ضاحكتها فتمايلت	وشعورها تتهدل
ورجوت منها قبلة	فأبت كمن يتدلل

ثانيا : مكانة الطفولة :

ينزل العقاد من العربة ليجد نفسه محاصرا بجيش من الأطفال، أنهم

أولاد أخيه وأخته ، وتتقدم ابنة أخيه الصغيرة لترفع احتجاجا، ولا أحد هنا يستطيع أن يحتج على العقاد سوى الأطفال[١٠] فهو يقول :

" إنني أحب الأطفال أحبهم أكثر من أي شيء . وهم يحبونني أيضا "[١١] .

جاء رجل إلى العقاد ، يدعى المعرفة والفلسفة، فقال له العقاد :

هناك طريقة واحدة لإقناعي وهي أن تجيبني عن هذا السؤال" كيف تفسر أنهم إذا خيروا أحد الآباء بين أن يكون ملكا بشرط أن يذبح طفله، وبين أن يظل على حاله ، فإنه يختار أن يبقى على حاله ولا يذبح طفله ؟ " فقال الرجل : ليس كل الناس يا

---

[٨] - العقاد ، أنا ، القاهرة : دار المعارف ١٩٨٢ ، ص ١٢٣ .

[٩] - العقاد ، ديوان يقظة الصباح ، بيروت : دار العودة ١٩٨٢ ، ص ٦٥ .

[١٠] - عامر العقاد ، أحاديث العقاد الصحفية ، بيروت : المكتبة العصرية ، د.ت. ص ٢٩ .

[١١] - صفيناز كاظم ، " حديث مع العقاد " مجلة الجيل ، ١٩٥٨/٣/٢١ .

أستاذ ، أنا شخصيا مستعد أن أذبح كل أطفالي لكي أكون ملكا وأتزوج من جديد ويكــون لي ما شئت من أطفال !! فكان رد العقاد عليه : هذا ما كنت أتوقعه. فلــم أتوقــع أن تكون إنسانا، ولذلك فيا حضرة الحيوان عندما تصير إنسانا فتعالى إلى مناقشتي. [12]

وحب الطفولة عند العقاد يجعله يقدر ثمنها الغالي ، فلا يستطيع دفع الثمن حيـــن يقول : " وأي مخلوق أحب إلى القلب من المخلوق الــذي يسـليك وهــو يحرجــك ، ويغريك وهو يبكي أمامك، ويجددك أنت وهو ينظـــــر إلى كل قديم حولك، ويعلمـك وأنت تحسب أنك لا تفرغ من تعليمه، وأن دروسه التي يمليها عليك لا نفع من دروسـك التي تمليها عليه ... لكن ... ويالهـــا من لكن ! لكنها كما نعلم جميعا متعـــة غاليــة الثمن، غالية جدا لا نملك ثمنها ، لأنه قاصم للظهور في كثير من الأحوال . فنظــرة إلى طفل مريض تنسيك متاع الدنيا بأسرها، وصيحة ألم من ذلك الصغير تزلزل عزائـم الأبطال، أما إذا كان الخطب لجسم فلا حول ولا قـــوة إلا مـــن حــول الله وقوتــه .. وكلاهما ليس في اليدين .

وجاهل بهذا الخطب من يحسب أن الحزن على الصغير أهون من الحـــزن علـــى الكبير، إذ الواقع أن الحزن على الكبار قد يهون عند الحزن علـــى هـؤلاء الصغـار، لأنك تحزن عليهم بمقدار تعويلهم عليك ومقدار الرجاء في غدهم، وغدهم طويل مفتـوح لآمال الخيال ، ولنظرتهم إليك وهو مرضى على يديك تطالبك بــالمعجزات، وتعجـزك بعد ذلك عن الصبر على ذلك الأمل الذي ضاع فيك وفيهم، فلا عزاء .

متعة نفيسة وثمن غال، ومما يهدني في اقتناء النفيسة علمي بغلـــو الثمـــن .. ولا أخالني مع هذا نجوت مما ابتليت به في طائفة من هؤلاء الأصدقاء ، الأعزاء " [13]

ومن أمنيات العقاد أن يكون له طفل[14] وقد أشار بذلك حين قال : "كنت أتمنى لـــو كان لي أطفال ، ولكني لا أتصور أن يكو لي ابن ويموت .. لا أتصور حالـــة أب فقـد

---

[12] – أنيس منصور ، في صالون العقاد . مرجع سابق ، ص ٤٩ .

[13] – العقاد ، أنا ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٥-١٢٦ .

أبنه[15] " ولا أتصور أن العقاد لم يكن قويا لمواجهة أي خطب جسيم ، أو أنه غير قادر على تحمل المسؤولية في تربية أطفاله ، ولكن يبدو أن العقاد كان يرى الحياة صعبة ، وفيها معاناة ، فمال إلى رأي أبي العلاء المعري الذي يقول :" وإذا أردتم بالبنين كرامة .. فالحزم أجمع تركهم في الأظهر " أي أن إكرام الطفل ألا يولد ، وان يبقى هناك في ظهر أبيه أو بطن أمه ! فيعلق العقاد على ذلك قائلا : فأبو العلاء والد رءوف صد أبناءه عن الحياة رحمة بهم . فيالها من رحمة لا يعرفها له أبناؤه ! ثم متى كان الأبناء يعرفون البر للآباء؟

ويتخيل العقاد محاورة بين أبي العلاء المعري وبين ابن له يتوسل إليه أن يريه الحياة ، ولكن المعري ينصحه بالبقاء في عالم العدم، ونرى أن العقاد في قصيدته هذه يكشف عن فلسفته واقتناعه بعدم رغبته في أن يكون له أطفال . فكأنه من شدة خوفه عليهم لا يرغب لهم في عيش تعيس في الحياة، فماتت وماتت في داخله ذريته التي أحبها ، (فأحبهم موت) أو أحبهم لدرجة الموت . فيقول العقاد :

يا أبي طال في الظلام قعودي .. فمتى أنت مخرجي للوجود
طال شوقي إليك .. فأحلل قيودي ...
ولدي : أنني أبوك الرحيم .. أنا بالعيش يا بني عليم
لا تصدق مقالة من بعيد
شرها يا بني شر ثقيل .. خيرها يا بني خير قليل
أهلها يا بني أهل حقود
هكذا أقنع المعري الوليدا .. فتنحى عن الحياة بعيدا
والتقى الشيخ وابنه في اللحود ..[16]

---

[14] – العقاد ، " لو كان لي ولد " ، الأخبار ١٩٤٨/١/١٧ .

[15] – صافيناز كاظم ، مجلة الجيل ، مرجع سابق .

[16] – أنيس منصور ، " رسالة لطفل لم يولد بعد ، " أخبار اليوم . ١٩٨٨/٩/٢٤ ، ص ٧ .

ونستطيع القول بأن العقاد هنا متأثرا برأي المعري بأننا جئنا إلى الدنيا غير مخيرين ، وكأنه يردد قول المعري :

هذا ما جناه أبي علي .... وما جنيت على أحد

حين ينشد العقاد قصيدة بعنوان " حكمة جهل الأطفال "[17] .

تجمع في أهاب الطفل كل غرارة الدنيا
ليطرق بابها طوعا ويدرج فوقها حيا
أيترك بطن والدته لو أن لمثله رأيا
لأمر ما دخلناها ولا عزما ولا وعيا

وقد نستنتج انه آمن بفلسفة المعري، بعزوفه عن الزواج وإنجاب أطفال، رغم أن العقاد كان يحب الأطفال ويقدرهم .

ولكن العقاد يصعب عليه تصور الطفل الميت أو الذي يدفن في ظلمة اللحد، فهو رقيق القلب عليه حين ينشد " على جدث الطفل الصغير"[18] .

إذا ما قضى الجنس الذي يدعى إلى آدم ولم يلق من ينعى
هنالك فتبك الطبيعة فرحة على جدث الطفل الذي فاتها صنعا
ولقد ولدته عاجزا وانتهت به إلى أن تحداها فضاقت به ذرعا

وفي قصيدة أخرى بعنوان " رثاء طفلة"[19]

زهرة كان وجهها نور قلبي وناظري
حملتها يد الردى حمل من لم يحاذر

---

[17] - العقاد ، ديوان وحي الأربعين ، بيروت : دار العودة ١٩٨٢ ص ١٤ .

[18] - العقاد ، ديوان بعد الأعاصير ، بيروت : دار العودة ١٩٨٢ ص١٦ .

[19] - العقاد ، ديوان يقظة الصباح ، مرجع سابق ، ص ٣٩

قـــد أجنوك في الثرى يا جنين الضمائر
أن صعـــب على الصغار احتباس المقـــابر .

فانظر إلى رهافة حس العقاد ، ورقة قلبه على الأطفال وتصويره لصعوبة تحمـــل الطفل الصغير ظلمة القبر واحتباسه فيه . فمازال السؤال مطروحا : هـل هـذا مـبرر لخوف العقاد على أن يأتي بذرية يخاف عليها الموت ؟ وهل هذا دليل حب للأبناء ؟؟!!

والعقاد يقدر ما للطفولة من قيمة ومكانة بين الكبار فيقـول :" فنعلـم الآن فلسـفيا واجتماعيا ونفسيا، أن الطفولة هي قوام العيد كله فلولا الأطفال لم استطاع المجتمـــع أن يوقت الفرح مقدما بميقات معلوم في يوم من الأيام ، ولكن هات للمجتمع أطفالا يفرحـون بالكساء الجيد واللعب المباح، وأنت الكفيل بفرح المجتمع كله علـى الرغـم منـه .. إذا صح الفرح بالإرغام وهو صحيح في شريعة " الدكتـــاتورين " الصغـار ، فليـس فـي استطاعة كبير أن يعصى سلطان الفرح وهو ينظر إلى صغار فرحين."[20] (35) فالعيد فـي الشرق هو المظهر الأكبر لدولة الطفل في كل سلطاتها. ويستطر العقاد في صور العيـد وما يحاط به من مظاهر الإنفاق على الحلوى والزيارات ، لم تكن لتنفق لـــولا الطفـل الصغير، وربما هان على المرأة الأم أن تنسى نصيبها من زخـرف العيـد لـولا أنـها نظرت إلى أطفال غيرها ولا تحب أن تشعر بانكسار أطفالها أمام النظائر والضرائر مـن النساء .

وان السرور الذي جلبه الطفل الصغير لأبيه ولأمه وللبيت كله وللمجتمـــع بأسـره ليستحق هذه التكاليف المرهقة ويزيد عليها.[21]

ومن ثم يرسم العقاد صورة الطفولة وأهميتها من خـلال هـذه المناسـبات التـي يجعلون لها معنى، ثم يحكي لنا صورة لمواقف الأطفال فكم لهم من أضاحيك.[22]

---

[20] – العقاد ، أنا، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

[21] – العقاد ، اليوميات ، ج ٣ ، القاهرة : دار الشعب ، ١٩٧٠ ، ص ٥٦٨ .

ثم يرجع العقاد بك إلى عالم الطفولة وأخيولاتها. وما تضفيه على الحياة من بهجة فيقول : "وصحبة الطفل الصغير رياضة وما أجملها رياضه ... أن الأوربيين يعبرون عن الرياضة بالخلق الجديد ; Recreation كأنهم يقولون أن الترويح عن النفس يخلقها خلقا جديدا ويعيدها نشأة أخرى كما كانت أو خيرا مما كانت عليه والطفل يريك هذا الكون قشيبا عجيبا كانت تراه خارجا من يد الله في يوم الخليقة الأول. أن الصغير الذي يرفع العصا ليدرك بها القمر يعود بك كما كنت يوم ملأت عينيك من القمر أول مرة. فزعم لك خيالك الطري في أنه على مد الذراع القصيرة. وأنه إذا احتاج منك إلى جهد فغاية هذا الجهد أن تصعد إلى سقف وترفع العصا إليه فتنزل به إليك !"[٢٣]

ويرى العقاد أن ثقافة الشرق تقدر الطفولة، وهي أسبق من حضارة الغرب في ذلك فيقول العقاد " أن لغاتهم كلها – أو معظمها – شاهدة عليهم بالحقيقة التي لا فرار منها. أن الضمير الذي يشار به إلى الطفل في اللغات الغربية هو ضمير الجماد أو الضمير الذي يشار به إلى الأشياء (It) واللغة العربية على كثرة الفوارق بين ضمائر العقلاء وغير العقلاء فيها لا تذكر الطفل ألا بالضمير الذي يذكر به الكبار من الذكور أو الإناث. فاللغات الغربية إما تذكر الطفل بضمير الجماد أو تسوي بينه وبين الجماد. ولكننا نقول هو الطفل وهي الطفلة ومن كان من الأطفال، لا ما كان.[٢٤]

كما يوضح العقاد فضل السبق لثقافتنا وحضارتنا الشرقية، باهتمامها بقصص الأطفال. التي ظهرت وعرفت عندنا قبل أن يعرفها الغرب، فيقول :" وقبل أن تؤلف كتب الحكمة على ألسنة الحيوان في أمة من الأمم الأوربية. كانت هذه الكتب من مطالعات الأطفال بين الشرقيين من الهند والصين إلى وادي الفرات والنيل."[٢٥]

---

[٢٢] – العقاد ، اليوميات ج ٤ . القاهرة : دار الشعب ، ١٩٧٢ ، ص ص ٥٧٦-٥٨٧ ، في الأخبار ١٩٦٠/١/٤ .

[٢٣] – العقاد ، أنا ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٣ -١٢٤ .

[٢٤] – العقاد، اليوميات، ج١، القاهرة : دار المعارف . ط ١ ، ١٩٧٦ ، ص ٢٢٨ .

[٢٥] – نفس المرجع .

كما يبين العقاد أهمية ومكانة الطفولة في كونها عالم الأسرار لدراسة النفس الإنسانية وفهم عالم الكبار حيث يقول :" أن معلمينا الصغار لا يكتمون شيئا، ولكن ما كتموه أبرزوه وضاعفوا إبرازه ، فمن لم يتعلم حقائق الضمير الإنساني من الطفل فما هو بمستفيد شيئا من علوم الكبار "[٢٦]

ثالثا : مشكلات وقضايا الطفولة :

تطرق العقاد لبعض المشكلات التي تواجه الطفولة، وقد نعرض لأهم هذه القضايا، منها : أطفال الأنابيب، وتأثير قصص الخيال على الأطفال، ومشكلات الحضانة، والتنشئة الاجتماعية، وتشغيل الأطفال، وأسباب جنوح الأطفال، ورعاية الأيتام، وقضايا أخرى .

أطفال الأنابيب : يرى العقاد أن التجريب العلمي والبحث في مجال الخلايا الحية مطلوب، ولكن يرى استحالة تخليق إنسان تدب فيه الروح، لأنه من عمل الخالق. وهذه القضية كانت مثارة في أواخر الخمسينات، ولم تتطور فكرتها بعد من حيث كونها إجراء تخصيب البويضة، في أنابيب خارج الرحم، ثم إعادتها مرة أخرى ، كما يحدث الآن من نجاح لمثل هذه التجارب للأفراد المصابين بالعقم، ولكن العقاد يتحدث من خلال هذا الموضوع عن قدرة الله الأعلى التي هي فوق استطاعة العلم فيقول :" أن البحث في تحليل الخلايا الحية، سواء كانت من خلايا التناسل أو من غيرها، عمل نافع جدير بعناية العالم المؤمن بالله على أي دين، فإن العلم بخصائص الأجسام الحية ، تحليلا وتركيبا مصلحة إنسانية نستفيد منها في تقويم البنية، وفي علاجها، وفي العلم بأسرار الخليقة التي أمرنا الدين القيم بالكشف عنها ولا ينهانا عن البحث فيها .. ولكننا نعتقد أن العالم البيولوجي الذي يظن أنه قادر بالتحليل الكيماوي أن ينقل خصائص الحياة ، يجهل طبيعة المسألة التي يتصدى لبحثها ويضيع وقته وتجاربه في غير جدوى .. فمن الجائز

٢٦ - العقاد ، أنـــا مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

أن يطمع العالم في محاكاة الخلية الأولى بالتراكيب الكيماوية، ولكنه لا يستطيع أن يودع هذه التركيب خصائص الحياة الموروثة في أبسط الخلايا "[27]

تنظيم الأسرة : يجد العقاد أن الضرورة هي التي تضعنا أمام الحاجة إلى تنظيم الأسرة، ويجب أن نهتم بهذه المسألة، لأننا في عصر يجب أن نهتم فيه، وطنيا وعالميا، وقوميا، بضمان سلامة الأسرة في المستقبل القريب، ونهتم فيه أشد الاهتمام وأعجله بمشكلة السكان وتزايد عددهم في أنحاء العالم كله .. أما تحديد النسل أو تنظيمه فلا مانع ما لم يكن فيه عدوان على روح أو على حق. ولم تكن فيه، بلغة الشرع، عدوان على الأنفس والأموال والآداب فلا حرج فيه، وقد يكون واجبا من وجوب الضرورة عند توقع الضرر الكبير من إهماله .[28]

تفضيل ذرية الذكور على الإناث : تلك من عادات الجاهلية، قال تعالى " وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم "(النحل ٥٨) والعقاد يرفض التمييز بين البنين والبنات، وأن نوع المولود يتحدد بسبب الرجل ولا دخل للأمهات في ذلك. (وهذه حقيقة علمية) .

وقد عقب العقاد على ما جاء في الصحف بأن رجلا طلق زوجته لأنها ولدت له أربع بنات! فقال :" أن الأب الذي يلوم الأم على نسله ونسلها منه يسقط نفسه من الحساب، ولا يحق له أن يفضل البنين على البنات، وهو يعول على الأرحام ولا يعول على الأصلاب، فالأمهات يعطين ما أخذنه من الآباء "[29] وذكر أبيات شعر لامرأة أبي حمزة ، التي هجرها، وجعل يتردد على بيت جارة لها فأنشدت :

---

[27] - العقاد ، اليوميات ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٢١٣ ، الأخبار ، ١٩٥٩/١١/٩ .

[28] - العقاد ، " تحديد النسل " الأخبار ، ١٩٦٣/١/٩، وفي اليوميات ج ٢ القاهرة دار المعارف ١٩٦٩ ، ص ص ٥١٦-٥١٧.

[29] - العقاد ، اليوميات ، ج ١ ، مرجع سابق ، ٣٥٠.

مـا لأبي حمزة لا يأتينا — يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نـلد البنينا — وإنمـا نأخذ ما أعطينا

تشغيل الأطفال : يرفض العقاد سخرة الأطفال وقيامهم بالعمل من أجـل مسـاعدة الأسرة، ويرى ذلك نوعا من الإضرار بعقولهم وأجسادهم فيقـول :" وقديمـا اضطـر الفقراء ، وغير الفقراء ، إلى تسخير القاصرين وإهمال تعليمهم في سن الطفولة البـاكرة فيما يشق عليها ويضر بأجسامهم وعقولهم إيثارا للانتفاع بأجورهم على احتمال نفقتـهم، فلا نجعل هذه الضرورة قاعدة تقام عليها تربيتهم وتفريج الضائقة عن ذويهم، واعترافنا بهذه الحقيقة بأن نصلحها ونغني المضطرين إلى تسخير أبنائهم عن هذه السخرة الشائنة، فيستغني عنها الكثيرون ويأنفوا منها بضمائرهم وقلوبهم بعد أن تعودوا مع الزمـن أن يتجنبوها خوفا من العقوبة وطاعة للشريعة "[30] .

ويؤكد العقاد أن " ماركس " صاحب كتاب رأس المال ، هـو الآخـر الـذي رد بواعث الاجتماع وكل باعث من بواعث الحياة إلى فكرة الاستغلال وابتزاز الأموال، فما هو إلا أن رأى في زمانه إيناسا يستخدمون أبناءهم فيما ينفعهم ، ويستعينون بهم علـى مصالحهم، أو يرشقونهم في جمع ثروتهم حتى جزم بفساد نظام الأسرة، وقيامها جميعـا على أساس الاستغلال والتسخير، وأن المسألة كلها حسبة اقتصادية ومضاربـة ماليـة تتبدل من زمن إلى زمان ، كما تتبدل صفقات الإنتاج وأسعار الأسواق . [31]

تأثير القصص الخرافية : يركز العقاد على أن من يكتب للأطفال عليه أن يؤهلـهم لوظيفة التعليم، وأن تكون الكتابة مؤثرة فيهم، حتى لا ينسوها ، وأن تكون الكتابة فـي مستوى التلاميذ، كما يؤكد على أن المتعلم الصغير لا ينبغي عليه أن يقتصر على كتبـه الدراسية فقط في القراءة " فإذا وجد الكاتب الذي يؤلف لأطفال لا يؤهلهم لوظيفة التعليم، ولكنه يحافظ على مستوى العلم وهو يصنع كتب الأطفال المبتدئين فهو يشذ عن سـنة

---

[30] – الأعمال الكاملة للعقاد ، بيروت : دار الكتاب اللبناني، المجلد العاشر ، " الأسرة والمرأة" ، ص ٣٨٧.

[31] – العقاد ، " الأسرة والمجتمع "، الرسـالـة ، ٢٨/ ٥/١٩٤٥، ص ٦٢١.

الكتاب .. وما من زمن وجدت فيه كتب الأطفال واقتصر الأمر كله عليها في الكتابة والتأليف، فلا غنى عن كتب السنة الأولى مع كتب السنة التحضيرية، ولا غنى عن كتب السنة الثانية والثالثة والرابعة، وكتب التعليم التوجيهي، والتعليم العالي مع كتب السنوات التي تنقص عنها درجات الدراسة .. وإذا وضعت كتب الهجاء لطفل صغير فهو يعلقب ويهمل إذا اكتفى بها طول عمره أو احتاج إليها سنة أخرى بعد سنته الأولى، وينتهي الأمر بإغلاق المدرسة التي تنحصر دروسها ومدرسوها وكتب دراستها على قدر السنة التحضيرية دون سواها ... فلا بد إذن من كتابة يفهمها كل قادر على الفهم حسب اجتهاده، ولابد إذن لكل قارئ من أن يرتفع باجتهاده ولا يقعد في حضيض الجهل .. ولا فائدة من العلم إذا كان من حصله مطالبا بأن ينساه ومن جهله غير مطالب بأن يسعى إليه." [٣٢]

وعندما سئل العقاد عن القصص البوليسية هل تشجع على الإجرام ؟ فقال "..فيها مجال للحادثة ، ومعه البحث والمطاردة وهما وسيلة من وسائل التشويق ، وفيها مجال التحليل النفسي، يتناول المقابلة بين أخلاق الضحايا وأخلاق المجرمين ، وفيها امتحان دقة الملاحظة وبراعة الخيال عند المعتدين والمعتدى عليهم وفيها مجال للإحاطة بمشكلات الحياة الاجتماعية التي تبعث على الإجرام والاجتراء على الحقوق والحرمات، كما تبعث أحيانا على التعاون لمنع الجريمة أو على التواطؤ المقصود وغير المقصود، لتيسير الإفلات من جرائرها، وفيها مجال فسيح لشرح العواطف الإنسانية التي يثيرها البعض كالقلق والانتقام .. فلا عيب في موضوع القصة البوليسية على إطلاقها، وإنما يعرض لها العيب من سوء التأليف كما يعرض لكل موضوع بطريقة المؤلف للتهويل والتلفيق" [٣٣]

---

[٣٢] - العقاد ، اليوميات ، ج ٢ ، مرجع سابق ، ص ٤٤٠.

[٣٣] - العقاد ، اليوميات ، ج١ ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥-٢٥٦.

فهو يرى فوائد القصص في إثارة الوعي بمشكلات المجتمع وغرس بعض المفاهيم والقيم لدى الصغار ، أما إذا كانت القصص بعيدة عن الواقع، فهي تفسد خيال الطفل وتجعله يحيا حياة الكسل والتواكل، يقول العقاد : " فكثير من أقاصيصنا مثل (شبيك لبيك) ، وبساط الريح وطاقية الإخفاء، وقضيب السحر ومسحوق الكيمياء ، وغيرها ، مما يرد في ألف ليلة وليلة، والأحاجي التي يقصها عجائزنا على أسماع صغارنا قبل أن نفتح لهم أبواب الآمال، فينشأون على التراخي والتواكل، وترك تحقيق أمانيهم إلى الصدفة والاتفاق "[34]

ومن ثم العقاد يرى أن " قصص الخيالات الشعرية ، الأساطير الدينية، مستطابة في موضعها محترمة في عقر دارها، ولكنها متى تعدت مرة منطقة وخاطرت بنفسها إلى منطقة الحقائق، فعقابها الإعدام ودمها هدر "[35]

جرائم الأطفال : يبرر العقاد تزايد جرائم الصغار وكثرتها بكونها حوادث مألوفة وقعت مثلها في كل الأزمان والعصور، ولكن نظرا لظهور وسائل النشر والإعلام فقد أذاعت المشكلة وضخمتها "هؤلاء الصبية المساكين وأمثالهم قد وجدوا في الأزمنة الماضية ولم يكن وجودهم مقصورا على الزمن الحاضر .. وربما كان العلم بحوادثهم أشيع وأدنى إلى اهتمام الناس ، لأن الصحف التي تنشر أخبارهم لم تكن معروفة في عهود الأجداد والأسلاف وليس من الجائز فيما نعتقد أن يوصف الحادث بالغرابة مادامت له أسباب يرجع إليها ، ومادامت هذه الأسباب قائمة أمامنا وهي مع الأسف قائمة ملموسة فيما حولنا " ثم يضيف العقاد ويحلل أسباب الانحرافات ودوافعها التي تكمن في " منشئها في بيئة المنزل أو بيئة المدرسة أو بيئة المجتمع الواسع أو بيئة العالم كله .. فالبيت ينشأ فيه الطفل محروما من عطف الأمومة لأنه فقد أمه بالموت أو بالطلاق .. والبيت الذي يعيش فيه الطفل معذبا بقسوة الضرائر أو أشباه الضرائر من

---

[34] - العقاد ، خلاصة اليومية ، مرجع سابق ص ١٤.

[35] - المرجع السابق ، ص ١٠٣.

ربات البيوت والبيت الذي يموت عائلة ويعيش فيه الطفل مع أم عاجزة عن تربيته وكبح عوامل الفوضى والشر في نفسه، والبيت الذي يضيع فيه السلطة المحترمة لضعف الأب واستسلامه أو لإسراف سوء تدبيره وهجره لأهله وأبنائه. أو البيت الذي يعش فيه الطفل بين أبوين يعطفان عليه ويتماديان في استجابة مطالبه، مبالغة في العطف عليه .. والخطأ في التعليم أيضا سبب تضيفه المدرسة إلى أسباب البيوت التي تنشئ الأطفال المجرمين .. فالتعليم أصبح آليا تنقطع فيه الصلة الروحية بين الأساتذة والتلاميذ .. وتتحول العلاقة الروحية في محراب الثقافة والهدى إلى علاقة تجارية كتبادل السلع في الأسواق، .. وهذا العالم يشقى بأوزار الحروب ومفاسد الأزمات ومفاجآت التقلب والبغضاء ... فلا يخرج الطفل المجرم أو الطفل المسكين إلى عالم يهديه ويرده عن ضلاله ولا يجد في هذا العالم ما فقده من عطف البيت أو إرشاد المدرسة بل يجد العالم معتركا ضروسا لم يتدرع له بدرع واقيه ولم يتحصن بحصن منيع .. هذه بعض لمناشئ السوء التي تنشأ فيها جرائم الطفولة الآثمة، والطفولة تجنى عليها الدنيا وهي جانية "[36]

قد وضح لنا العقاد الأسباب التي تدفع لانحراف الصغار ، والتي حددها في سوء التنشئة الاجتماعية في المنزل، والدور القاصر للمدرسة ، وفساد المجتمع المحيط بالطفل، ويقول من الخير على الأقل أن نعرف أسباب الشر لعلنا قادرون على استئصاله من جذوره .

ويقترح العقاد وضع حدود لا يتخطاها الطفل كي نصده عن انحرافه وفساده فيقول :" نعم حدود منيعة سريعة فإننا أوشكنا أن نصل إلى منطقة الخطر الشديد في (البنيارطية) حكم الطفل، أوشكنا أن نسمع بجرائم الأطفال كسمعنا بجرائم الكبار وأوشك العالم كله أن ينتبه لإقامة الحواجز بين سن الطفولة وسن الرشد في حضور التمثيل، وحضور الصور المتحركة، وحضور الملاهي والمنازه على العموم ، فضلا عن إقامة الحواجز في الكتب والمطبوعات. ولابد من هذه الحواجز المنيعة السريعة في كل مكان،

---

[36] – العقاد ، " الطفولة الآثمة " الأخبار ، ١/ ٩/ ١٩٤٧.

وفي بلادنا الشرقية على التخصيص، لأنها البلاد التي عرفت الحدود قديما بين الجنسين وبين الأعمار "[37]

أساليب التنشئة الاجتماعية : يقدم العقاد لنا صورا كثيرة ونصائح من خلال قراءته، ورؤيته الخاصة حول الطفولة ورعايتها، فينصح بالاعتدال في مسألة التهذيب، والجزاء، ومعاملة الأطفال أما الغرباء، والزائرين فيقول :"لا بأس من التشدد مع تعليم الولد، ولكن مع الاعتدال والحكمة ، فلا يرخى له العنان فيتجاوز حدوده، ولا يضيق عليه الخناق فيسأم ويتبرج ويحتال على التخلص من قيوده بكل ما يتفق له ..

أما الطفل قبل وصوله إلى دور التعليم فيحسن أن ينزع عنه الشدة بالمرة، وأن لا يمنع ألا من مخالطة أبناء السفلة من الرعاع وتطلق له الحرية فيما عدا ذلك في اللعب، وما يستدعيه من نشاط الصبيان ومرحهم مع الإشراف عليه من جانب اللين والراحة، وإرشاده على قدر ما يسعه عقله الصغير بأسلوب تنبسط لها نفسه وينشط لها حسه، ولا يظن أن لعب الطفل وهو صغير يساعده على أن ينشأ في كبره لعوبا كسولا، فان لكل دور في حياة الإنسان عملا خاصا، وعمل الطفل لعب ومرح لأن قوته لا تمكنه من تحمل الأعمال الجدية "[38]

نلاحظ أن العقاد يراعي مشاعر الطفل وأحاسيسه، ويرى أن نقدم له ما يناسبه، ويرى الابتعاد عن التشدد في تربية الصغار فيقول : "ثم أن هناك عيبا في تربية المتشددين من الآباء، ذلك أنهم يستعملون أبناءهم في وظيفة الخدم إظهارا لهيبتهم ودلالة على حسن تأديبهم ويزيدون في ذلك أمام الغرباء ليظهروا لهم مقدار طاعة أبنائهم لهم فيكلفونهم بتقديم القهوة وتوزيع اللفائف على الزائرين، وإذا قصروا في شئ من ذلك انتهروهم وأوسعوهم شتما وسبا وبهذا يوضعون نفس الولد ويضعفونها فتصغر في عينه وتكبر عليه مطالبه، ويستحيل أن يجئ ممن يربي تربية الخدم رجل حر مقدام يعرف

---

[37] - العقاد ، اليوميات ، ج ٣ / مرجع سابق ، ص ٨٧.

[38] - العقاد " ضروب التربية " الدستور / ٤/ ١/ ١٩٠٨.

واجباته عليه للناس وله عليهم ، وكان الأولى بهم إذا أرادوا تعويد الابن على احترام الزائرين أن يفهموه أن هذا من لوازم الأدب وواجب الضيف على مضيفه، فيفعله مساقا إليه بإحساس شريف بدلا من أن يساق مقصورا كأنه خادم يحرص على رضاء مخدومه عنه أو مدفوعا بعوامل جبرية تكرهه في كل ما يسمى ضيفا أو زائر فيعتاد على حطة النفس والبخل من حيث لا يشعر ولا يريد أبوه "[٣٩].

من العرض السابق نستخلص تحليل العقاد للآثار الناجمة عن الشدة في التربية، وعدم شرح أبعاد الموقف للصغار حتى يصبحوا على بينة بما يقومون به، دون أن تترك في نفوسهم عقد نفسية، كما أشار العقاد إلى ما يحدث من سوء التنشئة الاجتماعية ، وذلك عندما نخيف الأطفال من أشياء مألوفة لا ينبغي أن نخيفهم بها، فتترك في نفوسهم الرعب، وترتسم في مخيلتهم صورة كريهة لمثل هذه الأشياء. يقول العقاد : "إلى الآن يخيفون الأطفال في الأرياف البعيدة من العسكري، فيخافون من كل شئ لابس طربوش كخوفهم من العفاريت والغيلان "[٤٠]

وينتدر العقاد ويعجب لما وصلت إليه حدود التقدم والإباحية في الغرب، حيث وصل الحال بالأمهات لإهمال الأطفال وعدم إرضاعهم طبيعيا من أجل المحافظة على قوامهن ورشاقتهن، فيقول "إن الأمهات الشرعيات يسلمن أبناءهن للمرضعات الريفيات لأنهن مشغولات بحياة اللهو والأناقة في المراقص والأندية، لأن الأم تعد الرضاعة عملا خشنا لا تقبله الأناقة ولا يرضى عنه ذوق الجمال والزينة في العلية المختارة "[٤١] ثم يتساءل باستنكار ، هل هذا تقدم ؟

كما يبين العقاد ما وصل إليه الغرب، من أجل أن نتحرط، في تنشئتنا الاجتماعية لأطفالنا فيؤكد بضرورة وضع حدود بين عالم الكبار، وعالم الصغار حتى تستقيم أصول

---

٣٩ – نفس المرجع.

٤٠ – العقاد ، خلاصة اليومية ، مرجع سابق ، سابق ، ص ٨٧.

٤١ – العقاد " موجة الإباحية " الأخبار ، ٧ /٥ / ١٩٥٥.

التربية ، فيقول : "كان من الآداب المرعية في الغرب ألا يجلس الطفل على المائدة مع الضيوف الكبار، وإذا جلس، نادرا، أثناء تناول الطعام، دخل إلى حجرته بعدها وطلبوا إليه أن ينام في موعده المحدد، ولم يكن بحال من الأحوال يسمح له بالحضور أثناء تبادل الأحاديث بعد المائدة بين الضيوف من الرجال والنساء .

أما اليوم فقد لوحظ في المجتمعات الغربية أن الطفل يشترك في المائدة ولا ينصرف إلى حجرته بعد رفعها، إذا انصرف إلى حجرته وخطر له أن يعود لاستماع الأحاديث لم يؤمر بالعودة إلى فراشه، وخجل الآباء من التصريح له بسبب انفرادهم بالكلام، وهو أنهم يتكلمون في موضوعات لا يباح الخوض فيها والإصغاء إليها ، فإذا جاز ذلك للكبار فلم لا يجوز للصغار؟ وكلما حاولوا أن يقيموا الحد بين سن الإباحة وسن المنع تزحزحت السن عاما أو عامين، فما كان يجوز للعشرين أصبح مما يجوز للخامسة عشرة ثم للعاشرة ثم بلا قيود ولا حدود "[42]

ومن ثم يحذر العقاد من التهاون في مثل هذه الأساليب من التنشئة الاجتماعية غير الصحيحة، ويتحدث عن تلك الأمور وهو في عصر كان فيه الصغار وأفراد الأسرة لا يستطيع أحدا منه أن يرفع صوته في المنزل أثناء وجود الزائرين، أو أحيانا أثناء وجود الأب، ولذلك يرى العقاد أن تكون التربية صارمة، وعالم الصغار منفصل عن مجتمع الكبار وشؤونه .

رابعا : دور الأسرة والمجتمع والدولة :

من خلال ما كتبه العقاد، واطلع عليه في كتب التربية وعلم النفس، استطاع أن يحدد بعض الواجبات، والحقوق التي يجب أن توفرها الأسرة للصغار، وكان للعقاد رأيا تجاه مسؤولية الدولة ورعايتها للأبناء الذين يعانون في الأسر المتصدعة. يقول العقاد : " في فرنسا اهتمت الدولة وأهل الخير من المحسنين إلى زيادة الإتاوات التي تمنحها

---

[42] – العقاد ، " السيد المطاع " الأخبار ، ٢٨ / ٥ / ١٩٥٥.

الأديرة للملاجئ المعدة لتربية اللقطاء"[43] ويرى العقاد أن في مجتمعاتنا الشرقية لا ينبغي التوسع في مثل هذه المؤسسات، وأن تكون في حدود الضرورة، حيث أن التربية الصحيحة هي التي تتم في البيت، وأن تكون في حدود الضرورة، حيث أن التربية الصحيحة هي التي تتم في البيت، ومادون ذلك فهي تربية صناعية .

يقول العقاد :" أن المسألة كلها تستلزم التنبيه إلى حقيقة لا خلاف عليها بين المشتغلين بشؤون المجتمع والتربية، وهي أن كفالة المجتمع للأطفال المحرومين من الحضانة الصالحة ضرورة نلجأ إليها عند لزومها، ولا يصح أن نتوسع فيها أو نذهب بها وراء حدودها، فقد ثبت من التجربة أن الطفل الذي تربي في غير أحضن الأسرة معرض لخسارة نفسية وعاطفية لا يسهل تعويضها في علاقاته الاجتماعية بعد استقلاله بشؤونه، وانتقاله من حياة الأسرة إلى ميادين الحياة العامة ، فإن لم تكن حضانته في البيت أوخم عاقبة واعظم خسارة من حضانته في كفالة المجتمع، فلا موجب لهذه الكفالة التي تدعو إليها الضرورة القصوى، وتعتبر على أية حال من قبيل الحضانة الصناعية"[44].

ومن ثم يرى العقاد أن التربية السليمة هي التي يتشربها الصغار من المنزل، وفي رعاية الأم الرؤوم، ولهذا دعا إلى إعداد الفتاة إعدادا جيدا ويرى أن وظيفة المرأة في كونها أم، ولأعمال المنزل يجب أن تعد. فيقول :" لا ينبغي أن يقتصر الغرض من تربية البنت على تعليمها كيف تكون زوجة، إلا إذا كنا نعلم الفتى في المدارس ليكون زوجا ، والواجب أن نعني أولا بتعليمها ما تنشأ به لمرأة قادرة على النهوض بنصف أعباء الهيئة الاجتماعية ، فإن العشرة الزوجية ليست حرفة يتلقى الطالب أسرارها في

---

[43] - العقاد ، "اليوميات" ج ٣ ، مرجع سبق ، ص ٥٩٧.

[44] - العقاد ، " الحضانة " الأخبار ، ٢٥ ، ١ ، ١٩٦١.

دور التعليم ولكنها عمل كسائر أعمال الحياة يحسنه الإنسان أو لا يحسنه بمقدار ماله من الحذق والاختيار "[45]

والعقاد يوافق الكاتبة السويدية (ألن كي) بأن يفرض نوع من التربية للفتيات مثل التدريب على وظائف الأمومة بين مدارس الأطفال وملاجئ المرضى ومستشفيات الولادة، ومعاهد الفنون الجميلة وما هو من هذا القبيل "[46]

ويؤكد العقاد أن دور المرأة الأول هو تربية الصغار وأعمال البيت فيقول :" فميزان حقوق المرأة هو واجباتها الخاصة ، وواجباتها الخاصة هي الواجبات التي تحسنها ولا يحسنها غيرها ولا تحسن عملا أفضل منه، وهي الأمومة ، وتنظيم الحياة البيتية، عمل إذا تركته لم يخلفها الرجل عليه ولم تتول عملا آخر أجدر منه بولايتها "[47] فيميل العقاد إلى ضرورة تفرغ الأم لرعاية الصغار في المنزل، وألا تضحي بالبيت سعيا وراء العمل، يقول :" فالأمر الذي لا منازعة فيه أن المرأة خلقت للأمومة وصلحت لتربية عواطف الأسرة، فلا يحسن بالمجتمع أن يضطرها إلى التخلي عن مكانها في الأسرة، وأن يلجئها إلى التضحية بالبيت سعيا إلى الرزق أو اشتغالا بأعمال يغني فيها الرجل عنها "[48]

ويشير العقاد إلى وجوب رعاية الأطفال الذين يعيشون مع زوج الأم، أو مع زوجة الأب، فيخص حديثه هنا عن الأطفال الذين يرعاهم زوج الأم فيقول : ينبغي أن يكون مفهوما بالبداهة عند الكلام عن حضانة الأطفال الصغار الذين فقدوا وسائل الحضانة الصالحة في الأسرة، فلا يجوز التفاوت في شرعة المجتمع بين طفل وطفل يحتاجان على السواء إلى كفالة الأب وتعرضا لعواقب الإهمال والقسوة من الأزواج

---

[45] – العقاد ، خلاصة يومية ، مرجع سابق ، ص ٢٩.

[46] – العقاد ، الفصول بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ ، ص ١٩٥

[47] – العقاد ، هذه الشجرة ، القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٨٠ ، ص ٩٣.

[48] – العقاد، " الأسرة والمرأة " المجلد العاشر ، مرجع سابق ، ص ٣٨٧

والزوجات، وإذا صح أن يتصدى المجتمع لحماية الابن من أعمال الأب، فهو أحق بحماية الطفل من إهمال زوج أمه وقسوته، وليس من المعقول أن يترك طفل كهذا لكفالة زوجه هي نفسها معولة على كفالة الزوج الذي لا تطالبه الشريعة برعاية أطفال غير أبنائه "[49]

وعندئذ يقترح العقاد الحل بأن تتولى الدولة رعاية الأبناء، في مثل هذه الحالات، ويقدم هذا الرأي عندما سئل عن رعاية زوجة الأب لأبنائه فيقول : نود أن نسأل لهذه المناسبة، أما من شئ يعمل لحماية الأطفال الصغار الذين تموت أمهاتهم ويتزوج آباؤهم بغير أولئك الأمهات. هل من الحق أن يقال أن المجتمع لا يملك أن يعرض الآباء لمتاعب العزوبة ولكنه يمكن أن يعرض الأطفال لمتاعب القسوة والتعذيب وهم أهم بحمايته من الراشدين المسؤولين؟ أليس المجتمع هو الضحية التي تبتلى بنتائج تلك القسوة من الإجرام والانحراف وفساد الخلق واعوجاج الطوية، حين ينمو أولئك الأطفال في جو النقمة والأذى ويفقدون الأصل في الرحمة والإنصاف يأسا من رحمة الأب وإنصاف الأقربين ؟

شيء لابد أن يعمل، وما ينبغي أن يعمل ولا حرج فيه، أن يثبت الأب الراغب في الزواج قدرته على تدبير أمر الحضانة النافعة لأطفاله، ولو كانت هذه الحضانة موكولة إلى المجتمع يتولاها في مدرسة خاصة تؤتمن على الطفل الذي فقد الأقربين القادرين على حضانته، وفقد الأصل في الحضانة الصالحة مع زوجة أبيه "[50]

نجد أن العقاد تخطى هنا دور العائلة ، ورعاية أحد الأقارب المقربين لهؤلاء الأطفال، أما إذا انقطع السبيل دون ذلك، فلا مناص مما يقترحه العقاد في كفالة الدولة للأطفال ، في مثل هذه الحالات، أما وكل شيء نوكله للدولة في رعاية وتربية الأبناء الذين فقدوا الوالدين، أو أحدهما فإننا نرى أن العقاد مبالغ في ذلك وكأننا في دولة

---

[49] – العقاد، " الحضانة " ، الأخبار ، مرجع سابق

[50] – العقاد، " الأطفال في رعاية زوجات الأب " الأخبار ، ١١/ ١/ ١٩٦١

اشتراكية، حيث يقول العقاد : " نعم على الوالد أن يربي ولده ، وله أيضا أن يعينه على إنشاء مستقبل له في الحيـــــاة، فليكن الأمر كذلك فليس في هذا نزاع، فإذا مات ذلـك الأب لتقم الحكومة مقامه فتتولى تربية ولده، تمده متى حان له أن يعمل لنفسه بما يبدأ به عملا من الأعمال، ولتتركه بعد ذلك يلاقي ما يستحقه بجدارته من نجاح أو فشل "[51]

بالطبع لا ينسجم هذا الرأي مع مجتمعاتنا الشرقية التي تعطي للعلاقات الإنســانية والاجتماعية دورا هاما فيها .

* **اللعب وأهميته للأطفال :** يرى العقاد أن اللعب وعادات الفراغ هامة جدا فـــي دلالتها الاجتماعية، ودلالتها النفسية، وقد يكون منها ما هو أهم من دراســـة الأعمـــال الجدية .[52]

ويفرق العقاد بين معنى اللهو، واللعب، فيعرض وجهة نظره من خلال مطالعاتـــه لكتب الدراسات النفسية، ومن ثم فهو يعكس رؤية علم النفس والتربية الحديثة فيصيغـها بأسلوبه الأدبي فيقول : " قد يكون معنى اللهو ومعنى اللعب قريبا من قريب في أصـول الوضع اللغوي، ولكنهما يختلفان اختلافا كبيرا بعد عرضهما على الدراسات النفسية لأن اللهو يقابل العمل، ولكن اللعب يقابل الجد، وقد يكون عملا مطلوبا كالأعمال الجدية فـي موضعه الذي يصدر عن بواعثه النفسية أو تبعثه طبيعة الحياة في جميع الأحياء .

فاللهو يصرف الناس عن عمل أهم منه وأولى باشتغاله، ولكن اللعب شـــاغل لا يصلح الانصراف عنه عند انبعاثه من دوافع الطبع السليم كألعاب الفروسية، وألعـــاب الرياضة، وألعاب الفنون الجميلة عامة، وكل لعب يشترك فيه الناس علـــى اختـــلاف الأعمار والأمزجة والأجناس، ويقرر علماء النفس أن اللعب ينبعث من دوافع طبيعيـــة كثيرة : فقد يصدر عن رغبة في تصريف الحيوية الفائضة، أو يصدر عن رغبة فـــي رياضة الغرائز العدوانية لتصبح من المألوفات المأنوســـة التي يستفيد منـــها الغـــالب

---

[51] - العقاد ، **خلاصة يومية** ، مرجع سابق ، ص ٨٦.

[52] - العقاد،، **اليوميات** ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٢٠٠. الأخبار ٩/ ١١ / ٥٩

والمغلوب، أو يصدر من المألوفات المأنوسة التي يستفيد منها الغـالب والمغلـوب، أو يصدر عن الوعي الباطن كما تصور الأحلام التي يحقق بها الإنسان ما يفوته في عـالم الواقع من الشعور بالغلبة والامتياز، أو يصدر عن حاجته إلى التدرب على الحركـات النافعة له في أعمال الحياة لأنها تعينه على النشاط وحسن التناول وتسديد الأعضاء إلـى أغراض وظائفها الجدية، ولا فرق في أداء هذه الأغراض بين ما تتجزه لعبا وما تتجزه جدا لمصلحة العقل والجسد " . [٥٣]

يشرح العقاد فوائد اللعب ودوافعه بأسلوبه المتميز ، وهو يعرض ما للعب مـن فوائد في إعلاء الرغبات، وترويـح عن النفس، وهي رؤيـة تربوية صحيحـة. ولذلك يؤكد العقاد على أهمية اللعب للصغار فيقول : " الطفل في ذلك الدور يحتاج إلى اللعب كما يحتاج إلى الرضاع من قبله، ثم يتدرج في ذلك بما يناسب قوته ويجري مـع نموه حتى يصير رجلا فيكون له ما للرجال وعليه ما عليهم ولا يظن أن لعب الطفـل وهو صغير يساعده على أن ينشأ في كبره لعوبـا كسولا فإن لكـل دور فـي حيـاة الإنسان عملا خاصا ، وعمل الطفل اللعب في المرح "[٥٤]

* جوانب أخرى حول الطفولة: يعتقد العقاد أن الطفل الصغير وعالمه هو الـذي يتحكم في الدنيا، وقد يكون العقاد مبالغا في ذلك حين يقول : " إن هناك شـيئا يسـمى حكومة الطفل، وليس المقصود بالبداهة نوعا من الحكومة يتولاه الطفل، وتناط به أعمال السياسة والإدارة، وإن المقصود به سلطان الطفل في الأسرة والمجتمع، وأنه يسـيطر على الدولة من حيث لا يدري ولا يريد، كان بعض الطغاة من اليونان الأقدمين يشـير إلى طفلة الصغير ويقول : إن هذا الولد يحكم اليونان، وإذا سئـل عما يعنيه قـال : نعم أنه يحكم أمه، وأمه تحكمني، فلا ردا لما يشاء. وهذا هـو المعنـى المقصـود بحكومة الطفل، فإنه يلاحظون أن الطفل يملك الدلال على أبوية وعلى البيت كله ممـا

---

٥٣ ـ العقاد ، اليوميات ، ج ٤ ، مرجع سابق ، ص ٣٨٠ ، الأخبار ٢٦ ، ٩ / ٦٢

٥٤ ـ العقاد ، الدستور ، مرجع سابق ل ٤ / ١/ ١٩٠٨.

يجعله السيد المطاع في الأسرة والمجتمع ويتفاعل بعضهم بهذه الظاهرة، ويرى الآخرون أنها جاوزت حدها المعقول وهو حد الاعتدال"[٥٥].

يرسم العقاد صورة نفسية لشعور الأب نحو أبنه، يعبر عن مشاعر الأبوة التي لا تعرف للمنطق أصولا ولا للواقع حدودا فيقول : " أن الأب الذي يرى أن طفله يساوي ملايين الأطفال ويزيد عليهم ليس بالمنطقي فيما يراه، ولكنه مفهوم ومعقول لأنه يحس بشعور الأبوة، وليس من المعقول أن يكون الأب منطقيا في ا لمساواة بين طفل واحد هو وليده وبين ملايين الأطفال من خلق الله "[٥٦] .

أما صورة الأمومة فيصورها العقاد من خلال رويته للوحة من أعمال المصور الإنجليزي (دافيس) فيقول : " رأيت صورة لأم وأبن وهي صورة فرس مرضع تؤلم مهرها الصغير، فما تمثلت حين رأيتها إلا الأمومة وحنانها وتضحياتها، بغض النظر عن الأم هل هي امرأة أو فرس، أو عن الولد هل هو طفل أو مهر، ولو وضع المصور في مواضع الفرس المهر أما آدمية وطفلها لما اختلف شعوري بها في جوهره، لأنني إنما رأيت الحنان الماثل في الصورة وتجاوزت الشكل الظاهر إلى ما وراءه"[٥٧].

كما ينتقد العقاد بشدة المبادئ الشيوعية التي تهمل الجانب الإنساني ، وتضع العلاقة بين أفراد المجتمع في صورة علاقات مصلحة، وعمل وإنتاج، ويعيب عليها في كونها أفرغت الإنسانية من مضمونها ، والأبوة والأمومة من أسمى معانيها . "[٥٨].

كما يرى العقاد " أن حاجة الطفل الإنساني إلى الحضانة الطويلة لم يكن عملا من أعمال الاجتماع ، ولكنه عمل من أعمال الغريزة ولا تتوقف على آداب الاجتماع، فإن عطف الأب والأم على ولدهما أشد في كل مجتمع من عطف الولد على أبيه وأمه ، وإن

---

[٥٥] – العقاد ، اليوميات ، ج ٣ ، مرجع سابق ، ص ٥٨٣ ، الأخبار ٢٨ / ٥ / ٥٥

[٥٦] – العقاد ، اليوميات ، ج ٤ ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ ، الأخبار ١٧/ ٤ / ٦٣

[٥٧] – المرجع سابق ، ص ٢٢١ ، الأخبار ٦٣/٤/١٧ .

[٥٨] – العقاد ، الفصول ، مرجع سابق ، ص ص ١٣٤–١٣٥ .

لم تكن غريزة حفظ النوع هي الغريزة الغالبة في إنشاء هذه العلاقة لكان حب البنين للآباء كحب الآباء للبنين بل لوجب أن يختلف الأمر اطرادا إذا كان مرجع الأمر كله إلى أدب الاجتماع لأن حاجة الأبناء إلى الآباء – من الوجهة الاجتماعية – أكبر من حاجة الآباء إلى الأبناء"[٥٩].

من ثم نجد أن بعض آراء العقاد في حاجة إلى وقفة علمية موضوعية، دون أن نطلق الحكم على عواهنه، حيث توجد تعميمات في بعض وجهات نظر العقاد حين يقول : " الخال أشد عطفا من العم، لأن الرجل ينافس أخاه بأبنائه ولا ينافس أخته بهم. والعمة أشد عطفا من الخالة، لأن المرأة تنافس أختها بأبنائها ولا تنافس أخاها"[٦٠] .

فهل هذه قوانين اجتماعية؟ نحن لا نعتقد في ذلك ، فإن الطبيعة الإنسانية متباينة في طبيعتها وظروفها، ولكن قد تبدو هذه ظاهرة وملاحظة تستدعي الدراسة والتحقق.

عندما سئل العقاد، لماذا يبكي الطفل بعد ولادته ولا يضحك؟ أجاب: "لأن الضحك عاوز تعليم... فهو إلى جانب كونه ظاهرة سيكولوجية فهو ظاهرة اجتماعية ، فأنت بمفردك إذا ما قرأت نكتة لا تضحك بينما إذا كنت مختلطا بالآخرين ضحكت، فالنكتة تفوز بالضحك وسط المجاميع"[٦١].

وبعد فالعقاد يتحدث في كل شيء ، يقرأ ويتمثل ما قرأه ثم يصيغه بأسلوبه المميز، ويضفي عليه مسحة من فكره ، بنوع من الصور والأبعاد الاجتماعية والنفسية ، فيقدمها لنا رؤية قديمة في ثوب جديد ، قد نستفيد منها في معرفة نظرة العقاد تجاه الطفولة.

---

[٥٩] – العقاد ، ردود وحدود الدوحة ، دار الكتاب الحديث د.ت ص ٤٢١ .

[٦٠] – العقاد ، خلاصة اليومية ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

[٦١] – عامر العقار ، أحاديث العقاد الصحفية ، بيروت المكتبة العصرية ، د ت، ص ٩٧ ، انظر آخر ساعة ، يونية ١٩٦٢ .

خامسا : ملاحظات حول آراء العقاد تجاه الطفولة :

- مما لا شك فيه أن العقاد ليس بالمتخصص التربوي، ومن ثم لم تكن التربية لها وزن كبير في تحليلاته العميقة، إلا أن العقاد من خلال عرضه لموضوعات الطفولة، وقد لمس قضايا ومشكلات، تناولها بنظرة المصلح الاجتماعي ، فكانت له رؤية ثاقبة، وحس تربوي مصبوغ بأسلوب أدبي مميز.

- عرض العقاد دور اللعب في مرحلة الطفولة وأهميته بشكل وضح فيه دوافعه، كما بين أساليب التربية الصحيحة، في معاملة الصغار والتوسط بين الشدة واللين، وقدم لنا فائدة القصص للأطفال ونقد القصص الخرافية وحذر من عواقبها، ونبذ تشغيل الأطفال ، ودعا إلى ضرورة رعاية الدولة للصغار عندما لا يجدون حضانة لهم، وأكد على دور المرأة وهو الأمومة، وأبرز ريادة الثقافة الشرقية في الاهتمام بالطفولة في كونها تخاطب الطفل بضمير العاقل، وقدمت له قصصا على لسان الطير و الحيوان. كل هذه الجوانب هي رؤية تربوية مفيدة جاء بها العقاد ليذكرنا بها، كما أراد أن نضع حدودا بين عالم الصغار دون أن تختلط بشؤون الكبار.

- للطفولة مكان بارز في فكر العقاد حيث إنه كتب فيها نثرا وشعرا، صور من خلاله ملامح البراءة ، وعدم الثبات، والحيرة، حتى جاء وصف العقاد للحب والشوق مقرونا بصفات الطفل فقال : [٦٢]

هواك كالطفل فيه	شك يريب أباه
لا استقر عليه	ولا أطيق قلاه
ولا أزال شقيا	بقربه ونواه

[٦٢] - عامر العقاد ، لمحات من حياة العقاد ، بيروت : دار الكتاب العربي ، د. ت، ص ٢٤٤ .

- وقد أحب الأطفال وتمثل أدوارهم حتى أنه تصور طفلا قد تعبت معدته فوصف لـه الطبيب مقدارا من البيرة واستطابها وأصبح يهش لها ويؤثرها علـى الحلـوى والفاكهة فنظم قصيدة تتحدث بلسان الطـفل"[٦٣]

البيلا البـيلا البـيلا	ما أحلى " مشلب البيلا "
هاتوا البيلا واسقوني	هاتـوا البيلا داووني
مالي وما للشكولاته	تمشي لي تاتا تـاتـا
بطل مثلي هيهاتـا	بالحلوى ينسى البيـلا
البيلا البيلا البيـلا	أبدا لا أنسى البيـلا
يوم رضاعي خدعوني	بالبيلا لم يرووني
من ثدي لا تسقـوني	اسقوني اسقوني البيـلا

- بمثل هذه الأبيات تحدث العقاد الجاد، ومن هنا نقول أن العقاد كان يتقمـص الـدور ويتصور الطفل ومشاعره، فأحب الطفولة، وقد قال إنه يجب الأطفـال ويقـدر ثمنهم، ومن شدة حبه لهم رفض الزواج لكي لا يتحملوا مشاق الحياة !!!! .

- صور العقاد مشاعر الأبوة، بكل صدق، كما ركز على رسـالة الأمومـة، ودور الأسرة العام في التنشئة الاجتماعية، ورفض فكرة التوسع في الحضانات خـارج الأسرة، لأنها تربية صناعية، إلا في الضرورة القصوى، وقد حمل العقاد الأسرة والمدرسة والمجتمع مسؤولية جناح الصغار، وذكر الدوافع والأسباب، مما يجعلنا نتحوط في ذلك .

[٦٣] - العقاد ، ديوان هدية الكروان بيروت : دار العودة ، ١٩٨٢ ص ٧٦ .

- كانت رؤية العقاد في بعض جوانب الطفولة، في ضوء عصره، متقدمة حيث تناول موضوعات لم تكن مطروقة في ذاك الحين، مثل تحديد النسل، وتأثير القصص البوليسية والخرافية، وتشغيل الأطفال وغيرها .

إلا أن هناك تحفظات نرى العقاد فيها قد بالغ بشكل كبير حين صور عالم الطفولة بأنه مسيطر على الأسرة والمجتمع، وكذلك بعض التعميمات ، التي قال بها العقاد نحو عواطف العمة والخال، وكذلك ما عرضه العقاد من الدور الأكبر الذي تقوم به الدولة لرعاية الأطفال الذين فقدوا أحد الوالدين ، وأكد على أن الدولة توفر للصغار الحضانة، وترعاهم وتوجد لهم عملا حين يبلغون، وأغفل دور الأسرة الممتدة، والأقارب في رعاية الأبناء وهي سمات يتميز بها مجتمعنا العربي الإسلامي .

- كانت رؤيته لوظيفة المرأة في المجتمع، رؤية ضيقة حيث جعل المرأة للبيت، وتربية الأطفال ولا ينبغي عليها السعي في العمل أو المشاركة في المجتمع على نطاق واسع، مما يجعلنا نراه في ذلك تقليديا، جامدا، فيجب أن يترك الأمر لظروف الحياة، وواقع الحال، وطبيعة العمل الذي تقوم به المرأة، وهل كل الأعمال التي تقوم بها تمنعها من أداء رسالتها المنزلية، ورسالة الأمومة ؟

- من خلال هذه الدراسة نستنتج أن العقاد تأثر إلى حد كبير بآراء المعري، ونبذ فكرة الزواج وعدم الإنجاب حتى لا يبتلى الأبناء بمشاكل الحياة، وصعوبتها، ولا أظن أن العقاد كان قليل الكفاءة والأهلية، والمسؤولية لتحمل الأبناء، والأعباء، بل كان على درجة من الشجاعة تجعله يتحمل صدمات الحياة والموت، فلا مبرر لمثل هذا العزوف إذا كان يحب الأطفال فعلا.

- كانت للطفولة مكانة متميزة في فكر العقاد، أحبها لدرجة الخوف عليها وبالغ في ذلك، في عدم القدرة على رعايتها، فكان العقاد متناقضا في ذلك، دونما داع أو مبرر .

- كما أن العقاد قد تطابقت أفكاره ، إلى حد كبير، مع آراء الغزالي في تربية الصبي، وتهذيبه، وعدم استخدام الشدة معه أو تأنيبه أمام الغرباء أو الزائرين .

- هذا وإن كانت مشكلات الطفولة وقضاياها لم تكن جديدة بل هي مألوفـــة، وحلولـــها مقبولة معروفة ، وهي موضوعات مطروقة، إلا أننا نقدر للعقاد اجتهاده ، ومازلنا في حاجة لمزيد من الدراسات التي تبلور فكره التربوي العام، وبعض الدراســـات الأخرى المرتبطة بالتربية مثل " الطبيعة الإنسانية " و " المعرفة عند العقـــاد " و بعض النواحي الأخرى التي تطلعنا على تصوراته، وتظهر اتجاهاته مـــن أجـــل المعرفة والاستزادة.

الفصل الرابع

تدريس الثقافة الجنسية من منظور إسلامي

تدريس الثقافة الجنسية من منظور الشرعية الإسلامية*

يدور الجدل الآن حول موضوع تدريس الثقافة الجنسية في المدارس ما بين مؤيد – وهم قلة – ومعارض – وهم كثرة ولكل منهما حججه وبراهينه ٠٠ ولقد استوقفني خبر نشر في جريدة الشرق القطرية الصادرة يوم الثلاثاء ٨/٢٨/ عن أن وزارة التعليم في جمهورية إيران الإسلامية قررت تدريس مادة التربية الجنسية في المدارس لأهميتها، وأن تحظى بنفس الأهمية للعلوم الأخرى كالتربية الدينية سواء بسواء٠

وانطلاقا من هذا الخبر أحب أن أضع بين يدي القارئ الكريم قضية المعرفة بالأمور الجنسية والتي نعنى بها تحديدا العلاقة بين الرجل والمرأة في الإطار الشرعي، وهو إطار الأسرة وذلك من منظور الشرعية الإسلامية ومن خلال الأدلة الشرعية في كتاب الله وسنة رسول ﷺ تلك الشرعية الشاملة والخاتمة والتي تمتاز بالمرونة والشمول معا من هنا ٠٠ ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة شاملة ، ينظر أليه جسدا وعقلا وروحا٠ ينظر أليه من خلال تكوينه الفطري نظرة متوازنة تجمع بين متطلبات الروح والجسد ، فهو يستجيب لحاجاته ومطالبه من مأكل وملبس ومسكن وغريزة ، وفي الوقت ذاته يؤمن بالكيان الروحي للإنسان: يؤمن بأن فيه نفحة من روح الله ، ويؤمن بما لهذا الكيان الروحي من مطالب وما يشتمل عليه من طاقات فيعطيه ما يطلبه من عقيدة ومثل وأخلاقيات (وكل شيء عنده بمقدار (٨) الرعد (إلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (١٤) الملك ٠٠ إن كل ما يصيب الإنسان في الحياة من شر ، وكل ما يصيبه من قلق أو اضطراب ، أو خوف نتيجة حتمية لفقدان التوازن داخل النفس يقول الله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن إليك ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين (٧٧) القصص٠

---

*) د سعاد صالح، أستاذة الفقه المقارن، جامعة الأزهر، حديث بمجلة النفس المطمئنة. د.ت

في نطاق هذا التصوير لطبيعة الإنسان- ذكر أو أنثى- ولاحتياجاته الفطرية والضرورية لتحقيق التوازن في إشباعاته النفسية والحسية يعتبر الإسلام الغريزة الجنسية إحدى الطاقات الفطرية في تركيب الإنسان ، ويجب أن يتم تفريغها والانتفاع بها في إطار الدور المحدد لها شأنها في ذلك شأن الغرائز الأخرى ، وان الفطرة جعلت في استخراج هذه الطاقات لذة ممتعة ، ولكنها لم تجعلها هدفا للاستخراج المحض٠ومن الأهداف التي يجب أن يحفظها إخراج الطاقة الجنسية في الحياة الإنسانية:

- عقد أواصر المودة والرحمة بين الرجل والمرأة وهذا ما أشارت أليه الآية الكريمة " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا أليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٢١) الروم٠
- تكوين الأسرة ، والتي هي مبعث الراحة والوعاء النظيف الذي لتلتقي فيه إنسانية الرجل بإنسانية المرأة ، وهي مصنع الأجيال ومبعث المسئولية والمشاركة لتربية والمشاركة لتربية الأبناء ورعايتهم
- استمرار النوع وتكاثر النسل وعمارة الأرض(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون " النحل٠٠
- تحقيق الاعفاف الحسي والنفسي للإنسان من إفراغ الشحنة الجنسية (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) ثم رددناه أسفل سافلين(٥) ألا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون (٦) التين ٠٠ فالجنس هو لحظة الضعف التي يمكن للشيطان أن يتسلل من خلالها ليخرب الكون ويقلب نظام الحياة رأسا على عقب ويعطل رسالة الإنسان في الحياة (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما (٢٧) يريد الله أن يخفف عنكم وخل الإنسان ضعيفا(٢٨) النساء٠٠

قال سفيان الثوري بيانا لضعف الإنسان في الآية :" أن المرأة تمر بالرجل فلا يملك نفسه عن النظر إليها ولا ينتفع بها فأي شئ أضعف من هذا ٠ ولما كان لغريزة الجنس

هذا السلطان الطاغي على النفس البشرية فأننا نجد أن الإسلام وضع لها الضوابط وقنن لها القوانين ومهد لها الطريق ومن ذلك :

١. شرع الله الزواج كأداة لتكوين الأسرة وتنظيم إستخراج الطاقة الجنسية ، قال الرسول ﷺ ولك على جماع زوجتك أجر، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أر أتيم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر.
٢. النهي عن التبتل والرهبانية. والحث على الزواج وجعله سنة من سنن رسول الله ﷺ وقول الله تعالى: ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ألا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها (٢٧) الحديد .
٣. بيانه لأحكام البلوغ لكل من الذكر والأنثى. قوله تعالى "وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم " .
٤. وبيان التفريق بين الذكر والأنثى في المضاجع.
٥. بيانه لآداب الاستئذان المذكورة في سورة النور.
٦. بيانه للأوقات المشروعة وغير المشروعة للاستمتاع بين الزوجين، وغير ذلك من الأحكام التفصيلية التي بينت كل ما يهم الذكر والأنثى ابتداء من بلوغهما وانتهاء بارتباطهما عن طريق الزواج المشروع.
٧. وبعد هذا نتوجه بالسؤال: هل يجب احترام هذه الطاقة الإنسانية، وبيان ما يتعلق بها من أحكام أم أننا نخفي رؤوسنا في الرمال تحت دعوى العيب أو الحياء؟

أرى ضرورة تدريس مادة الثقافة الجنسية في المدارس بالضوابط الشرعية الآتية:

١. فصل الذكور عن الإناث في المدارس بعد المرحلة الابتدائية .
٢. أن تقوم لجنة مختصة من علماء الدين والنفس والاجتماع بوضع هذه المادة .
٣. أن يقوم كل جنس بالتدريس لجنسه .
٤. مراعاة السن المناسبة والصيغة المناسبة لكل سن وأرى أن يكون بداية تدريسها في نهاية المرحلة الإعدادية التي تعتبر بداية سن البلوغ والمراهقة .

تدريس الحقائق الجنسية للتلاميذ
رؤية إسلامية تربوية

تقول د. نادية يوسف كمال أستاذ أصول التربية بكلية البنات: قبل مناقشـــة فكـرة معينة في المنهج، لابد من تحديد الأهداف، بحيث نعرف ماذا نريد أن يكتسبه الطــلاب من قيم واتجاهات ومهارات.. وفي مجال تدريس التربية الجنسية من المــهم أن يقـدم الموضوع بصورة علمية، وبأسلوب غير مثير، بحيث يتعرف التلاميذ علــي الحقـائق الحياتية بلا حساسيات، وأن تكون مناسبة لكل مرحلة عمرية أو دراسية، وأن توظف في المقررات الدراسية المناسبة كالأحياء والمواد الاجتماعية والعلوم والدين واللغة العربية، ومن الضرورة بمكان ادخال موضوع التعرف علي الصحة الإنجابية أو المحافظة علـي الصحة الإنجابية، وهذا يبدأ من مرحلة ما قبل الزواج، أي من المرحلة الثانوية، بحيـث نعلم الطالب والطالبة كيف يتعرفون علي الأمراض المختلفة، والتي يمكن علاجها قبــل الزواج من أجل إنجاب أطفال أصحاء.

وباختصار فإن إعطاء معلومات عن الحياة العامة أو الجنس لأولادنا في المــدارس شيء مفيد، ولكن يجب أن يكون في الصورة المناسبة والتي لا تخرج عن قيمنا الدينيــة والأخلاقية حتى لا تكون مثيرة للنشء والشباب وتأتي بآثار عكسية قد لا يحمد عقباها.

لا توجد مشكلة: وتقول د. نادية جمال الدين مدير المركــز القومــي للبحــوث التربويــة والتنمية:: ليست هناك مشكلة علي الإطلاق في تدريس حقائق الحياة بالنسبة للأطفـــال والشباب كل حسب مرحلته العمرية، ذلك لأن الحياة لا تتجــزأ فــهي مجموعــة مــن المعارف والمهارات المطلوبة لكل إنسان طبقا لاحتياجا ــي كــل مراحــل حياتــه.. والاختلاف هنا في المستوي الذي يمكن أن تقدم به المعلومات المختلفة للفئات العمريــة المختلفة، وأحيانا تصيبني الدهشة حين تثار المعارك الوهمية، لما فــي المؤتمــرات أو علي صفحات الجرائد، حين نتحدث عن هذه الحقائق الأساسية، ذلك لأن الطفــل فــي القرية والأحياء الشعبية يعايش كثيرا من السلوكيات المرتبطة بالتكاثر والتناســل بيــن

الحيوانات والطيور، ويشاهدها عيانا وتفرح بها الأسرة لأنها تشكل جزءا من ثروتـــــها وقد آن لنا أن نعترف بأن مناقشة حقائق الحياة ودراستها لا تمثل مشكلة إلا لـــدي مـــن يريد أن يتجاهلها، فقد دأبت الطبقة المتوسطة في المدينة علي محاصرة هـــذه الأفكـــار واعتبارها عيبا وتدخل في بند المحرمات، ويفاجأ الشاب والشابة بعد ذلك بـــأن الحيـــاة تتطلب منه فجأة ممارسة ما كان محرما وممنوعا.. وهنا يحدث الارتبـــاك والمفاجـــأة والأخطاء والمشكلات التي تقبل الحل أو لا تقبل الحل.. ومن هنا أيضا فمن المقترح أن نستخدم عدة مداخل، فالدين علي سبيل المثال وتدريس الدين من الممكن أن يتيح فرصـــة لإعطاء بعض الحقائق المتعلقة بالتطور البيولوجي للإنسان، وما هو حلال وما هو حرام وأسباب اعتباره حلالا وأسباب اعتباره حراما.. وهذا يتوقف علي مرحلة العمر ونـــوع المعلومة المطلوب تعليمها للإنسان.

ويقول د. محمد الجوادي الأستاذ بكلية طب الزقازيق: أري أن يتم تدريس الجنـــس بالمدارس من خلال مادة التربية الدينية حيث يكون القائم بتدريس هذه المادة متمكنا مـــن الفقه الإسلامي في العبادات، بالإضافة إلي تمكنه من اللغة.. ولهذا يســتطيع أن يقـــرب المعاني المحظورة بألفاظ دقيقة ولا تخدش الحياء في الوقت ذاته.

أما تدريس التربية الجنسية من خلال مناهج العلوم والصحة فلا يخلو من مخـــاطر، حيث إن هذه المواد ترتبط بفصول عملية وباستخدام مصطلحات وبالحديث عن كثير من التفاصيل التي تعتبر بمثابة فواتح شهية عند المراهقين، خصوصا أن تدريس العلـــوم لا يرتبط إلا بحقائق علمية مجردة ويصعب إضفاء جوانب تربوية أو توجهات خلقية عنـــد تدريس الحقائق العلمية بصفة خاصة.

ويقول د. سعيد إسماعيل علي أستاذ أصول التربية: أتحفظ بعـــض الشـــيء عنـــد الحديث عن تدريس التربية الجنسية اليوم، لأنه مبني علي رد فعل والمفـــروض عنـــد التخطيط لمناهج التعليم أن يكون ذلك بناء علي استراتيجية وخطة مستقبلية، وليـــس لأن

هناك 'هوجة' حدثت حول بعض الأعمال الأدبية أو المسماة بالأدبية، فيدفعنا ذلك للمطالبة بتدريس التربية الجنسية وتكون المسألة مجرد رد فعل.

ولو جئنا للقضية في حد ذاتها نجد أن هذا لون من التربية أساسي وضروري لسبب بسيط جدا، لأنه يتصل بشيء فطري وغريزي أودعه الله سبحانه وتعالي في الإنسان، وهو سبب استمرار البشر.. وهناك آيات في القرآن الكريم وأحاديث للرسول عليه الصلاة والسلام تتناول بعض الجوانب، ولكن المشكلة التي تواجهنا دائما هي أي الجوانب التي نتحدث عنها وبأي أسلوب وفي أي مناسبة.

ولا أري أن تكون هناك مادة مستقلة بذاتها اسمها التربية الجنسية، لأن ظروفنا الآن وتقاليدنا التي لازالت موجودة لا تتيح هذا، ويمكن أن يكون ذلك في مجتمعات أخري.. إنما يمكن تدريس بعض الجوانب من خلال بعض المقررات القائمة بالفعل مثل البيولوجي.. وأري أن يقوم بتدريس هذه الجوانب في بعض المواد مدرس المادة نفسه، وإن كان الأب والأم في المنزل أهم من هذا وذاك، كما أن التدريج في إعطاء المعلومات وفقا للمرحلة العمرية للأبناء مهم جدا، خاصة أنه في مراحل معينة تحدث تغيرات بيولوجية عند التلاميذ وبدلا من أن يحصلوا علي معلومات خاطئة عن طريق رفاق السوء، بل ربما ينزلقون إلي بعض الممارسات بدافع الفضول فمن الأفضل للآباء والأمهات أن يكونوا دقيقي الملاحظة للتغيرات التي تحدث للأبناء ويقوموا بتوضيحها، وربما تشعر البنت بالخجل من السؤال في بعض المشكلات والتغيرات داخل الفصل، فهنا يكون البيت هو الأصح.. أما الأسس العلمية فتكون من خلال المناهج الموجودة بالمدرسة.. وعلي ذلك فالمسئولية مشتركة بين مناهج التعليم والمدرسين في المدارس والأمهات في المنزل.

مشاكلنا قليلة ويقول د. حاتم شلبي أستاذ مساعد لأمراض النساء بطب عين شمس: أنا لست من أنصار الذين يؤيدون تعليم أو تدريس الجنس في المدارس، ولا

يعني هذا أنني أمثل الجمود أو التخلف، وإنما أري أن مناقشة مثل هذه المواضيع يجب أن تتم في أماكنها لأن فيها خصوصية شديدة ويجب ألا تدرس علي 'الملأ'.

ولو افترضنا جدلا أن النية حسنة في تعليم الجنس في المدارس، فإن النتيجة تكون غير محمودة علي الإطلاق وخاصة أن كل الأبحاث والدراسات العلمية التي قامت بها جامعة عين شمس وطنطا والقاهرة في هذا المجال أكدت أن مشاكلنا الجنسية أقل بكثير من مشاكل دولة متفتحة ومتقدمة مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي تتمتع بالحرية ومناقشة كل قضاياها علي الهواء!

تدريس الجنس.. بشرط : المعلومة، واكتساب الخبرة تكون في مرحلة الطفولة المتأخرة والتي تتراوح ما بين سن التاسعة إلي الثانية عشرة من عمر الطفل، ففي هذه المرحلة العمرية يستطيع الطفل التمييز بين الصواب والخطأ، ويكون الطفل قد اكتسب فيها مبادئ الدين من خلال الأسرة والمدرسة والمجتمع، ومن خلال ذلك يصبح لديه الذات العليا الإنسانية التي تعرف بالضمير الإنساني، فيخشى الخطأ من زلات اللسان والكذب، ويعي الصواب من الخطأ، ومن هنا نستطيع أن نعطي له بعض المعلومات الأولية عن التطور الإنساني واختلاف الجنس بما لا يخدش الحياء، بوسائل تبرير وتفسير من خلال الأسرة والمدرسة، وتكون المواجهة والمصارحة والمكاشفة بما لا تجعله مترددا أو خائفا أو تنتابه الرهبة من مجرد ذكر كلمة الجنس أمامه.ونوصي الأسرة بأن تقدم المعلومة للطفل من خلال 'المجهر الأسري' أي المتابعة الأسرية.

ولابد من تنمية الوعي الصحي النفسي الاجتماعي لأبنائنا في مرحلة الطفولة المتأخرة بوسائل إشارية وتوضيحية، حتى لا يصدم في مرحلة المراهقة التي تلي مرحلة الطفولة المتأخرة، ويصبح لديه تمهيد قبل مرحلة النضج لكثير من التطور الهرموني والبيولوجي المصاحب بالتغيير الجسماني له.

المراحل العمرية: يقول د. محمد غانم أستاذ الطب النفسي بجامعة عين شمس: قبل تدريس الجنس في المدارس يجب أن يكون هناك من يستطيع أن يجيب علي كل أسئلة

الطفل بشكل علمي واضح وصحيح، وتبدأ بالإجابات المبسطة للمعلومة دون الدخول في التفاصيل.. وقبل أن نقرر تدريس الجنس في المدارس علينا بتدريب القائمين علي تدريسه قبل قيامهم بهذه المهمة الصعبة، وكلما تقدم الطفل في عمره، كانت قدرته علي الفهم أسرع، لأنه يلحظ علي نفسه التغيرات الجسدية التي تجعله يعي مشاكله بسهولة ويفهم التحولات والتغيرات التي تحدث له.. أما طفل الابتدائي فإن أقصي سؤال يمكن أن يطرحه هو من أين جئنا.. وعلي القائم بالتدريس له أن يشرح له فكرة البيضة والكتكوت أو البذرة والشجرة. أما في مراحل التعليم الثانوي فإنهم في الغالب يدرسون في علم الأحياء بعض المعلومات عن الفرق بين الجنسين.

وإذا لم نعط أولادنا معلومات صحيحة عن حياتهم الجنسية، فإنهم قد يبحثون عنه بطرقهم الخاصة التي قد تجلب عليهم المشاكل بدلا من حلها، أو قد يصاب بمخاوف تظل تلازمه طول حياته وقد تفسد عليه حياته المستقبلية، أو التي قد تمنع البعض من الاستمتاع بالزواج.. وخاصة أن الكثيرين يمتنعون عن طرح مشاكلهم الجنسية كنوع من الحرج الاجتماعي والخجل.

وأفضل أن تكون هناك مناهج في المرحلة الجامعية مرتبطة بالثقافة الجنسية، فالشباب يكون أكثر نضجا واحتياجا لهذه المعلومات وخاصة أن هناك زيجات تتم أثناء التعليم الجامعي.

الثقافة الجنسية: وتقول د. سعدية بهادر رئيس مجلس إدارة جمعية أحباء الطفولة: اعتقد أن تدريس الجنس في المدارس يعتبر ضرورة في الآونة الأخيرة، حيث إننا نعيش في عالم مفتوح السموات، وفي قرية صغيرة بالنسبة للعالم المحيط بنا، والطفل يشاهد ويسمع كل شيء وكل ما يتعلق بالجنس من خلال وسائل الإعلام وبالتحديد من التليفزيون الذي ينقل له أي معلومة بلمسة واحدة من إصبعه.

وثقافتنا العربية والدينية والخلقية تعتبر الجنس نوعا من 'التابو'، بالنسبة لنا ونحن نعرف جيدا أن كل ما يراه الأطفال ممنوعا يصبح لديهم 'مرغوبا'، فالطفل دائم البحث

عن الغريب والمجهول، وكله شوق لمعرفته وبدلا من أن نتركه يكتشف الجنس من خلال ثقافات غريبة وجنس مشوه من خلال الإنترنت وما أكثر مواقعه عليها، فإن من واجبنا إرشاده وتوعيته بالأسلوب العلمي الصحيح.. الذي يتماشى مع عاداتنا وتقاليدنا ودينننا.. وأجد أن من الضروري البدء في تدريس الجنس قبل بداية مرحلة البلوغ بالنسبة للطفلة الأنثى من عمر تسع سنوات، أما بالنسبة للطفل الذكر فيفضل أن يبدأ من عمر الحادية عشرة، وذلك بتعريفهم بخصائص نموهم وما يحدث بداخلهم من تغييرات فسيولوجية وجسمانية تؤهلهم وتعدهم للنضج الجسمي، الذي يهيئهم في المستقبل للزواج الناجح.

وتدريس الجنس بهذه الطريقة العلمية المنضبطة يساعد علي إنجاح زيجات كثيرة، نسمع عن فشل الكثير من العلاقات الزوجية في بداية الزواج بسبب المشاكل الجنسية، وهذا يؤكد رد فعل مباشر لمعلوماتهم الخاطئة أو المشوشة عن الجنس.. والمشاكل الجنسية أحد عوامل الطلاق المبكر في مجتمعنا والتي بلغت نسبتها ٤٠ % بين الشباب، لأن معظم مصادرهم في تعلم الجنس للأسف نابعة من أفلام السينما أو الصور. إن تدريس الجنس في المدارس ضرورة، يجب أن يقوم بها المتخصصون في علم الفسيولوجي 'علم وظائف الأعضاء' والبيولوجي 'علم الأحياء' والسيكولوجي 'علم النفس' حتى يمكن أن نؤهل شبابنا لحياة خالية من المشاكل التي تنتج عن الجهل الجنسي.

ويقول د. إبراهيم مطاوع عميد عمداء كليات التربية في مصر: الجنس يمثل محورا مهما من محاور حياة الإنسان، خاصة وأنه مرتبط بالنمو النفسي والجسمي بدءا من الطفولة إلي المراهقة والبلوغ والشباب ومختلف مراحل العمر، ومن الطبيعي أن نهتم به لأن أطفال اليوم هم شباب الغد، وسوف يصبحون بعد فترة آباء وأمهات، وسوف يكونون أسرا، ولابد لهذه الأسر أن تعي المفاهيم والمعلومات والقيم المتضمنة في العلاقات الجنسية القانونية السليمة.. وكذلك المعلومات المتعلقة بالأمراض الجنسية التي لابد للفرد أن يتجنبها حفاظا علي صحته وعلي حياته، وحفاظا علي استقراره العائلي،

فضلا عن أنه لابد وأن يعرف الفرد بعضا من الناحية التشريحية للأعضاء الجنسية، وأن يتجنب الأمراض المترتبة علي العلاقات الجنسية غير السوية.

وينتقل د. إبراهيم مطاوع إلي قضية أخري لابد وأن نتناولها بالتوضيح لأبنائنا عند تدريس الثقافة الجنسية لهم في المدارس، والتي يمكن فيها أن نوضح لهم المحاذير الجنسية وأن نشجع تدريس هذه المقررات منها عدم زواج الأقارب، والتركيز علي زواج 'الأباعد' بعد أن ثبت في علم الوراثة أن زواج الأقارب يظهر العيوب الوراثية.. وهناك أيضا العوامل التي تؤدي إلي الإجهاض المتكرر، نتيجة اختلاف الدماء بين الزوج والزوجة، ولهذا لابد لنا أن نعمل علي تقريب مثل هذه الموضوعات التي نعتبرها شائكة إلي أبنائنا لأنها ليست من المحرمات.. كما أن مواجهتها بالمعرفة أفضل من أن يلجأ الفرد سواء كان ولدا أو بنتا إلي أساليب تحتية أو سرية تؤدي إلي عواقب وخيمة بالنسبة لمستقبل الولد أو البنت أو مستقبل الأسرة.

ويكشف د. مطاوع عن قضية أخري لابد أن نقدمها لأبنائنا عند تدريس الثقافة الجنسية لهم في المدارس، وهي أهمية الكشف الدوري عن الأمراض الجنسية، لأن الاكتشاف المبكر لمعظم الأمراض الجنسية يؤدي إلي عدم وجود مضاعفات يكون فيها خطر علي حياة الذكر أو الأنثى أو الأسرة عموما لأن مرضا مثل الزهري علي سبيل المثال يؤدي إلي الجنون.

وعن كيفية تدريس هذه الثقافات الجنسية في ا لمدارس خاصة أن هناك حساسية شديدة عند تناولها سواء من جانب المدرسين، أو تلقيها من جانب التلاميذ، يقول د. إبراهيم مطاوع: يمكن أن نبدأ بالبسيط جدا، وهو النبات، وكيف تتزاوج النباتات، وكذلك الطيور أو الحيوانات المنزلية المستأنسة مثل القطط والكلاب.. والطيور مثل الدجاج والبط والأوز.

ويؤكد د. مطاوع في النهاية: لست مع الرأي الذي يقول إن مجتمعنا غير جاهز لمثل هذه الثقافات التي لابد منها لكي يعيش الفرد حياة جنسية مستقرة.

استراتيجية متكاملة: أما د. محمد عبد السميع عثمان عميد كلية التربية بجامعة الأزهر فيؤكد أنه مع تدريس الثقافة الجنسية للتلاميذ خاصة أنها تدرس في الجامعة من خلال تناول مراحل النمو المختلفة ابتداء من المراهقة المبكرة وحتي المراهقة المتأخرة والرشد بتفصيلاتها المختلفة من حيث تغيرات النمو من الناحية البيولوجية ومتطلباتها الاجتماعية والثقافية وأساليب مواجهتها.. كما أن تدريس مثل هذه المواد ليس مقصورا علي جامعة الأزهر فقط، ولكن في جميع الجامعات المصرية خاصة في كليات التربية والآداب.

ويضيف: غير أن الأمر قد يختلف تماما بالنسبة لمراحل النضج فيما قبل الجامعة، خاصة أن هناك ثمة افتراضية أن الأسر ليست كلها علي المستوي الثقافي الذي يمكن أن يساعد علي فهم هذه الثقافة، ولذلك فإن التفكير في بث أي ثقافة متعلقة بمراحل النمو في مراحل التعليم الإعدادي والثانوي تتطلب بناء استراتيجية تربوية متكاملة تتكاتف فيها جهود العلماء، ليست فقط في علم النفس والاجتماع والتربية، ولكن في كل الوسائط التي تبث خبرات تربوية مثل الوسائط الإعلامية، حتي يمكن تهيئة الأذهان لفهم متكامل لطبيعة وخصائص مراحل النمو وأساليب مواجهتها.. وأيضا بناء استراتيجية تتضمن توجيه الأسرة وتوعيتها ومدها بالأساليب التي يمكن أن تتغلب علي مشكلات النمو وبخاصة في مرحلة المراهقة المبكرة، وكذلك في ضوء المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها المجتمع، لأن هذه المتغيرات أيضا لها أثر لا يمكن تغافله في التوجيه والإرشاد.

ولذلك فقبل أن نفكر في إعداد مثل هذه البرامج وتلك المناهج، فلابد من التفكير في استراتيجية تربوية متكاملة تتكاتف فيها جميع الجهود، وتتعاون فيها جميع أطراف العملية التربوية ومنها الأسرة والوسائط الإعلامية والأندية والمسجد وجميع المؤسسات التي تبث خبرات تربوية مباشرة.

حسب الفئة العمرية: ويؤكد د. محمد أمين المفتي عميد كلية التربية بجامعة عين شمس: الثقافة الجنسية للشباب لازمة وضرورية في مختلف الأعمار، بحيث نقدم لهم بطريقة علمية حسب الفئة العمرية التي تقدم لها هذه المادة.. وهناك دول كثيرة تدخل ضمن مقرراتها الثقافة الجنسية مثل بريطانيا والولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية الأخرى.. وهذه الثقافة تزود الشباب بالمعلومات العلمية في هذا الشأن، وحتى نقي الشباب من أي مصادر أخري غير علمية تعطي لهم معلومات قد تكون غير سليمة أو تثير فيهم الغرائز.

ويري عميد تربية عين شمس أن تقديم الثقافة الجنسية في التعليم قبل الجامعي ينبغي أن يكون متدرجا بدءا من المرحلة الإعدادية.. كما ينبغي أن تشارك مؤسسات التعليم غير النظامية في تكامل هذه الثقافة لدي الشباب، بمعني أن تقوم وسائل الإعلام بدورها، وأن تقوم دور العبادة بدورها خاصة في الجانب الديني، وأن تقوم الأسرة أيضا بدورها في هذه التربية.

تصحح المفاهيم: ويقول د. حامد زهران أستاذ الصحة النفسية: التربية الجنسية جملة تبدأ بكلمة 'تربية'، وهذه التربية يقوم بها المربي سواء كان معلما أو والدا أو إعلاميا أو طبيبا، وهي نوع من التربية يمد الأفراد بالمعلومات العلمية والاتجاهات السليمة إزاء المسائل الجنسية بما يتناسب مع نموه، فما يصلح للطفل لا يصلح للمراهق ولا يصلح للشيخ.. ولابد لهذا النوع من التربية أن يتم تناوله بما يتفق مع إمكانات النمو العقلي والانفعالي والنمو الجنسي للفرد بهدف تحقيق التوافق الجنسي ومواجهة المشكلات الجنسية، وهذا موجود في كل مراحل التعليم وفي كل جوانب الحياة.. والأهداف التربوية من وراء ذلك هي التزويد بالمعلومات الصحيحة وتعليم الألفاظ العلمية المتصلة بالسلوك الجنسي، وإكساب الفرد التعاليم الدينية والقيم الأخلاقية الخاصة بالسلوك الجنسي، وتنمية الضوابط الإدارية للدافع الجنسي، والوقاية من أخطار الأخطاء والتجارب الجنسية.

ويؤكد د. زهران: وعلينا كمربين أن نعرف أن الأطفال يصلهم معلومات من زملائهم في المدرسة والشارع.. وقد يقرأون كتابها أفكار مشوهة، وقد يطلعون في عصرنا الحالي علي مصادر في الإنترنت، وهناك مواقع رهيبة وبالآلاف وهناك أيضا 'الدش' وما يأتي به من قنوات، ولابد أن نسلح أطفالنا ضدها.

وإذا أردنا أن نقدم مثل هذه الثقافة الجنسية في المدرسة فهناك أفلام ووسائل تعليمية متخصصة معدة خصيصا لذلك يمكن عرضها، وأن نناقش الطلاب فيها بعد ذلك. ويؤكد د. حامد زهران: أهم ما يجب علي التلاميذ أن يعرفونه هو الفروق بين الجنسين منذ الصغر والتكاثر.. ولهذا لا أحد يعلم السلوك الجنسي بشكل مباشر.. ولكن نعلمهم آداب السلوك الجنسي. إن أقرب العلوم للتربية الجنسية هي التربية الدينية، لأن الدين يعترف تماما بالغريزة الجنسية وينظم السلوك الجنسي تماما من الناحية الدينية قبل أي شيء آخر، ولهذا فالمفروض أن نهتم بتعليم أحكام الدين.. وحدود الله فيما يتعلق بالسلوك الجنسي والحلال والحرام فيه.. ومن هنا سنجد أن الإطار الذي نتحدث عنه سوف يؤدي إلي نتائج أفضل من إهماله.. لأن تقديم التربية الجنسية للتلاميذ قد أصبح ضرورة في الإطار العام للتربية والتعليم.

رأي الدين الإسلامي:

ويقول د. عبد العظيم المطعني أستاذ الشريعة بجامعة الأزهر: أنا ضد الاتجاه أو الدعوة التي تنادي بتدريس 'الجنس' للطلاب في مراحل التعليم المختلفة في إطار مادة مستقلة اسمها 'التربية الجنسية'، لأن هذه الدعوة ستؤدي إلي تنبيه الأطفال مبكرا وتشوقهم لممارسة هذه الغريزة، وسيترتب علي هذا الأمر بطبيعة الحال كوارث كثيرة. وإذا كان البعض يبرر دعوته لتدريس مادة التربية الجنسية للطلاب بأنهم في حاجة لتوسيع مداركهم خاصة وهم يشاهدون القنوات الفضائية ويعيشون في عصر الفضائيات المفتوحة والعولمة، فإن هذا الأمر مردود عليه بأن البشرية الآن قد بلغت عمرا طويلا بدايته غير معروفة وما احتاجت إلي تخصيص مادة للتربية الجنسية.. وأري أن هذه

الدعوة هي مخطط من مخططات العولمة التي بدأت في مؤتمر السكان بالقاهرة. والقرآن الكريم في آياته لم يتعرض للجنس وإنما يخاطب الأزواج في مسألة الجماع ولم يخاطب النشء أو الأطفال، ويخاطب الزوجات، أما أن ندرس المواد الجنسية للطلاب الصغار فهذا خطأ كبير لأن فيه تدميرا أخلاقيا لهذا الجيل والأجيال القادمة.

ويقول الشيخ فوزي فاضل الزفزاف رئيس لجنة حوار الأديان بالأزهر الشريف: قبل أن نتحدث عن ضرورة تدريس الجنس في المدارس فلابد أن نحدد ما هو المقصود بالجنس أو مادة التربية الجنسية قبل أن نطالب بتدريسه في المدارس، ولا داعي لخلط الأوراق، فالقرآن الكريم أو الفقه الإسلامي لا يوجد فيه جنس إنما هي أحكام شرعية تتعلق بالحيض والنفاث والجماع في عبارات راقية مهذبة كما قال تعالي 'أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلي نسائكم' هل يعد 'الرفث' هنا جنسا..!؟

إن الفقه الإسلامي عندما تعرض لهذه المسائل تعرض لها في حياء شديد وتناولها بهدف تعريف الناس بالشروط الصحيحة والتي تؤدي في النهاية إلي العبادة بطريقة صحيحة وسليمة.

ويري د. محمد المسير أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، أن جميع المسائل الخاصة بتشريح الجسم حتى الأعضاء الجنسية موجودة في المناهج التعليمية، وعمليات التكاثر والإنجاب ومسائل الجماع والحيض موجودة أيضا في المناهج الدينية.

ويقول د. أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر: أنا لست مع تخصيص مادة للتربية الجنسية، بل أنا مع النظام التعليمي الذي يسير عليه الأزهر الشريف في تدريسه للمسائل المتعلقة بالجنس من أحكام كالتي يتناولها كتاب الطهارة وآداب المعاشرة الزوجية.. فكل هذه الأمور تناولها الفقه الإسلامي بأسلوب راق كما تناولها القرآن الكريم وسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم.. أما إذا درست هذه المواد بالشكل الذي تدرس به المواد الأخرى فسيكون لهذا الأمر آثار سلبية وتعبيرات استفزازية مثيرة قد تؤدي إلي نتائج غير مأمونة العواقب.

وفي الأزهر الشريف يدرس الطلاب من الابتدائية في مواد الفقه الإسلامي وبأسلوب راق ما هو الطاهر وما النجس والمحرم في آداب المعاشرة الزوجية والجائز وبشكل يحترم حياء الفتي والفتاة.. لذلك فنحن لسنا في حاجة إلي تدريس مادة تسمي التربية الجنسية.. الأمر سيلفت أنظار الصغار إلي أمور نحن في غني عنها.. واقترح أن يدرس طلاب المدارس أبواب الفقه الإسلامي التي يدرسها طلاب الأزهر والتي تتناول أحكام الطهارة والمعاشرة الزوجية والحيض والنفاث إلي غير ذلك، لأن هذا أفضل للجميع.

أؤيد بشروط: ويقول د. جمال عمر النجار رئيس قسم الصحافة والإعلام بكلية الدراسات الإسلامية بنات: أوافق علي تخصيص مادة للتربية الجنسية لطلاب المدارس ولكن بشرط أن يشرف علي التخطيط وكتابة وتنفيذ كتب هذه المادة لجان علمية متخصصة وعلي أعلي مستوي.. بحيث يتم توصيل المعلومات الجنسية للطلاب بشكل مهذب يراعي الأعمار المختلفة بحيث تصل المعلومة بشكل مرحلي للطالب، ويجب أن تستفيد اللجان المشرفة علي هذه المادة بمواد الفقه الإسلامي التي تدرس في الأزهر الشريف والتي تتناول كل ما يمس الحياة الجنسية ولكن بشكل راق لا يخدش الحياء.

الفَصْلُ الخَامِسُ

أدب الحوار في الإسلام

أدب الحوار ومتطلباته في الإسلام

مُقَدِّمَة

لقد أكّد القرآن الكريم على الحوار الموضوعي الهادئ في العديد من الآيات الكريمة، قال ﷻ: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"(١٢٥) النحل" (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣). وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤).فصلت .

فالحوار مظهر من مظاهر رقي المجتمعات، فالعقلاء يتحاورون ويتناظرون، وعما اتفقوا عليه يصدرون، ويديرون الحوار تحت مظلة ثوابت معروفة للجميع يتفق عليها قبل البدء، ويحتكم عند الاختلاف إلى مرجعيات مسلم بها، وهذه الأجواء أجواء صحية، تناقش الآراء علناً، وليس في الظلام؛ فتسدد الآراء وتصحح المواقف، وتتقارب الخطى، وتزيل الشبه، ويعلو الحق، ويسفل الباطل، وينقشع الضباب، ويتبدد سوء الظن، ويخف التلاوم، وتتضح مفاصل كثير من القضايا، وسنرى بعد طول الحوار والنقاش أن هناك مساحات هائلة غير مستغلة يمكن استثمارها، وهناك قضايا أساسية ربما غفل عنها بعض المتحاورين أو أرادوا إغفالها، فلا بد من وضوح الرؤى.

أما الاكتفاء على الذات والتمحور حولها، وإغلاق الأبواب والنوافذ أمام كل حوار ولقاء، ورفض التجديد والتغيير الواعيين؛ فذلك ضعف واستكانة، وإن كان صاحبه يظن أنه صاحب الرأي الأشد، والقول الأسد.

ولقد خص الله سبحانه وتعالى الإنسان بنعمتي العقل واللسان، تكريماً وتفضيلاً له على سائر المخلوقات، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"(٢٦٩) البقرة} "وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي

الْآخِرِينَ"(٨٤) الشعراء. "أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ"(٩) البلد. وعن طريق اللسان والعقل وبواسطتهما يستطيع الإنسان أن يناقش أموره بشكل أفضل مع محيطه، وأن يتدارس مشكلاته، ويشرح قضاياه، ويدافع عنها، وهو في تخاطبه مع أبناء جنسه يتدارس أموره بشأن ما يثيره من قضايا فكرية واقتصادية وغيرها، مما تختلف فيه الأفهام أو تتعارض المصالح، ويتحاور في شأن نقط الخلاف بينه وبين غيره، وهو من خلال هذا الحوار قد يصل إلى الاتفاق، كما قد يظل الاختلاف بينه وبين محاوره قائماً، وفي هذه الحالة لاشك أنه سيدافع عن قضيته ويجادل بشأنها، ومن هنا يقوم الترابط بين المشاورة والمحاورة والمجادلة والمناظرة.(١)

والمتأمل لكتاب الله -عز وجل- وسنة رسوله ﷺ؛ يجد أن كلمة الحوار وردت ثلاث مرات، ووردت قصص الحوار أكثر من ٥٠٠ مرة، وهذا يدل على مكانة الحوار، وكونه وسيلة من أعظم وسائل الدعوة إلى الله عز وجل، وقد حفلت سيرة النبي ﷺ بحوارات كثيرة مع الكفار- بكافة أصنافهم- بغية إيضاح الحق لهم واجتذابهم إلى معسكر الإيمان، أو تحييدهم في بعض الأحيان، حتى يكف بأسهم عن المسلمين، ألم تر إليه ﷺ حين أمهل عقبة بن ربيعة- وهو المشرك الكافر- حتى انتهى؟ ثم خاطبه بألطف عبارة، فقال: "أفرغت يا أبا الوليد".؟ والمتأمل لكتاب الله يجد فيه الهداية والرشاد لأسس الحوار مع الآخر.

الحوار في القرآن الكريم

الحوار والمحاورة مصدر حاور يحاور، ومعناه لغة الحواب والمجادلة، قال ابن منظور "وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام، والمحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، والمَحُورَةُ من المُحاوَرةِ مصدر كالمَشُورةِ من المُشاورة".(٢)

---

(١)- محمد الندوي "أدب الحوار في الإسلام"، في ٢٠٠٣/٤/٩، موقع /author.asp?name؟

(٢)- المرجع السابق.

والحوار كلمة تستوعب كل أنواع وأساليب التخاطب سواء كانت منبعثة من خلاف بين المتحاورين أو عن غير خلاف، لأنها إنما تعني المجاوبة والمراجعة في المسألة موضوع التخاطب، وهو وليد تفاهم وتعاطف وتجارب كالصداقة، وبعبارة أخرى، فإن الحوار لا يمكن أن يكون إلا بين أطراف متكافئة تجمعها رغبة مشتركة في التفاهم، ولا يكون نتيجة ضغط أو ترغيب، ولذلك كان الحوار أعم من الاختلاف ومن الجدل، وصار له معنى حضاري بعيد عن الصراع، إذ الحوار كلمة تتسع لكل معاني التخاطب والسؤال والجواب.

وقد ورد مادة الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، اثنان منها في صيغة الفعل وهما قوله تعالى، في سورة الكهف : {فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً} (من الآية:٣٤)، وقوله تعالى في نفس السورة: {قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً} (من الآية: ٣٧)، والثالث في صيغة المصدر في قوله تعالى في سورة المجادلة: {قد سمع الله قولَ التي تُجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمعُ تحاورَكما} (سورة المجادلة، الآية:١)، بينما ورد لفظ الاختلاف ومشتقاته في القرآن تسعاً وثلاثين مرة.

أما لفظ الجدل ومشتقاته، فقد ورد في القرآن الكريم في تسعة وعشرين موضعاً. في حين أن لفظ الشورى ورد في القرآن الكريم أربع مرات.

بين الخلاف والاختلاف:

الاختلاف بين البشر حقيقة فطرية، وقضاء إلهي أزلي مرتبط بالابتلاء والتكليف الذي تقوم عليه خلافة الإنسان في الأرض قال ﷻ : "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " [المائدة:٤٨]، "وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " [النحل:٩٢-٩٣]

فالاختلاف والتعددية بين البشر قضية واقعية، وآلية تعامل الإنسان مع هذه القضية هي الحوار الذي يتم من خلاله توظيف الاختلاف وترشيده بحيث يقود أطرافه إلى فريضة التعارف، ويجّنبهم مخاطر جريمة الشقاق والتفرق.

وإنما يعالج الحوار قضية الاختلاف من خلال كشفه عن مواطن الاتفاق ومثارات الاختلاف؛ لتكون محل النقاش والجدل بالتي هي أحسن لمعرفة ما هو أقوم للجميع، ولا بد ليؤدي الحوار وظيفته كما يجب من أن ينضبط بمنهج يضمن عدم تحوله إلى مثار جديد للاختلاف.

وإذ أرشدنا القرآن إلى أنَّ الاختلاف حقيقة وواقع، ودعانا إلى التعامل مع هذه الحقيقة من خلال الحوار، فما هو المنهج الذي رسمه القرآن لذلك ؟ هذا ما نحاول تلمسه فيما سيأتي.

لقد اعتبر الإسلام الحوار قاعدته الأساسية في دعوته الناس إلى الإيمان بالله وعبادته، وكذا في كل قضايا الخلاف بينه وبين أعدائه، وكما أنه لا مقدسات في التفكير، كذلك لا مقدسات في الحوار، إذ لا يمكن أن يُغلق باب من أبواب المعرفة أمام الإنسان؛ لأنَّ الله جعل ذلك وحده هو الحجة على الإنسان في الطريق الواسع الممتد أمامه في كل المجالات المتصلة بالله والحياة والإنسان.

وقد أكَّدَ القرآن هذا المبدأ بطرق عديدة، فعرض القرآن لحوار الله مع خلقه بواسطة الرسل، وكذا مع الملائكة ومع إبليس، رغم أنه يمتلك القوة ويكفيه أن يكون له الأمر وعليهم الطاعة، كما أنَّ دعوات الرسل كلها كانت محكومة بالحوار مع أقوامهم، وقد أطال القرآن في عرض كثير من إحداثيات هذه الحوارات بين الرسل وأقوامهم، ولم يشجب القرآن في هذا الباب موقفاً كما شجب موقف رفض الحوار والإصرار على عدم ممارسته : "وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ

يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ " [الجاثية:٧-٩]، "وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ" [فصلت:٥]، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" [لقمان:٦-٧].

ولم يكن حديث القرآن عن الحوار حديثاً عَرَضياً بل اهتم به اهتماماً كبيراً من حيث المنهج والقواعد التي ينبغي أن يسير عليها، وعَرَض لأساليبه ونماذج منه، مما يعطي المتأمل فيه نظرية متكاملة عن الحوار من خلال القرآن الكريم.

الاختلاف لا يتضمن معنى المنازعة

الاختلاف لا يحمل معنى المنازعة، وإنما المراد منه أن تختلف الوسيلة مع كون الهدف واحداً، وهو مغاير للخلاف الذي ينطوي على معنى الشقاق والتباين في الرأي دون دليل.

وقد أوضح العلماء الفرق بين الاختلاف والخلاف في أربعة أمور: (٣)

١. .الاختلاف هو أن يكون الطريق مختلفاً، والمقصود واحداً، والخلاف هو أن يكون كلاهما ــ أي الطريق والمقصود ــ مختلفين.
٢. والاختلاف: ما يستند إلى دليل، والخلاف: ما لا يستند إلى دليل.
٣. والاختلاف من آثار الرحمة ...، والخلاف: من آثار البدعة.
٤. ولو حكم القاضي بالخلاف، ورفع لغيره يجوز فسخه بخلاف الاختلاف، فإن الخلاف هو ما وقع في محل لا يجوز فيه الاجتهاد، وهو ما كان مخالفاً للكتاب والسنة والإجماع.

---

(٣)- محمد القدوري "أدب الحوار في الإسلام"، في ٢٠٠٣/٤/٩، بموقع author.asp?name/ي

منهج الحوار في القرآن(٤):

تنطلق رحلة المنهج الحواري في القرآن من بداياته الأولى، حيث لابد من أن يتكافأ الطرفان من حيث الاستعدادات النفسية، وامتلاك القدرة على الحوار، ومن ثَمَّ تُرسم قواعده التي سيسير عليها، ويلتزم الأطراف بالخضوع لما يكشف عنه الحوار من حقائق، فإذا تم فإما أن يصل الأطراف إلى نتيجة واحدة فيكون قد نجح، وإما أن لا يقتنع أحد الفريقين أو أن يعاند فإنه يمارس حقاً اعتُرف به بقبول الحوار، وعندما ينتهي الحوار إلى هذه النتيجة فللمسلم رسالة يختم بها حواره تتمثل بتذكير الطرف الآخر بأنه مسؤول عما وصل إليه، تلك هي عناوين لتفاصيل قرآنية حول الحوار نذكر بعضها فيما يلي:

١- امتلاك الحرية الفكرية:

لابد لكي يبدأ الحوار أن يمتلك أطرافه حرية الحركة الفكرية التي يرافقها ثقة الفرد بشخصيته الفكرية المستقلة، فلا ينسحق أمام الآخر لما يحس فيه من العظمة والقوة التي يمتلكها الآخر، فتتضاءل إزاء ذلك ثقته بنفسه وبالتالي بفكره وقابليته لأن يكون طرفاً للحوار فيتجمّد ويتحول إلى صدى للأفكار التي يتلقاها من الآخر.

لذلك أمر الله رسوله ﷺ أن يحقق ذلك ويوفره لمحاوريه :] قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ "[الكهف:١١٠]، "قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "[الأعراف:١٨٨].

٢- مناقشة منهج التفكير:

فإذا امتلك أطراف الحوار الحرية الكاملة فأول ما يُناقش فيه هو المنهج الفكري – قبل المناقشة في طبيعة الفكر وتفاصيلها – في محاولة لتعريفهم بالحقيقة التي غفلوا عنها

---

(٤)- عبد الرحمن حللي، منهج الحوار في القرآن الكريم، شبكة الوحدة الإسلامية، المقالة ٣٨. في ٢٠٠٣/٢/١٥. الموقع:

وهي أن القضايا الفكرية لا ترتبط بالقضايا الشخصية، فلكل مجاله ولكل أصوله التي ينطلق منها ويمتد إليها : "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ" [البقرة:١٧٠] "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءكم قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ " [[الزخرف:٢٣-٢٤].

٣- الابتعاد عن الأجواء الانفعالية:

من عوامل نجاح الحوار أن يتم في الأجواء الهادئة؛ ليبتعد التفكير فيها عن الأجواء الانفعالية التي تبتعد بالإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل وتفكير، فإنه قد يخضع للجو الاجتماعي، ويستسلم لا شعورياً مما يفقده استقلاله الفكري: "قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ " [سبأ:٤٦]، فاعتبر القرآن اتهام النبي ﷺ بالجنون خاضعاً للجو الانفعالي العدائي لخصومه؛ لذلك دعاهم إلى الانفصال عن هذا الجو والتفكير بانفراد وهدوء.

٤- التسليم بإمكانية صواب الخصم: (*)

ولا بد لانطلاق الحوار من التسليم الجدلي بأنَّ الخصم قد يكون على حق، فبعد مناقشة طويلة في الأدلة على وحدانية الله تأتي هذه الآية من سورة سبأ: "قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ والأرض قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ، [سبأ : ٢٤]، فطرفا الحوار سواء في الهداية أو الضلال، ثم يضيف على الفور في تنازل كبير بغية حمل الطرف الآخر على القبول بالحوار: " قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ". [سبأ : ٢٥]، فيجعل اختياره هو بمرتبة الإجرام على الرغم من أنه هو

*)- المرجع السابق.

الصواب، ولا يصف اختيار الخصم بغير مجرد العمل، ليقرر في النهاية أن الحكم النهائي لله: "قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(٢٦)" [سبأ : ٢٦].

٥- التعهد والالتزام باتباع الحق:

هذا ولا يكفي مجرد التسليم الجدلي بإمكانية صواب الخصم، بل لا بد من التعهد والالتزام باتباع الحق إن ظهر على يديه، حتى ولو كان التعهد باتباع ما هو باطل أو خرافة إذا افترض أنه ثبت وتبين أنه حق : "قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ" [الزخرف:٨١].

٦- الانضباط بالقواعد المنطقية في مناقشة موضع الاختلاف:

فإذا تم الالتزام بهذه الأسس فإنّ الحوار ينطلق معتمداً على قواعد العقل والمنطق والعلم والحجة والبرهان، والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن: فما أكثر ما يرد في القرآن: "هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ" [البقرة:١١١، الأنبياء:٢٤، النمل:٦٤، القصص:٧٥]، وقال ﷻ مرشداً إلى اعتماد العلم والحجة في الحوار : "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ" [الحج:٨، لقمان:٢٠]، "هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ "، [آل عمران:٦٦]، "إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ" [غافر:٥٦]، "أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " [[الصافات:١٥٦-١٥٧].

وفي اتباع اللين والحكمة والموعظة الحسنة يأمر الله موسى عليه السلام:"اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" [طه:٤٢-٤٤]، ويأمر باتباع الحكمة في الدعوة :] "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" [فصلت:٣٣-٣٤]؛

وتأكيداً لهذا المنهج ينهى الله المؤمنين عن اتباع أساليب السفهاء، ومجاراتهم في السب والتسفيه لمعتقدات الآخر: "وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا الله عدوا بِغَيْرِ عِلْمٍ" [الأنعام:١٠٨].

٧- ختم الحوار بهدوء مهما كانت النتائج: [٦]

إذا سار الحوار جاداً وفق هذا المنهج من قبل جميع الأطراف؛ فلا بد أن يصلوا جميعاً إلى ما التزموا به في بداية الحوار من الرجوع إلى الحق وتأييد الصواب، فإذا رفض المحاور الحجج العقلية كأن لم يقتنع بها؛ فإنه بذلك يمارس حقاً أصيلاً كفله له رب العزة، وسيكون مسئولاً عن ذلك أمام الله ﷻ.

وفي هذه الحالة ينتهي الحوار بهدوء كما بدأ دون حاجة إلى التوتر والانفعال :"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ" [هود:٣٥]، "وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ" [القصص:٥٥].

"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"(٩٩) يونس .

٨- التأكيد على استقلالية كل من المتحاورين ومسؤوليته عن فكره:

قبل الانفصال بين المتحاورين يتم التأكيد على استقلالية كل ومسئوليته عن نفسه ومصيره: "إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، [الأنعام:١٣٤-١٣٥]، وعلى لسان شعيب: "وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ" [هود:٩٣]، "وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ " [هود:١٢١-١٢٢]،

[٦]- عبد الرحمن حللي، حرية الاعتقاد في القرآن الكريم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠٠١، ص ٩٤-٩٦.

"قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ" [سبأ:٥٠]، "قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ " [الزمر:٣٩-٤٠]، إنها مسئولية فردية لا تداخل فيها : "وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" [يونس:٤١]، "قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ولا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ " [سبأ:٢٥-٢٦].

٩- الإشهاد على المبدأ وعدم تتبع الأخطاء الناتجة عن الانفعال أثناء الحوار:

وفي آخر الحوار يتم إشهادهم على المبدأ والتمسك به : "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" [آل عمران:٦٤].

ولا حاجة في أن يُتَابَعَ الخصم على ما بدر منه من إساءات في الحوار، وليكن العفو والصبر أساساً وخلقاً في التعامل مع الجاهلين :] "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" [الأعراف:١٩٩]، "اصبر على ما يقولون" [طه : ١٣٠، ص:١٧]، "فاصبر على ما يقولون" [ق :٣٩]، "فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ "[السجدة:٣٠]، "فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا" [النجم:٢٩]، "وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً " [المزمل:١٠].

هكذا يرشد المنهج القرآني في الحوار إلى إنهائه بمهمة وأداء رسالة يبقى أثرها في الضمير إن لم يظهر أثرها في الفكر، إنه أسلوب لا يسيء إلى الخصم بل يؤكد حريته واستقلاليته، ويقوده إلى موقع المسئولية ليتحرك الجميع في إطارها وينطلقوا منها ومعها في أكثر من مجال. (٢)

٢)- عبد الرحمن حللي، منهج الحوار في القرآن الكريم، مرجع سابق.

الحوار مع المشركين نموذجاً:

في قوله تعالى: {ولا تُجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحدُ بآياتنا إلا الكافرون وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المُبطلون..} (العنكبوت، الآيات: ٤٨-٤٦).

قد كانت للنبي عليه الصلاة والسلام مجادلات مع المشركين، ومع أهل الكتاب، وآيات القرآن في ذلك كثيرة، وهي أثبت في المعني. (٨)

وقد قال لليهود: {إن كانت لكمُ الدارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دون الناسِ فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين* ولن يتمنَّوهُ أبداً بما قدَّمتْ أيديهم} (سورة البقرة، من الآيتين: ٩٥-٩٤)، فما أجابوه جواباً.

وقال لهم:{إن مثلَ عيسى عند الله كمثلِ آدم خلَقَهُ من تُراب}(آل عمران، الآية: ٥٩) أي إن كنتم عبدتم ولداً من غير أب فخذوا ولداً دون أب ولا أم.

وقال: {يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نشرك به شيئاً} (آل عمران، الآية: ٦٤).

وقال: {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناءُ الله وأحباؤه قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} (المائدة، من الآية : ١٨).

ووصف القرآن حالة المشركين النفسية تجاه الرسول ﷺ حيث كان موقفهم انفعالياً فجعلوا يردون بالتهم والتعجب؛ ليريحوا أنفسهم من عناء التفكير بالاتكاء على تقليد الآباء : "وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَة

(٨)- محمد القدوري "أدب الحوار في الإسلام"، في ٢٠٠٣/٤/٩، موقع /author.asp?name&

إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانطَلَقَ الملأ مِنْهُمْ أَنْ امْشُــوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخرة إِنْ هَذَا إِلا اختلاق " [ص:٤-٧].

فقابلهم الرسول ﷺ بكل هدوء، وطلب منهم إبداء الدليل على ما هم عليـــه مـــن شرك: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [الأحقاف:٤]، "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَــذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ" [الأنعام:١٤٨].

ولما عجز المشركون عن إقامة الدليل، إذ مستندهم التقليد وإتباع الظن أقام الدليـــل عليهم: "أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنْ الأرض هُمْ يُنشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْــثَرُهُمْ لا يَعْلَمُــونَ الْحَــقَّ فَــهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنبياء:٢١-٢٤]، "قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَــوْا إِلَــى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً" [الإسراء:٤٢]، "مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُــلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" [المؤمنون:٩١].

ولما لم يُجدِ الدليل العلمي العقلي على بطلان مُدَّعاهم، أتاهم بأدلة حسية مادية مـــن الواقع تثبت بطلان ألوهية الأصنام :"أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَــيْئًا وَهُــمْ يُخْلَقُــونَ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُــمْ سَــوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَــادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَـــهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي فَلا تُنظِرُونِي [الأعراف:١٩١-١٩٥]، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَــيْئًا وَهُــمْ يُخْلَقُــونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًــا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًــا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً " [الفرقان:٣]،

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ" [الحج:٧٣].

وفي قوله تعالى: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود و الذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين و رهبانا و أنهم لا يستكبرون» الآية ٨٢ سورة المائدة

و مع هذا وضع الله تعالى أدباً كريماً للجدال بيننا و بينهم، يقف به عند حد الجدال المقبول، و لا يدخل به في باب المهاترة و الخصومة، لأن الإسلام لم يأت ليثير خصومة بين الناس، و إنما أتى لإرشادهم بالتي هي أحسن، و إذا كان هذا هو شأن الجدال فيما بيننا و بين عباد الأوثان، فما أحراه بأن يكون هذا شأنه فيما بين فرق المسلمين، لأن الخلاف فيما بينهم قريب الحدود، و لا يبلغ درجة الخلاف بينهم و بين عباد الأوثان.

و قد ورد أدب الجدال فيما بيننا و بين عباد الأوثان «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون" (الآية١٠٨ سورة الأنعام)، وقد قيل في سبب نزول هذه الآية: إن المسلمين كانوا يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم؛ فنهاهم الله أن يستسبوا لربهم، فإنهم قوم جهلة لا علم لهم الله. (٩)

وقيل إنه لما نزل قوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ(٩٨) الأنبياء قال المشركون: لئن لم تنته عن سب آلهتنا و شتمها لنهجون إلهك، فنزلت تلك الآية.

---

(٩)- عبد المتعال الصعيدي، أدب الجدل في القرآن الكريم، مجلة رسالة الإسلام العدد ١٢.

فالله تعالى لا يريد بنهينا عن ذلك إلا ليدلنا عن موقف الخصومة في الجدال، لنسلك به الطريق الذي يراد منه الوصول إلى الحق، ويقصد منه التمييز بين الحق والباطل، فلا يراد منه إلا الإقناع و الإرشاد، وأن يأخذ الناس في الجدال بالهدوء والرفق، حتى لا ينقلب إلى خصومة وتعصب، يعمى فيهما الحق على الناس، ويشتد بهما العناد واللجاج، وهذا لا يخرج عن كونه تعليما لنا، ولا يقتضي سبق وقوع شئ منه في القرآن أو من النبي أو من المسلمين.

ولهذا يقول الله تعالى بعد النهى عن ذلك السب «..كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ (١٠٨) الأنعام»، فلا يصح أن نصادم شعورهم بشتم ما زين لهم، وإنما يجب أن نقتصر على بيان الحقيقة في أمره، وأن نترفق في تفهيمهم قبح ما زين لهم، حتى يعلموا حقيقة حاله، و يصلوا إلى الصواب فيه من غير أن يخرج الجدال معهم عن الأدب اللائق به، وعن الحدود التي تجعله مناسباً لشرف الدعوة، ملائماً لنبل ما تدعو إليه؛ ولهذا أيضاً يقول الله تعالى بعد ذلك «.. ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٠٨) الأنعام» تأكيداً لذلك النهى عن سب آلهتهم، و ليدل به على أن أمرهم في ذلك يرجع إلى الله تعالى لا إلينا، فهو الذي يعاقبهم على شركهم، و ليس إلينا هذا العقاب حتى نعاقبهم بشتم أو نحوه، وإنما وظيفتنا الإرشاد والدعوة بالتي هي أحسن([10]).

كانت هذه بعض إحداثيات الحوار مع المشركين تجلّت فيها معالم الاستقلالية التامة والحرية المطلقة التي أعطيت للمشركين؛ حيث قُوبل توترهم وردهم العنيف بالدعوة إلى إبداء الدليل العلمي، وإذا عجزوا عنه أقيم عليهم الدليل العلمي والواقعي على بطلان دعواهم دون أن يتعدى ذلك إلى أي شائبة من شوائب الإكراه المادي أو النفسي.

ومن ثم فلقد كشفت لنا معالم المنهج الحواري في القرآن أنه ينطلق من حقيقة الاختلاف بين البشر، وما يستلزمها من حرية الإنسان لينتهي إلى تأكيدها، وبالتالي فهو منهج لا يهدف أكثر من دعوة الناس إلى التعرف على الحق، واكتشاف التي هي أقوم،

---

[10])- عبد المتعال الصعيدي، أدب الجدل في القرآن الكريم، مرجع سابق.

فالحوار وفق المنهج القرآني لا ينطلق من منطق الوصاية على الآخـــر، أو مجــرد التعريف بما عند المحاور، إنما هي قضية بحث عن الحق أين كان، وهذا لا يعنـــي أن المسلم عندما يدخل في حوار مع الآخرين قد تخلّى عن تصوراته، إنما الموضوعيـــة تتجلّى في الاستعداد التام للتخلي عن جميع التصورات، وتبني نقيضها إذا ما اتضـــح أنّ الحق مع الرأي الآخر، وهذا الاستعداد ليس مجاملة إنما هو تعهد يعبر عن مصداقيـــة المسلم.

وليس كالقرآن كتاباً اعتمد "المقارنة" منهاجاً في إثبات الحـــق الإســـلامي، عندمـــا عرض هذا الحق مقارناً بما لدى الشرك والوثنية والإلحاد والتحريـــف مـــن دعـــاوى ومواريث.. (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٩٦) الصافات).

وفي تقرير صفات الكمال للذات الإلهية ينساب المنطـــق القرآنـــي إلـــى العقـــول والقلوب، عندما يأتي في معرض المقارنة مع بضاعة الآخرين: (وَاذْكُرْ فِـــي الْكِتَـــابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا(٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَـــا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا(٤٢) مريم).

وليس كالقرآن كتاباً سعى إلى استنطاق الآخرين كل ما لديهم من "حجج وبراهيـــن" على ما يعتقدون: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُـــلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١١١) البقرة).

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِـــنْ شَـــيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُـــوهُ لَنَـــا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(١٤٨) الأنعام).

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٤) الأحقاف).

وليس كالقرآن كتاباً اهتم "ببضاعة" الآخرين ،العقدية والفكرية ، على ما بها من سقم وعوج وتهافت.. فهو يثبت ما تحدثوا به عنه ،وهو المعجز المتحدى، عندما قالوا: (...إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(٨٣) المؤمنون).. (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ(٥) الأنبياء).

ويثبت ما وصفوا به الصادق الأمين ﷺ عندما قالوا عنه: (وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٤) ص).

ويثبت الفلسفة الدهرية ،على بؤسها ، عندما تعلقوا بحبالها: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ(٢٤) الجاثية).

ويخلّد "منطقهم" العجيب، الذي انحاز للشرك، متعجباً من التوحيد!: "أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ"(٥) ص).

يتتبع القرآن الكريم "مقالات" الآخرين، فيفندها، ثم لا يطوى صفحتها متجاوزاً إياها، وإنما يثبتها آيات في سورة نتلوها ونتعبد بها؛ ليرسي دعائم هذا المنهاج في مقارنة العقائد والفلسفات والأفكار. .([1])

بل إننا نتعلم من هذا المنهاج القرآني أن الذين يصادرون الفكر الاخر، ويغلقون دونه الأسماع والأبصار إنما كانوا هم المشركين.. فتجاهل الفكر الآخر، والصد عن سماعه وتأمله وتكبره ليس منهاج أهل الإيمان.. والمشركون هم الذين يلهون ويصرفون أنفسهم وذويهم عن القرآن: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(٦) لقمان).. فلقد رفعوا شعار التعمية على هذا الذي خالف ما وجدوا عليه آباءهم وكبراءهم: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فصلت).. فلقد حسبوا أن الراحة والغلب في

---

[1]- محمد عمارة "الاستنارة بين الذات والآخر.. مقاربة قرآنية لاستشفاف الضرورات"، في ٢٠٠٣/٨/٧، موقع الندوة

التعمية على هذا الذي لم يألفوه، والكتمان لهذا الذي لا يهوون، والمصادرة لهذا الذي لا يريدون!. .([12])

هذا هو المنهاج القرآني في التعامل مع الفكر الآخر حتى عندما كان شركاً صريحاً وكفراً بواحاً ووثنية جاهلية ودهرية حيوانية، مصادمة للفطرة السوية التي فطر الله ﷻ عليها الإنسان في الإيمان.

منطلقات الحوار:

فإذا كان الإسلام قد سمح بالاجتهاد واعتمد العقل والبرهان سبيلاً منطقياً للإقناع، فمن الطبيعي أن يجوّز الحوار ويدعو إليه على كل الأصعدة، وبكل الأنماط فنجد النصوص الإسلامية تركز على بعض الشروط الضرورية، وقد تحدث علماؤنا القدامى عن آداب الحوار والجدال، ولكننا ندخل ما ذكروه جميعاً في مِنْطَقَةِ الشروط الضرورية، لأنها جميعاً إن لم تتوفر عرِّضت النتائج لخطر التمويه.

وما نريد التحدث عنه من الشروط الهامة هو ما يلي:

أولاً: تحرير محل الحوار:

وهو أول شرط وأهمه، فإن الحوار قد يكون مضيعة للوقت، إذا تبين للمتحاورين بعد فترة طويلة أنهما كانا يركزان حديثهما على محورين مختلفين، أو وجهتين متفاوتتين،ولذا كان علماؤنا يحددون البدء بتحرير محل النزاع، وتشخيص أبعاده؛ ليكون الاستدلال منتجاً، وهذا شرط منطقي لا نحتاج للاستدلال عليه.

ثانياً : الموضوعية:

ويُعنى بها الدخول إلى مرحلة الحوار بعد التخلي موقتاً عن كل القناعات السابقة والسعي لطلب الحق أينما كان.

---

[12])- المرجع السابق.

وهذا هو القرآن الكريم يخاطب الرسول الكريم ﷺ، وهو القمة في الإيمان واليقين، بأن يدخل في الحوار بروح موضوعية هادفة ليقول: {وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلالٍ مبين} (سورة سبأ، من الآية: ٢٤).

ويقول ﷻ: {قلْ فأتوا بكتابٍ مّن عند اللهِ هو أهدى منهما أتّبعه إن كنتم صادقين} (سورة القصص، من الآية: ٤٩)، وهو أمر أكده السابقون من علماء الأخلاق وغيرهم.

يقول صاحب (المحجة البيضاء في إحياء الإحياء) عند التحدث عن شروط المناظرة: الأول: أن يقصد بها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتفق، لا ظهور صوابه وغزارة علمه وصحة نظره؛ فإن ذلك مراء منهي عنه بالنهي الأكيد، ويضيف: "أن يكون في طلب الحق كمنشد ضالة يكون شاكراً متى وجدها، ولا يفرق بين أن يظهر على يده أو يد غيره؛ فيرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر له الحق".

ثالثاً : الانسجام بين مؤهلات أطراف الحوار والموضوع نفسه.

فلا معنى للحوار حول موضوع لا تعلمه الأطراف أو لا يعلمه أحدهم أو لا يتخصص فيه إن كان مما يحتاج للتخصص.

يقول ﷻ : {ها أنتم هؤلاء حاجَجتُم فيما لكم به علم فلمَ تُحاجّون فيما ليس لكم به علم واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون} (سورة آل عمران، الآية: ٦٦).

ويقول سبحانه: {إن الذينَ يجادلون في آياتِ اللهِ بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلاّ كِبرٌ ما هم ببالغيهِ فاستعذْ باللهِ إنه هو السميعُ البصير} (سورة غافر، الآية:٥٦).

وهنا يقول أحد العلماء:... الثابت أن يناظر مع من هو مستقل بالعلم، ليستفيد منه إن كان يطلب الحق.

ومن هنا فنحن نعتقد أن طرح الاستدلالات العلمية الدقيقة في المجامع العامة، مع اختلاف مستويات الحاضرين أمرٌ يجانب شروط الحوار.

رابعاً: الانطلاق من المبادئ المتفق عليها:

إن الحوار لن يُنتج مطلقاً، إذا لم تكن هناك مبادئ متفق عليها مسبقاً، وفرضيات مسلمة يرجع إليها المتحاوران. ومن هنا رد الجميع عنصر المصادرة على المطلوب، واعتبروه أسلوباً مختلاً ... ولا سبيل هنا إلا التنبيه على بعض القضايا الوجدانية، ومن هنا نجد القرآن الكريم يرد على أولئك المنكرين للبَدَهيَّات بتنبيههم لخطأ ما يعتقدون، وإيقافهم أمام تساؤلات فطرية، إذ يقول ﷻ لأولئك المقلدين لآبائهم (دونما منطق):

﴿وإذا قيلَ لهم اتبعوا ما أنزلَ اللّه قالوا بل نتبعُ ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٧٠). ويقول ﷻ: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مُترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون * قال أو لوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أُرسلتم به كافرون﴾ (سورة الزخرف، الآيتان: ٢٤-٢٣).

فإن هؤلاء قوم لا يؤمنون بشيء مشترك مع المحاور المسلم، وما عليه إلا أن ينبههم على بعض المشتركات الفكرية من قبيل:

إن المجانين لا يتبعون، فإذا افترضنا أن آباءهم مجانين فهم لا يتبعون؛ إذن عليكم التحقيق، أو أن الأفضل والأهدى هو المتبع فيجب التأكد من الأهدى.

خامساً : المنطقية بحيث يسير البحث بشكل منطقي: وتؤدي المقدمات إلى النتائج بشكل طبيعي، وذلك دونما تحايل أو مماطلة أو جدال عقيم، والنصوص التي تنهى عن الجدال والمراء كثيرة.

منها قوله ﷻ: {ما ضربوهُ لكَ إلا جدلاً بل هم قومٌ خَصِمونَ} (سورة الزخرف، من الآية: ٥٨). وقوله ﷻ: {وكان الإنسانُ أكثر شيء جدلاً} (سورة الكهف، من الآية: ٥٤).

وقد رأينا العلماء يردون التحايل على الطرف الآخر، ويذكرون لذلك أمثلة من قبيل:

أ) إيهام العبارة حتى لا يفهمها الطرف لآخر.

ب) الاحتيال عليه حتى يخرجه عن محل تساؤله.

ج) توجيه كلام السائل إلى وجوه محتملة.

بل تحدثوا عن الصفات التي قد يُبتلى بها المتحاوران نتيجة القدرة على امتلاك المواقف، من قبيل الحقد والحسد وتزكية النفس، والاستكبار عن الحق، والرياء، وكل ذلك لكي تعود إلى المحاور شخصيته الطبيعية التي تحقق منطقيته في الحوار.

سادساً : الابتعاد عن جو التهويل أو ما يسمى بتأثير العقل الجمعي: ففي مثل هذا الجو يفقد الحوار جوه المطلوب، ولا معنى فيه للاستدلال المنطقي الهادئ الحكيم.

ومن خير الأمثلة على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من جو انفعالي واجه المشركون به النبي ﷺ واتهموه بالجنون، ولذلك طلب من الرسول ﷺ أن يدعوهم إلى نبذ هذا التهويل، والعودة إلى الهدوء المطلوب، ثم التفكير بما يتهمونه به، يقول ﷻ:

{قل إنما أعظكم بواحدةٍ أنْ تقوموا للّهِ مثْنى وفُرادى ثم تتفكّروا ما بصاحبكم من جنةٍ إنْ هو إلا نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد} (سورة سبأ، الآية: ٤٦).

سابعاً : أن يكون الحوار مما يترك أثراً عملياً أو فكرياً: فلا معنى للحوار حول افتراضات تجانب الواقع، يقول الإمام الغزالي:"...الرابع أن يناظر في واقعة مهمة أو في مسألة قريبة من الوقوع، وأن يهتم بمثل ذلك".

ثامناً: أن تلحظ في الحوار كل الجوانب المرتبطة بالموضوع، فقد تترك الجوانب غير الملحوظة أثرها على النتيجة، أما إذا لم يتسع صدر الباحث، فيجب الاتفاق على قدر متيقن فيها. ([13])

لقد نجحت الحوارات التي جرت وأشاعت بما ينشر عنها من أخبار أملاً في تصفية الأجواء في أوساط "العامة"، وحققت وهذا أمر بالغ الأهمية تعارفاً بين شخوص فاعلة في المنطقتين أوصل إلى الفهم الموضوعي لديهم، وبلورت فكرة أن تعاون الحضارات عامة والحضارتين الغربية والعربية الإسلامية بخاصة هو عبرة تاريخ طويل وضرورة مستقبل.

مرتكزات الحوار:

ويقوم الحوار على عدد من الأمور من أهمها: ([14])

١- الاعتراف ابتداء بأن الخلاف سنة كونية وإرادة إلهية ليهلك من هلك عن بينه ويحيى من حي عن بينه والخلاف راجع لتضارب المصالح وتباين القدرات والمواهب.

٢- أن التعايش مطلب حتمي وضرورة شرعية، ومرحلة ينبغي أن تكون مخرجاً من الحاضر ومعبراً لحياة متكاملة.

٣- أن يكون مرد الخلاف إلى الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ.

٤- أن يكون الحق والصدق رائد المتحاورين، وأن تكون مصالح الأمة فوق مصالح الأفراد والجماعات.

٥- أن يجري الحوار بعيداً عن البغي والعدوان والحسد وحب الانتصار والسيطرة والشهرة؛ فالبغي مصدر الشهوات.

---

[13]- محمد علي التسخيري "الاختلاف وأسلوب الحوار، مرجع سابق.. موقع هام بالإنترنت www.alwehda.com

[14]- أحمد صدقي الدجاني، "الحوار مع الآخر في الإسلام"، مرجع سابق.

٦- ينبغي أن تقوم بالحوار تلك القيادات التي تقود قطاعات الدولة والمجتمع على اختلاف أهدافها ومستوياتها ومنها: القيادات الدينية، القيادات الاقتصادية، القيادات السياسية، القيادات الأمنية، القيادات الاجتماعية، القيادات العلمية، والإعلامية والثقافية كما ينبغي أن يقوم الحوار داخل كل قضية من هذه القضايا من جهة وعلى مستوى تداخل هذه القضايا بعضها مع بعض من جهة أخرى وأن يقوم بالحوار من كل تخصص عدوله الناصحون للأمة البعيدون عن المصالح الذاتية والنزعات الفردية والعنصرية والطائفية.

٧- أن تحدد نقاط الخلاف وتوضح الإيجابيات منها والسلبيات، وذلك بغرض توجيه الطاقات على اختلاف مظانها ومظاهرها وعلى تعدد أبعادها وغاياتها إلى خدمة قضايا الأمة الإسلامية وليس إلى الاحتراز من الجميع كما هو الحال.

٨- أن تكون تلك الطاقات قوة للبنات هذا الكيان وليست إلغاء له وتنسيقاً وتكاملاً لعناصره ومحتوياته وعوامله ودوافعه وليست تفتيتاً له وتفجيراً لوحداته ووحدته(١٥).

الحوار الإيجابي ودوره في الحد من العنف:

وإذا كان الإسلام يطلب الحق والعدل ويدعو إليه فإن الوسيلة لإقرارهما تبتدئ بالحوار الذي أقامه الإسلام على ثلاث مستويات: (١٦)

١- المستوى الأول : الحوار مع النفس ومحاسبتها وحملها على الجادة وطلب الحق ويكون هذا في شكل حوار داخلي مستمر بين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة حتى يصل الإنسان إلى الاطمئنان .

---

١٥)- أحمد صدقي الدجاني، "الحوار مع الآخر في الإسلام"، مرجع سابق.

١٦)- عبد الله حمدنا الله (جريدة المسلمون - عدد ٣٣٧-٨ المحرم ١٤١٢):

٢- المستوى الثاني : الحوار بين أفراد المجتمع الإسلامي وفق اجتهاداتهم المختلفة عملا بمبدأ "التعاون في الاتفاق والاعتذار في الاختلاف " حفاظا على وحدة الصف الإسلامي.

٣- المستوى الثالث : الحوار بين المسلمين وغير المسلمين الذين يشتركون معاً في إعمار الكون، وهو حوار يجرى وفق مبدأ المدافعة الذي يمنع الفساد وينمى عوامل الخير.

والبعض يرى تقسيم آخر لأبعاد الحوار: ومن أمثلة ذلك:(١٧)

أ) الحوار بين المسلمين المختلفين في الشؤون الشخصية.

ب) الحوار بين المختلفين في القضايا الاجتماعية.

ج) الحوار بين الفقهاء.

د) الحوار العقائدي.

هـ) الحوار بين الأديان.

و) الحوار بين الحضارات.

وإن عالمية الإسلام تفرض على أمته - كي تحقق القيام بفريضة الدعوة إليه - تحقيق مستويات ثلاثة في الدعوة إلى هذا الدين: .(١٨)

١- تبليغ الدعوة الإسلامية إلى الآخرين.

٢- وإقامة الحجة، بصدق الإسلام، على هؤلاء الآخرين.

٣- وإزالة الشبهة، عن الإسلام، لدى هؤلاء الآخرين.

وبدون المعرفة بالآخر، والوعي بما لديه من عقائد و "أيديولوجيات" ومواريث فكرية وثقافية، يستحيل إنجاز هذه الأركان في فريضة الدعوة إلى الإسلام.

---

١٧)- محمد علي التسخيري "الاختلاف وأسلوب الحوار الحكيم" أبحاث ندوة أدب الاختلاف في الإسلام التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالتعاون مع جامعة الزيتونة تونس ١٠ - ٨ ديسمبر ١٩٩٨م

١٨)- محمد عمارة "الاستنارة بين الذات والآخر. مرجع سابق.

غايات الحوار للحوار غايتان إحداهما قريبة والأخرى بعيدة، أما غاية الحوار القريبة والتي تطلب لذاتها دون اعتبار آخر فهي محاولة فهم الآخرين، وأما الغاية البعيدة فهي إقناع الآخرين بوجهة نظر معينة.

الحوار السلبي:

نستعرض بعض ألوان الحوار السائدة في حياتنا والمؤثرات في سلوكنا وفى مسيرتنا الحضارية أفرادا وجماعات ولنبدأ بألوان الحوار السلبي [١٩]:

١- الحوار العدمي التعجيزي : وفية لا يرى أحد طرفي الحوار أو كليهما إلا السلبيات والأخطاء والعقبات، وهكذا ينتهي الحوار إلى أنه لا فائدة، ويترك هذا النوع من الحوار قدرا كبيرا من الإحباط لدى أحد الطرفين أو كليهما؛ حيث يسد الطريق أمام كل محاولة للنهوض.

٢- حوار المناورة (الكر والفر) : ينشغل الطرفان (أو أحدهما) بالتفوق اللفظي في المناقشة بصرف النظر عن الثمرة الحقيقية والنهائية لتلك المناقشة وهو نوع من إثبات الذات بشكل سطحي .

٣- الحوار المزدوج: وهنا يعطى ظاهر الكلام معنى غير ما يعطيه باطنة لكثرة ما يحتويه من التورية والألفاظ المبهمة وهو يهدف إلى إرباك الطرف الآخر، ودلالاته أنه نوع من العدوان الخبيث.

٤- الحوار السلطوي (اسمع واستجب) : نجد هذا النوع من الحوار سائدا على كثير من المستويات، فهناك الأب المتسلط والأم المتسلطة والمدرس المتسلط والمسئول المتسلط ..الخ وهو نوع شديد من العدوان، حيث يلغي أحد الأطراف كيان الطرف الآخر ويعتبره أدنى من أن يحاور، بل عليه فقط السماع للأوامر الفوقية والاستجابة دون مناقشة أو تضجر وهذا النوع من الحوار فضلا عن أنه إلغاء لكيان (وحرية)

---

١٩)- محمد المهدي، "الحوار السلبي"، كلية الطب، قسم الطب النفسي جامعة المنصورة، ٢٠٠٣/٤/٤ .

طرف لحساب الطرف آخر، فهو يلغى ويحبط القدرات الإبداعية للطرف المقهور؛ فيؤثر سلبيا على الطرفين، وعلى الأمة بأكملها.

٥- **الحوار السطحي** (لا تقترب من الأعماق فتغرق) : حين يصبح التحاور حول الأمور الجوهرية محظورا أو محاطا بالمخاطر، يلجأ أحد الطرفين أو كليهما إلى تسطيح الحوار؛ طلباً للسلامة أو كنوع من الهروب من الرؤية الأعمق بما تحمله من دواعي القلق النفسي أو الاجتماعي .

٦- **حوار الطريق المسدود** (لا داعي للحوار فلن نتفق) : يعلن الطرفان (أو أحدهما) منذ البداية تمسكهما (أو تمسكه) بثوابت متضادة تغلق الطريق منذ البداية أمام الحوار وهو نوع من التعصب الفكري وانحسار مجال الرؤية .

٧- **الحوار الإلغائي أو التسفيهي** (كل ما عداي خطأ) يصر أحد طرفي الحوار على ألا يرى شيئا غير رأيه ،وهو لا يكتفي بهذا بل يتنكر لأي رؤية أخرى ويسفهها ويلغيها وهذا النوع يجمع كل سيئات الحوار السلطوي وحوار الطريق المسدود.

٨- **حوار البرج العاجي** : ويقع فيه بعض المثقفين حين تدور مناقشتهم حول قضايا فلسفية أو شبه فلسفية مقطوعة الصلة بواقع الحياة اليومي وواقع مجتمعاتهم، وغالبا ما يكون ذلك الحوار نوع من الحذلقة وإبراز التميز على العامة دون محاولة إيجابية لإصلاح الواقع.

٩. **الحوار المرافق** (معك على طول الخط) : وفية يلغي أحد الأطراف حقه في التحاور لحساب الطرف الآخر، إما استخفافا (خذه على قدر عقله) أو خوفا أو تبعية حقيقية؛ طلبا لإلقاء المسئولية كاملة على الآخر.

١٠. **الحوار المعاكس** (عكسك دائما) : حين يتجه أحد طرفي الحوار يمينا ويحاول الطرف الآخر الاتجاه يسارا، والعكس بالعكس، وهو رغبة في إثبات الذات بالتميز والاختلاف، ولو كان ذلك على حساب جوهر الحقيقة. "وفق مثل عامي يقول: "خالف تُعْرف".

١١. حوار العدوان السلبي (صمت العناد والتجاهل) : يلجأ أحد الأطراف إلى الصمت السلبي عنادا وتجاهلا ورغبة في مكايدة الطرف الآخر بشكل سلبي دون التعرض لخطر المواجهة.

إن الحوارات السلبية الهدامة تعوق الحركة الصحيحة الإيجابية التصاعدية للفرد والمجتمع والأمة، وللأسف فكثير منها سائد في مجتمعاتنا العربية الإسلامية لأسباب لا مجال هنا لطرحها. [٢٠]

إذن فما هي يا ترى مواصفات الحوار الإيجابي الذي نسعى لترسيخه بيننا ؟ إن الإجابة بسيطة ولكن تنفيذها يحتاج إلى وقت وصبر ولكن لا مناص من المحاولة والصبر والمثابرة، فعلى أساس الحوار ينبني السلوك وتتشكل العلاقات وينهض الفرد والمجتمع والأمة، ويتعايش الجميع في سلام وأمن ووئام.

والحوار الإيجابي الصحي هو الحوار الموضوعي الذي يرى الحسنات والسلبيات في ذات الوقت، ويرى العقبات ويرى أيضا إمكانيات التغلب عليها، وهو حوار متفائل (في غير مبالغة طفلية ساذجة) وهو حوار صادق عميق وواضح الكلمات ومدلولاتها وهو الحوار المتكافئ الذي يعطي لكلا الطرفين فرصة التعبير والإبداع الحقيقي، ويحترم الرأي الآخر، ويعرف حتمية الخلاف في الرأي بين البشر وآداب الخلاف وتقبله، وهو حوار واقعي يتصل إيجابيا بالحياة اليومية الواقعية، واتصاله هذا ليس اتصال قبول ورضوخ للأمر الواقع بل اتصال تفهم وتغيير وإصلاح، وهو حوار موافقة حين تكون الموافقة هي الصواب ومخالفة حين تكون المخالفة هي الصواب؛ فالهدف النهائي له هو إثبات الحقيقة، حيث هي، لا حيث نراها بأهوائنا، وهو فوق كل هذا حوار تسوده المحبة والمسئولية والرعاية وإنكار الذات.

إن ممارسة الانفتاح والحوار مع الآخرين ليس هدفا في ذاته، إنما الهدف من ورائه هو تحقيق التواصل والتقارب، كما أن الحوار الذي لا يلتزم بشروط موضوعية لا يحقق

---

[٢٠]- محمد المهدي، مرجع سابق .

النتيجة المرجوة منه، بل على العكس قد يؤدي إلى التنافر والتباعد، وإذا أردنا أن نعدد الشروط الضرورية للحوار الناجح؛ فإنه يمكننا ذكر ما يلي:

١. الإيمان بوجود الآخر: إذا أردت أن تحاور طرفا معينا، فإن ذلك يقتضي بأن تؤمن بأن له وجودا وكيانا، إذ إنه من الاستهانة أن تتعامل مع فرد أو جهة على أساس أنها تمثل ثقلا معينا، وأنت تشعر في قرارة نفسك بعكس ذلك، ومهما حاولت إخفاء ذلك الشعور السلبي، فسوف يبرز بشكل إرادي أو غير إرادي، وعند ذلك سيؤدي إلى ردة فعل سلبية من الطرف الأخر، وربما يؤدي إلى القطيعة، فضلا عن أن التعامل مع الناس بهذا الأسلوب يتنافى مع مبادئ الأخلاق الإسلامية، وفي هذه الحالة يصبح عدم التعامل مع الجهة التي لا تؤمن بجدوى التعامل معها خيرا من أن نبدي لها اهتماما لا نشعر به حقا تجاهها، وقد تكون فعلا الجهة التي ترغب في التواصل معها لا تمثل في موازينك ومقاييسك قيمة وأهمية، ولكن لك معها مصلحة محددة أو غرض معين يجعلك تتعامل معها، وفي هذه الحالة أصبحت تلك المصلحة، أو ذلك الغرض مبررا للإيمان بوجودها على الأقل بمقدار ما ترجوه منها، على أنه ينبغي التنبيه على الاعتراف بكيان الآخر ليس معناه التسليم بمبادئه ومواقفه.

٢. التعرف على الآخر: إن من مقتضيات الحوار والتواصل أن تتعرف على من تريد محاورته، لأن سعيك للتعارف يحقق مجموعة من المصالح تدعم قضية الحوار وتحقق ثمرته، فالتعارف من جانبك يشعر الطرف الآخر باهتمامك به، وبالتالي بتواضعك وعدم تعاليك على من تحاوره، وقد أشار القرآن الكريم لهذا المعنى، في قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) الحجرات، والتعارف هنا في الآية هو سعي مشترك بين طرفين، كل يسعى من جانبه للتعرف على الآخر.

٣. التعارف يساعدك على اكتشاف الآخر، وبالتالي اختيار أفضل الأساليب والطرق للتواصل معه، وتجنب كل ما من شأنه أن يثيره أو يجعله يقع في ردود أفعال سلبية، وقد يقع الإنسان في إساءة غيره من غير قصد منه، بسبب مصادمته بعبارة أو طريقة غير مناسبة لم يحسب لها حسابا، ولم يراع فيها خصوصيات من يخاطبه، وفي ضوء هذا نفهم التوجيه النبوي القائل : (خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتريدون أن يكذب الله ورسوله).

٤. أن يكون الكلام هادفا إلى الخير: [٢١] "لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما" (النساء:١١٤). وفي حديث أبي هريرة عنه عليه أفضل الصلاة والسلام: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت].

فإذا تكلم المرء فليقل خيرا وليعود لسانه الجميل من القول، فإن التعبير الحسن عما يجول في نفسه أدب عال، أخذ الله به أهل الديانات جميعا، وقد صرح القرآن أن القول الحسن من حقيقة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل على عهد موسى. [٢٢]

(وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة)(٨٣) البقرة، والكلام الطيب العف يجمل مع الأصدقاء والأعداء جميعا، وله ثماره الحلوة، فأما مع الأصدقاء فهو يحفظ مودتهم، ويستديم صداقتهم، ويمنع كيد الشيطان أن يوهي حبالهم ويفسد ذات بينهم، ومع الأعداء يقارعهم الحجة القوية: (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) (٥٣) الإسراء.

---

[٢١]- مازن الفريح، أدب الحوار في الإسلام، موقع ناصح للسعادة الأسرية، ٢٠٠٣/٤/١٩.

[٢٢]- محمد الغزالي، أدب الحديث في الإسلام، من كتاب خلق المسلم.

٥. البعد عن عبارات المدح للنفس أو للغير إلا لمصلحة وبالضوابط الشرعية: "فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى" (النجم، الآية٣٢)

حرية الاختيار وحق الاختلاف([٢٣])

إن للحوار أهدافًا مختلفة؛ فهو إما أن يكون وسيلة لتنفيس أزمة ولمنع انفجارها، وإما أن يكون سعيًا لاستباق وقوع الأزمة ولمنع تكوُّن أسبابها، وإما أن يكون محاولة لحلٍّ أزمة قائمة ولاحتواء مضاعفاتها، في هذه الحالات الثلاث تكون مهمة الحوار هي العمل على:

١- إبراز الجوامع المشتركة في العقيدة والأخلاق والثقافة.
٢- تعميق المصالح المشتركة في الإنماء والاقتصاد والمصالح.
٣- توسيع مجالات التداخل في النشاطات الاجتماعية الأهلية (كالأندية الرياضية والجمعيات الكشفية والمؤسسات التعليمية والاستشفائية).
٤- التأكيد على صدقية قيم الاعتدال وتوسيع قاعدتها التربوية.
٥- إغناء الثقافة الحوارية التي تقوم على عدم رفض الآخر، والانفتاح على وجهة نظره واحترامها، وعدم التمترس وراء اجتهادات فكرية صدئة من خلال التعامل معها – أي مع هذه الاجتهادات – وكأنها مقدسات ثابتة غير قابلة لإعادة النظر.

ينطلق الحوار من قواعد منطقية وعلمية تعتمد على الحجة والبرهان، ويتوسل الجدال بالتي هي أحسن والموعظة الحسنة، فالله خاطب موسى بقوله: "اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي(٤٢) ، اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٤٣). فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(٤٤) طه. ويأمر باتباع الحكمة في الدعوة: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣). وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"(٣٤) فصلت.

[٢٣]- محمد السماك، "ثقافة الحوار في الإسلام: حرية الاختيار وحق الاختلاف"، جريدة النهار، ١٧ تشرين ثاني، ٢٠٠٢.

إن في ثقافة الحوار في الإسلام آدابًا وقيمًا ومنهجًا أخلاقيًا يحترم الإنسان وحريَّته في الاختيار، كما يحترم حقَّه في الاختلاف وفي المجادلة، وفي النتيجة أن "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ"(٤٦) فصلت"."[24]

أخلاقيات الخلاف [25]

للخلاف آداب وأخلاق يجمل الاتصاف بها والوقوف عليها للأخذ بها، ومن أبرزها :

أولاً: عدم التثريب بين المختلفين؛ فلستَ بأصدق إيماناً بالضرورة، ولا أوسعَ علماً، ولا أرجحَ عقلاً ممن تختلف معه، ولهذا قال يحيى بن سعيد: ما برح المستفتون يسألون، فيجيب هذا بالتحريم، وهذا بالإباحة، فلا يعتقد المُبيحُ أن المُحَرِّمَ هلك، ولا يعتقد المُحَرِّمُ أن المبيحَ هلك.

وكان الإمام أحمد يقول: ما عبر الجسر إلينا أفضل من إسحاق، وإن كنا نختلف معه في أشياء؛ فإنه لم يزل الناس يخالف بعضهم بعضا.

كتب أحدهم رأياً في مسألة من المسائل الفقهية ونشرها؛ فقال له أحد المناقشين: لماذا تبحث هذه المسألة التي لم يبحثها العلماء من قبلك؟

قال له: لقد بحثوها وأوسعوها بحثاً.

قال له: إذاً فلماذا تبحثها وقد بحثوها؟ ألا يكفيك بحثهم عما فعلت؟

إن أفهام الرجال ليست وحياً، والمدارس الفقهية، أو الدعوية ليست هي الإسلام، وإن كانت تنتسب إليه وترجع إليه.

وفي صحيح مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ : (وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ

---

[24])- فضل الله (محمد حسين)،"الحوار: أبعاد وإيحاءات ودلالات" مجلة المنطلق، عدد ١٠٥ ربيع الأول ١٤١٤ هـ ص ١٦.

[25])- سلمان بن فهد العودة، أخلاقيات الاختلاف، . ٢٠٠٣/٩/١٣

وذمَّةَ نبيِّهِ فلاَ تجعلْ لهُمْ ذمَّةَ اللَّهِ ولاَ ذمَّةَ نبيِّهِ، ولَكنِ اجْعلْ لهُمْ ذمَّتَكَ وذمَّةَ أصحَابِكَ فإنَّكُمْ أنْ تُخفِرُوا ذِممَكُمْ وذِممَ أصحَابِكُمْ أهْوَنُ منْ أنْ تُخفِرُوا ذمَّةَ اللَّهِ وذمَّةَ رَسُولِهِ، وإذَا حَاصرْتَ أهْلَ حِصنٍ فأرَادوكَ أنْ تُنْزِلَهُمْ علَى حُكْمِ اللَّهِ فلاَ تُنْزِلْهُمْ علَى حُكْمِ اللَّهِ ولَكِنْ أنْزِلْهُمْ علَى حُكْمِكَ فإنَّكَ لاَ تَدرِي أتُصيبُ حُكْمَ اللَّهِ فيهِمْ أمْ لاَ).

لاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم يوصي رجلاً من أصحابه اختاره لقيادة الجيش، والنبي صلى الله عليه وسلم حاضر بين أظهُرهم، ويقول له: لا تنزل الناس على ذمة الله وذمة رسوله، ولا على حكم الله وحكم رسوله؛ لأنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله وحكم رسوله أم لا ، ولقد سمعت بأذني غير مرة من يتكلم بمسألة قصارى ما يُقال فيها: إنها اجتهادية؛ فيقول: أنا لا أتكلم من قِبل نفسي أنا لا أقول برأي، وإنما هذا منهج الله، هذا حكم الله، و أقول: سبحان الله؛ فهل الآخرون يأخذون من التوراة، أو الإنجيل؟ كلا؛ بل الجميع يدورون على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكن يكون المعنى قابلاً لأكثر من اجتهاد، وأكثر من محمل، وأكثر من رأي.

يقول ابن القيم –رحمه الله–: لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهاده، ولم يظفر فيه بنص إن الله حرم هذا وأوجب هذا، أو هذا حكم الله.

ويقول ابن تيميه –رحمه الله–:ولكن كثيرًا من النَّاسِ ينْسُبُونَ ما يقولونه إلى الشَّرْعِ وليس من الشَّرْعِ؛ بل يقولون ذلك إما جَهْلاً وإما غَلَطًا وإما عَمْدًا وافْتِرَاءً.

إنه لا وصاية على الناس ولا إلزام بمذهب معين، وقد عرض المنصور على إمام دار الهجرة مالك بن أنس أن يعمم كتاب الموطأ على الأمصار، وأن يُلزم الناس بالأخذ به، فنهاه عن ذلك، وقال: يا أمير المؤمنين! لا تفعل، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وعملوا بذلك، ودانوا به من أصحاب محمد صلى الله

عليه وسلم ، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد؛ فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم. ([26])

وهذا من فقه هذا الإمام وتقواه؛ فإن كثيراً من المختلفين لو استطاع أحدهم أن يستميل إليه السلطان ليتقوى به على خصومه؛ لفعل.

وقد وقع هذا كثيراً في التاريخ والواقع؛ فإن كثيراً من المختلفين من المذاهب الفقهية أو الاعتقادية، ربما استنصروا بالسلطان على خصومهم وأعدائهم؛ فأبعدوهم وآذوهم.
ثانياً: الإنصاف كما قال عمار رضي الله عنه في صحيح البخاري: (ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ : الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ).

والإنصاف خلق عزيز يقتضي أن تنزل الآخرين منزلة نفسك في الموقف، والإنصاف ضرورة، وله قواعد منها:

١. أن ما ثبت بيقين لا يزول إلا بيقين؛ فمن ثبت له أصل الإسلام لا يخرج من الإسلام ويحكم بكفره إلا بيقين، ومن ثبتت له السنة لا يخرج منها إلا بيقين، وهكذا من ثبت له شيء؛ فإنه لا يُنزع منه إلا بيقين.

٢. الخطأ في الحكم بالإيمان أهون من الخطأ في الحكم بالكفر؛ أي لو أنك حكمت لشخص بالإسلام بناءً على ظاهر الحال، حتى لو كان من المنافقين مثلاً أو ليس كذلك؛ فإن هذا أهون من أن تتسرع وتحكم على شخص بالكفر، ويكون ليس كذلك؛ فتقع في الوعيد (وَمَنْ دَعَا رَجُلاً بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ : عَدُوُّ اللَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلاَّ حَارَ عَلَيْهِ)، أي رجع عليه .

٣. في مسائل الاجتهاد لا تأثيم ولا هجران، وهذا ذكره ابن تيمية -رحمه الله- وهذا مذهب أهل السنة: أنهم لا يرون تأثيماً لكل من اجتهد في المسائل كلها من غير تفريق بين الأصول والفروع، فمن استفرغ وسعه في معرفة مراد الله عز وجل ،

---

[26]- المرجع السابق.

وكان أهلاً لذلك، فإنه لا يأثم بهذا الاجتهاد بل هو بين أجر وأجرين، فلا تأثيم في مسائل الاجتهاد، ولا ينبغي أن يكون ثمة تهاجر بين المؤمنين.

٤. التحفظ عن تكفير فرد بعينه أو لعنه، حتى لو كان من طائفة، أو كان من أصحاب قولٍ، يصح أن يوصف أنه كفر، وها هو الإمام أحمد -رحمه الله- كان يُكفّر الجهمية، ويكفر من يقول القرآن مخلوق، ومع ذلك لم يكفر أحداً منهم بعينه، لا المأمون ولا سواه، بل كان يدعو له، ويستغفر له، ويجعله في حِلٍ مما صنع فيه .

٥. الأخذ بالظاهر، والله يتولى السرائر، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إِنِّى لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ ، وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ) .

٦. تسلط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، ولقد اتفق أهل السنة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ، بل عامة المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ، يقول ابن رجب: أكثر الأئمة غلطوا في مسائل يسيره، مما لا يقدح في إمامتهم وعلمهم فكان ماذا؟ لقد انغمر ذلك في بحر علمهم، وحُسن مقصدهم، ونصرهم للدين، والانتصاب للتنقيب عن زلاتهم ليس محموداً ولا مشكوراً، لاسيما في فضول المسائل التي لا يضر فيها الخطأ، ولا ينفع فيها كشفه وبيانه.

والعجيب أن كثيراً من الناس قد يتحفظون ويتورعون عن أكل الحرام مثلاً، أو عن شرب الخمر، أو عن مشاهدة الصور العارية والمحرمة، ولكن يصعب عليه كف لسانه؛ فتجده يَفْرِي في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي بما يقول، ولهذا قرر العلماء أن كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به، لاسيما إذا لاح أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصم الله.

قال الذهبي: ما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئتُ لسردت من ذلك كراريس.

سأل أحمد بن حنبل -رحمه الله- بعض الطلبة من أين أقبلتم؟ قالوا: جئنا من عند أبي كُريب، وكان أبو كُريب ينالُ من الإمام أحمد، وينتقده في مسائل؛ فقال نِعم الرجل الصالح! خذوا عنه وتلقوا عنه العلم، قالوا: إنه ينال منك ويتكلم فيك! قال أيُّ شيء حيلتي فيه؟ إنه رجلٌ قد ابتُلي بي، وحدث الأعمش عن زرّ بن حُبيش وأبي وائل، وكان زر بن حُبيش علوياً؛ يميل إلى علي بن أبي طالب، وكان أبو وائل عثمانياً، وكانوا أشد شيء تحاباً وتواداً في الله عز وجل، وما تكلم أحدهما في الآخر قط حتى ماتا، ولم يُحدث أبو وائل بحضرة زر؛ لأنه كان أكبر منه سناً، ولهذا قال الذهبي -رحمه الله-: وهو يترجم لأبي محمد بن حزم صاحب المُحلى وشيخ الظاهرية، قال: ولي ميل لأبي محمد بن حزم؛ لمحبته للحديث الصحيح ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقول في الرجال والعلل، وفي المسائل البشعة في الفروع والأصول، وأقطع- لاحظ قوله: وأقطع- بخطئه في غير ما مسألة، ولكني لا أكفره ولا أضلله، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين، وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه، إن من الإنصاف أن تقبل ما لدى خصمك من الحق والصواب، حتى لو كان فاسقاً، بل حتى لو كان مبتدعاً، بل حتى لو كان كافراً، ولذلك استنكر ابن تيمية على بعض المنتسبين للسنة فرارهم من التصديق، أو الموافقة على حق يقوله بعض الفلاسفة، أو المتكلمين؛ بسبب النفرة والوحشة، أو إعراضهم عن بعض فضائل آل البيت، وقال -رحمه الله-: لا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني، فضلاً عن الرافضي قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده كله، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق.

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسيره: إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع؛ فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبعدها عنه.

وهكذا تلوح لك في هذه النصوص، أمارات الإنصاف والعدل، حتى مع الخصوم المباعدين، فضلاً عن الإخوة المتحابين.

ثالثاً : استعمال الصبر والرفق والمداراة: واحتمال الأذىٰ ومقابلة السيئة بالحسنة، كما أمر الله -تبارك وتعالى- في ذلك في غير ما موضع من كتابه "وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"[فصلت:٣٤]، وبهذا استمال النبي صلى الله عليه وسلم قلوب أعدائه، وعالج قسوتها وشماسها ونفارها، حتى لانت واستقادت وقبلت الحق؛ فالكلمة الطيبة والابتسامة الصادقة الصافية، والإحسان إلى الآخرين بالقول والفعل من أسباب زوال العداوة وتقارب القلوب "وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"[فصلت:٣٥] .

كُنَّا مِنَ الدِّينِ قَبْلَ اليَومِ في سِعَةٍ … حَتَّى بُلِينَا بِأَصْحَابِ الْمَقَايِيسِ

قَومٌ إِذَا اجْتَمَعُوا صاحوا كأنهم … ثَعَالِبٌ ضَبَحَتْ بَيْنَ النَّوَاوِيسِ

فسمع أبو حنيفة بذلك؛ فأرسل له هدية، وكانت هذه الهدية رشوة، لكنها رشوة بطريقة

شرعية صحيحة فلما قبض الهدية قال:

إِذَا مَا النَّاسُ يَوْماً قَايَسُونَا … بِآبِدَةٍ مِنَ الفُتْيَا طَرِيفَهْ

أَتَيْنَاهُمْ بِمِقْيَاسٍ صَحِيحٍ … مُصِيبٍ مِنْ قِيَاسِ أَبِي حَنِيفَهْ

إِذَا سَمِعَ الفَقِيهُ بِهَا وَعَاهَا … وَأَوْدَعَهَا بِحِبْرٍ فِي صَحِيفَهْ

ومن ذلك: ألا تكثر العتاب والمحاسبة، وفي صحيح البخاري (باب من لم يواجه الناس بالعتاب) وذكر فيه حديث عائشة قَالَتْ صنع النبي صلى الله عليه وسلم شَيْئًا فَرَخَّصَ فِيهِ، فَتَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النبي صلى الله عليه وسلم، فَخَطَبَ، فَحَمِدَ اللَّهَ ثُمَّ قَالَ: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشيء أَصْنَعُهُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً)، ومن ذلك عدم الانتقام والتشفي، والانتصار للنفس.

رابعاً: عدم التعصب للمذهب: أو الطريقة أو الشيخ أو الجماعة أو الطائفة أو الحزب؛ ولهذا قيل: " حُبُّكَ الشيء يُعْمِي وَيُصِمُّ "، إن المتعصب أعمى، لا يعرف أعلى الوادي

من أسفله، ولا يستطيع أن يميز الحق من الباطل، وقد يتحول المتعصب بنفس الحرارة ونفس القوة من محب إلى مبغض؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في سنن الترمذي، ويروى مرفوعاً، والموقوف أصح: [أَحبب حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بغيضك يوماً ما، وَأَبْغضْ بغيضك هَونا ما عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يوماً مَا].

وقد يكون الغلو أحياناً، أو المبالغة، أو التعصب لأقوام، هم أشد ما يكونون بعداً عن ذلك وكراهية له، ولكنهم قد يُبتلون بمن يتعصب لهم أو يغلو فيهم، فهذا الإمام محمد بن يحيى النيسابوري أخذه الحزن على الإمام أحمد لما مات في بغداد؛ فقال حقٌّ على أهل كل بيت في بغداد أن يقيموا مناحة على موت الإمام أحمد؛ فقال الذهبي -رحمه الله-: إن النيسابوري تكلم بمقتضى الحزن، لا بمقتضى الشرع، وإلا فإن النياحة منهيٌّ عنها في الشريعة.

وقال بعضهم: في خُراسان يظنون أن الإمام أحمد من الملائكة، ليس من البشر.

وقال آخر: نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة.

قال الذهبي: هذا غلو لا ينبغي.

وقال محمد بن مصعب لسوط ضربه أحمد أكرم من أيام بشر الحافي كلها؛ فقال الذهبي بشر عظيم القدر كأحمد، ولا ندري وزن الأعمال، إنما هو عند الله تعالى، والله أعلم بذلك.

لقد كان الإمام أحمد -رحمه الله- رجلاً متواضعاً، بعيداً عن التكلف، ولكنَّ هذه الأشياء قد تخرج من أقوام في حالة انفعال في حزن أو غيره، وبكل حال فهي أقوال مرذولة ينبغي اطراحها والرد عليها وإنكارها، كما فعل الذهبي وغيره.

والتعصب يورث أحياناً نقيض ذلك، يورث ازدراء الآخرين ممن لا يدخلون معه في عصبيته، كما يروى عن بعض فقهاء الكوفة مثلاً أنه حج ونزل بالحجاز ولقي علماءها: عطاء وطاووس وسعيد بن جبير وغيرهم، فلما رجع إلى الكوفة قال: يا أهل

الكوفة! أبشروا فوالله لأنتم أهل فقه الزمان كله، لفقهاء الحجاز كلهم عطاء وطـاووس وسعيد مثل صبيانكم بل مثل صبيان صبيانكم

ولا أدري ما المراد بصبيان صبيانكم، يعني صبيانكم أفقه منهم.

وقال أحدهم عن ابن الجوزي وهو يعدد مثالبه وأخطاءه فيما يزعم قال: ما رأيـت أحداً يوثق بعلمه ودينه وعقله راضياً عنه.

فعلق الذهبي بقوله: إذا رضي الله عنه فلا اعتبار بهؤلاء.

إنك كثيراً ما تسمع التقليل من شأن فلان؛ لأنه ليس على مذهبنا, ليس على طريقتنا, ليس من جماعتنا، فلانٍ لا علم عنده, فلان ليس بشيء.

قال أبو نُعيم عن رجل بلغه أنه يدرس الحديث قال: ماله وللحديث هو بالتوراة أعلم، وهنا نقول: ربما يدرس المسلم التوراة ليعلم حقها من باطلها ومنسـوخها وصحيحـها ومُحرفها ويرد على أهل الكتاب، لكن لا ينبغي أن يُحال بين أحد وبين قـراءة السـنة النبوية، أو يُقال هو بالتوراة أعلم على سبيل الوقيعة بـه أو النيـل منـه، أو الازدراء والتنقص. (٢٧)

الحوار والبنية الفكرية الاجتماعية

لاشك أن غياب الحوار في الواقع الاجتماعي له عدة أسباب، بعضها ناشئ من خلل في الفهم الجمعي للمجتمع، وبالخصوص في حالة الرتب الاجتماعية، ومنشؤها التربيـة والتنشئة منذ الصغر، فكلمة استمع لمن هو أكبر منك واحترمه، وأطع أوامره دون إبداء الرأي، والمثل يقول (أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة)، ومن إشكاليات مثل هذه وغيرها، يتم تنشئة جيل مستمع جيد، ومطيع جيد، من السهل قيادته وتسييره، وفي سبيل إخضـاع

---

[٢٧]- سلمان بن فهد العودة، أخلاقيات الاختلاف، مرجع سابق.

المجتمع وترويضه، تتضافر عدة عوامل منها دينية وسياسية وتربوية، ونذكر بعض الأسباب والإشكاليات اللاتي تقف حجر عثرة في طريق الحوار:[٢٨]

١-التربية والتنشئة، فالتربية تكون على أساس من مصادرة الحرية، ومسخ الشخصية، فالطفل منذ الصغر تمسخ شخصيته ويصادر رأيه، ويمنع من التعبير عن آرائه حتى في الأمور التي تتعلق به مباشرة ويستمر ذلك حتى سن النضج، وما بعده، وهذا ينتج جيلاً مقسماً بين شخصية مستبدة، وأخرى ضعيفة.

٢- غياب ثقافة الحوار من المنظومة الاجتماعية، فيتم ممارسة الإلغاء، والإقصاء بين طبقات المجتمع ورتبه.

٣- ممارسة القيادات الاجتماعية تسلسل الاستبداد الطبقي، فكل يمارس الاستبداد على من هو دونه.

٤- التشنج وإغلاق الفكر اتجاه الرأي الآخر، وادعاء الحقيقة المطلقة (الدغمائية).

٥-العرف الاجتماعي والجمود عند الفكر الموروث، ورهبة المقدس الديني في غياب العقل والمنطق.

٦- الخوف على المكانة الاجتماعية، وسحب البساط من تحت أقدام المتنفذين، والمتسلطين سواء من التيار الديني أو السياسي.

ومن ثم فإنه لكي يتم الحوار البناء المثمر يجب علينا أن نركز على:

حسن الخطاب وعدم الاستفزاز وازدراء الغير، فالحوار غير الجدال، واحترام آراء الآخرين شرط نجاحه،[٢٩] ولنا في حوار الأنبياء مع أقوامهم أسوه حسنة، فموسى وهارون أمرا أن يقولا لفرعون قولا لينا لعله يذكر أو يخشى، وفي سورة سبأ يسوق

---

[٢٨]- حسين معتوق سياب، "الحوار والنقد، رؤية اجتماعية" في موقع قطيفيات. ٢٠٠٣/٧/٢٩.

[٢٩]- عبد الله حمدنا الله، جريدة المسلمون - عدد ٣٣٧-٨ المحرم ١٤١٢.

الله لنا أسلوبا لمخاطبة غير المسلمين، حيث يقول في معرض الحوار. ". وَإِنَّا أَوْ إِيَّـاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"(٢٤) سبأ" .

أن يصدر عن قاعدة قدرها علماء المسلمين وهى قاعدة "قولي صواب يحتمل الخطأ وقول غيري خطأ يحتمل الصواب " فالحق ضالة المؤمن، وضالة الإنسـان العـاقل، واتباع الغير واتباع الشهوات، مما عابه القرآن على الكافرين، وعده سببا لهلاك الأمم.

والذي يحسم الخلاف بين المسلمين هو المرجعية المعرفية للمسلمين، وهى القـرآن والسنة، "فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ" (٥٩)النساء.

وفي الفصل التالي نعرض لتصور مستقبلي لعالم بلا صراع مبني علـى الحـوار والتعايش السلمي مع الآخر.

الفصل السادس

الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي

تحديد دلالة التحدّي :

من مستلزمات الفهم السليم والإدراك الرشيد للمسائل والقضايا المطروحة على بساط البحث والدرس والنظر، التحديدُ الدقيق للمصطلحات والمفاهيم وَفْقاً لمنهج التحليل اللغوي الذي يرصد السياق اللفظيَّ للمفردات، ويقف على الدلالات والمعاني التي تنطوي عليها أو ترمز إليها.

ونحن هنا بإزاء مصطلحين اثنين، شاع رواجُهما في العقود الأخيرة، وفشا استخدامهما في سياقات عديدة، هما (التحدّي) و(الحضارة). وسعياً منا إلى الأخذ بالمنهج العلمي في المعالجة والبحث، يتعيّن علينا أن نضبط المفهوم اللغوي لمصطلح (التحدّي) ضبطاً دقيقاً أولاً، ثم مفهوم (الحضارة) ثانياً، حتى يستقيم لنا الفهمُ الموضوعيُّ لطبيعة الموضوع، الذي يؤدي بنا إلى أن يفهم بعضُنا عن بعض، دونما لبس أو خلط أو غموض.

ولعلَّ أول ما يجدر بنا أن نسجله ابتداءً، هو أن مصطلح (التحدّي)، بالدلالة اللغوية والثقافية والسياسية التي ينطوي عليها، وفي السياق الذي يُستخدم فيه على نطاق واسع في هذا العصر، هو من أساليب الكتابة الحديثة. وقد تقصَّيت في لسان العرب جذر (ح د. ا)، فوجدت : حداه وتحدّاه وتحرّاه بمعنى واحد، ومنه قول مجاهد : كنت أتحدَّى القُرّاء فأقرأ، أي أتعمّدهم. وهو حُدَيَّا الناس أي يتحدّاهم ويتعمّدهم. وعند الجوهري تحدَّيتُ فلاناً، إذا بارَيتُه، في فعل ونازعتُه الغَلَبَةَ. وعند ابن سيده : تحدَّى الرجل تعمّده. وتحدّاه بَاراَهُ ونازعه الغلبة. ووجدت في معجم مقاييس اللغة : فلان يتحدَّى فلاناً، إذ كان يُبَاريه وينازعه الغلبة، وفي الصحاح : تحدّيت فلاناً، إذا باريتُه في فعل ونازعتُه فيه، وفي أساس البلاغة : تحدَّى فلان أقرانَه إذا بَاراَهم الغلبة، وتحدّى رسول اللَّه ﷺ العربَ بالقرآن.

وقلّبت في المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية في القاهرة فوجدت في جذر (ح. د. أ) أيضاً : تحدّى الشيء حداه ــ وفلاناً طلب مباراتَه في الأمر.

ووجدت في (الهادي إلى لغة العرب) لحسن الكرمي، وهو من أحدث المعاجم العربية : تحدّى الشيء تعمّده، وتحدّى الرجل صاحبَهُ الشعرَ أو الصراعَ، أي بَاراَهُ لينظر أيهما أشعر أو أصرع.

وإذا تأملنا ملياً هذه المعاني جميعاً، نستطيع أن نستنتج أن فعل (تحدّى يتحدّى تحدّياً)، لفظاً ومعنًى، يفيد دلالة رئيسةَ هي المباراة في الأمر، ومنازعة الغلبة، والمبارزة، والمواجهة. وبهذا المفهوم يستعمل هذا المصدرُ في الكتابة العربية الحديثة، وهو من المفاهيم التي سادت الحياة العقلية والثقافية في النصف الثاني من هذا القرن، إذ لم يكن هذا المصطلح المشحون بهذه الحمولة اللغوية، والمعبّأ بهذه الدلالات والمعاني جميعاً، متداولاً في مطالع عصر اليقظة والانبعاث في الوطن العربي الإسلامي، في الكتابات الأدبية والعلمية والسياسية، لأعلام ذلك العصر. وما جاء في بيت لحافظ إبراهيم عن التحدّي، له معنى محدود، إذ قال من قصيدة له عن مصر، مطلعها :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبني قواعد المجد وحدي

وبُناة الأهرام في سالف الدهر كفوني الكلامَ عند التحدّي

مفهوم الحضارة

وأما الحضارة، فهي من (حضر حضوراً وحضارة)، جاء في لسان العرب : الحضارة الإقامة في الحضر. وفي تاج العروس الحِضارة بالكسر الإقامة في الحضر. وكان الأصمعي يقول الحَضارة بالفتح، قال القطامي

فمن تكن الحَضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا

ويأخذ ابن خلدون بهذا المعنى، فيعقد فصلاً في المقدمة بعنوان " الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره"، يقول فيه إن الحضارة غاية البداوة، وأن العمران كله من بداوة

وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس. ويقول أيضاً في موضع آخر من هذا الفصل : "والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل". ويقول في موضع آخر : "الحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل"

فالحضارة لغةً الإقامة في الحضر. واصطلاحاً، هي الإبداعُ البشريُ في مختلف حقول النشاط الإنساني الذي ينتج عنه التقدمُ في مسيرة الإنسان على هذه الأرض من النواحي كافة. فالحضارة هي نتاج عقل الإنسان وجهدُه في زمان معلوم ومكان محدد. والحضارةُ الإنسانية، إنما هي حضارات تداخلت وتكاملت وتلاقحت عبر الأزمنة والدهور، ساهمت فيه الأمم والشعوب؛ إذ أن لكل أمة حضارةٌ تسمو أوتسف، تزدهر أو تنهار، بحسب التزام أمة من الأمم بشروط الفعل الحضاري الذي ينشد دائماً العلوّ والسموّ، ويرتقي إلى الكمال.

ومفهوم الحضارة عند المفكر المسلم مالك بن نبي، فعلٌ تركيبي قوامُه : (الإنسان + التراب + الزمن) : الإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً، والتراب بخضوعه لضرورات فنية معينة، والزمن بإدماجه ضمن العمليات الاقتصادية والصناعية والاجتماعية. ومن هذه العناصر الثلاثة تتحقق الحضارةُ عند مالك بن نبي.

وللرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش، رأيُ نفيسٌ في الحضارة، يقول فيه : (إن الحضارة تُعَلِّمُ، أما الثقافة فتنوِّرُ، تحتاج الأولى إلى تعلُّم، أما الثانية فتحتاج إلى تأمل).

ويتساءل الدكتور يوسف القرضاوي في أحدث كتاب له، هل للحضارة في الإسلام مفهومٌ خاص تتميّز به عن غيرها من الحضارات السابقة واللاحقة، التي عرفها الناس في الشرق والغرب ؟، أو أن جوهر الحضارات واحد، وإن اختلفت أقطارها، وتباعدت أعصارها، وتباينت أجناس صنّاع الحضارة وعقائدهم وفلسفاتهم في الحياة ؟. ويخلص بعد ذلك إلى القول إن هناك معنىً عاماً للحضارة يُفهم من مدلول الكلمة نفسها، وهو

جملة مظاهر الرقي المادي والعلمي والفني والأدبي والاجتماعي، في مجتمع من المجتمعات، أو في مجتمعات متشابهة. ويحدّد الدكتور يوسف القرضاوي ثلاثة مستويات للمفهوم الإسلامي للحضارة، وهي : الفقه الحضاري، والسلوك الحضاري، والبناء الحضاري.

والذي ذهب إليه الدكتور يوسف القرضاوي هو الفهمُ الصحيح لمعنى الحضارة ومدلولها ؛ فلكل مجتمع حضارته التي هي جوهر خصوصياته ومميزاته، وخلاصة مقوماته ومكوّناته. فالحضارة هي الهوية، وهذا المفهوم يتعارض مع ما يعرف في الدراسات الغربية (بوحدة الحضارة)، ويقصدون بها الحضارة الغربية، وهي النظرية التي ينتقدها المؤرخ أرنولد توينبي، إذ يقول : «وما نظرية وحدة الحضارة هذه، إلاّ رأي خاطئ، تردّى فيه المؤرخون الغربيون المحدثون تحت تأثير محيطهم الاجتماعي، وأوحى به مظهر الحضارة الغربية الخدّاع.

إن الحضارة بهذا المعنى الواسع العميق، هي تحدٍّ دائمٌ لعوادي الأيام، ولمشكلات الحياة، ولعناصر التلاشي والفساد، ولعوامل النقص والعجز. فما من حضارة، إلا وهي تتحدّى على الدوام من أجل أن تبقى، فإذا لم تتحدَّ، تراجعت، وتضاءلت، وانهارت، مثلما انهارت حضارات قامت وسادت ثم بادت

طبيعة التحدي الحضاري المعاصر :

ولا تشذُّ الحضارة الإنسانية في هذا العصر، عن هذه القاعدة المطردة، ولكنها تفوق الحضارات السابقة، بل تتميّز عنها، بأن حجم التحديات فيها، للعقل البشري، وللفطرة الإنسانية السوية، تزيد في قوتها وعنفوانها ــ وجبروتها رطغيانها أيضاً ــ عن كل ما عرفه الإنسانُ من تحدّياتٍ في العصور الماضية.

ولكن من الحقائق الثابتة التي لا تقبل الجدل، أن من أكبر التحديات الحضارية في هذا العصر، التحديّ العلميّ، بكل المعاني العميقة التي يُوحي بها، وبجميع مفاهيم العلم ودلالاته، فهو تحدٍّ علميٌّ اقتصادي، وتحدٍّ علميٌّ سياسيّ، وتحدٍّ علميٌّ إداريّ، وتحدٍّ

علميٌ ثقافي، وتحدٍ علميٌ إعلاميٌ، على اعتبار أن مصدر هذا التحدي الأكبر، هو التفوّقُ في العلم إلى أبعد المدى، والارتقاء في مدارجه إلى أعلى المستويات.

ولربما كان هذا الطرح في حاجةٍ إلى مزيد من البيان ؛ فنحن نقول بالتحديات السياسية، وبالتحديات الاقتصادية، وبالتحديات الثقافية، وبالتحديات الإعلامية، والحالة أن هذه التحديات جميعَها، ناشئةٌ عن التفوّق الهائل في العلوم الحديثة الجامعة، سواء أكانت علوماً إنسانية، أم علوماً أساسية، أو العلوم التطبيقية الصرف.

وزبدة القول في هذا المقام، أن التحديات الحضارية، إنما هي مجموع التحديات الموماً إليها سابقاً؛ فهي ليست شيئاً هلامياً أو أمراً خيالياً، ولكنها تحديات واقعية تنبع من الواقع المعاصر، وتنشأ من الحقائق التي يعيشها البشر فوق الأرض، وهي لذلك تحديات تجمع بين ما هو ذو طابع سياسي واقتصادي، وبين ما هو ذو صبغة ثقافية وفكرية.

وعلى هذا الأساس الثابت، ومن منطلقه، نقول إن التحديَ الحضاريَ الذي يواجه الأمة الإسلامية اليوم، هو التحديُ الحضاريُ ذاتُه الذي سيواجهها في المستقبل في المدَيَيْن القريب والبعيد. وفي جميع الأحوال، فإن مدار الأمر كله هو حول الإبداع في العلم، والتفوّق في حقوله كلّها.

إنّ التقدم في مجالات إدارة شؤون الدولة، وتدبير الاقتصاد، وضمان الاستقرار الاجتماعي، يقوم على قاعدة علمية محض، قبل أن ينشأ عن الأخذ باتجاهات نظرية أو اختيارات فلسفية، وإن الدول التي قامت على الأساس الإيديولوجي في هذا العصر، تلاشى أمرها، بعد أن بلغت شأواً بعيداً في التستّر على الفشل والإخفاق. ولذلك فإن قوة الغرب اليوم، تكمن في أخذه بالعلم منهجاً وأسلوباً لإدارة شؤون الحياة كلّها. وتحضرني هنا مقولةٌ حكيمةٌ للرئيس البوسني عليّ عزت بيجوفيتش، مفادُها أن الغرب ليس فاسداً كلُّه، لأن القوة لا تجتمع مع الفساد.

لقد درجنا، ومنذ مطالع هذا القرن، في كتابات مفكرينا وأدبيّات مثقفينا وتحليلات السّاسة والمنظّرين، على وصم الحضارة الغربية على إطلاقها، بالضعف والخور،

ودمغها بالفساد. وهذا يخالف حقائق الأمور؛ فهذه الحضارة التي تبسط جناحَيْها اليوم على البشرية، هي حضارةٌ قوية، وحضارةٌ متفوّقة، وحضارة مبدعة، وحضارة تسمو بالعقل الإنساني، وتحترم الإبداع البشري، وتنزع نحو الدقة والنظامّ والانضباط ولاحترام الوقت، وتقوم على تسخير القوى الكامنة في الإنسان، وفي الكون وفي الطبيعة، لتعمير الأرض، ولبناء قواعد الحياة الإنسانية التي يسعد فيها بنو البشر، بغض النظر عن التفرقة العنصرية التي تطبع سياسات بعض الحكومات والدول والمؤسّسات في الغرب.

ونحن مع إقرارنا بهذا التفوّق وهذه القوة، وتسليمنا بهذه القدرات والإمكانات، لا يمكن لنا أن نغض الطرف عن مظاهر الانحراف الفكري والسلوكي التي تسود هذه الحضارة، ونردّ هذه الظواهر السلبية إلى أصولها التي نرى أنها تكمن في طغيان الجانب المادي والمصلحي في هذه الحضارة، على الجانب الروحي والقيمي.

ولكننا مع ذلك كلّه، لا نملك إلاّ أن نعترف بأن قوة الغرب تنبع من قوة حضارته، وهي قوة العلم الآخذ بأسباب التدبير الرشيد للموارد، والتسيير المحكم لشؤون الحياة، والتعمير في الأرض.

وهذا في رأينا، هو التحديُ الحضاريُ الأكبر الذي يواجهنا، والذي يتعيّن علينا أن نرتقي إلى مستوى مواجهته. ولن نصل إلى هذا المستوى، إلاّ إذا اتبعنا سنن اللّه في خلقه وكونه. وهي بالمناسبة، السنن ذاتُها التي أخذت بها الحضارة الغربية لترتقي إلى هذه الذروة، ولتكون لها هذه الهيمنة على الأرض، وهذه السيادة على البشرية، في هذه الحقبة التاريخية.

شروط مواجهة التحدّي الحضاري :

إذا أخذنا بمنطق العلم ذاته، فإن التحديَ الحضاريَ لا يُواجَه إلا بتحدٍّ حضاريٍ متكافئ له، ومتوازٍ معه. فهل نحن في المقام الذي يهيّئ لنا أن نردّ التحديَ الحضاريَ الذي يواجهنا اليوم، بتحدٍّ مماثل له؟.

إن طرح هذا السؤال، وأسئلة كثيرة تتفرع عنه، سيعود بنا إلى سبعين سنة قد خلت من قبل، عندما كان رواد النهضة العربية الإسلامية، يرددون مثل هذا السؤال المحيّر للألباب المثير للشجون : (لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرُهم؟). وكان من الأصوب أن يُصاغ السؤال، الذي أصبح شعاراً لمرحلة خلت، بترتيب مخالف، بحيث يسبق (التقدّم) (التأخر).

ونحن في معرض تناولنا لشروط مواجهة التحدّي، لن نسمح لأنفسنا بأن تستغرقنا مثل هذه الأسئلة التي للأسف لم تعرف أجوبة مقنعة شافية للغليل. ونكتفي بالقول في هذا السياق، إن شروط هذه المواجهة، إنما هي شروط النهضة، بمدلولاتها العميقة، وبمفاهيمها الشاملة. ونلخصها في شروط ثلاثةٍ نراها أشدّ إلحاحاً وأكثر حيوية وأعمق تأثيراً :

أولاً : تحديث المناهج التعليمية، وتطوير النظم التربوية

إن التفوق في العلم، إنما ينشأ من الارتقاء في التربية والتقدم في التعليم. والعلم في الجملة يبدأ من تطويع مَلَكَة الفهم والاستيعاب والتعقل والتبصّر، وصقلها صقلاً يفجّر طاقتها. والتربية تسبق التعليم في مرحلة، ثم يتوازيان فيما يستقبله المرءُ من مراحل التحصيل والتكوين والتأهيل. ولن يؤدي التعليم وظيفته كاملة، وعلى النحو الذي يؤثّر إيجابياً وعميقاً في المجتمع، إذا لم يكن مقروناً بالتربية التي ليست هي دائماً، و في جميع الأحوال، التربيةَ الدينية، أو التربية الأخلاقية، أو التربية الوطنية، فحسب، وإنما هي إلى ذلك كلّه، التربيةُ العقلية، والتربية النفسية، والتربية العلمية، إذا صحّ التعبير، وهو صحيحٌ فيما نرى من الوجوه كافة. وهذا الضربُ من التربية الشاملة البانية الهادفة، هو الذي يهيّئ لنا الأجيال المؤهّلة للإسهام في العملية التي نسمّيها تجديد البناء الحضاري للأمة الإسلامية.

ولسنا في حاجةٍ إلى القول إن المناهج التعليمية والنظم التربوية في معظم أقطارنا، في شديد الحاجة إلى التجديد والتحديث والتطوير، حتى يكون التعليم منتجاً، ومُجدياً،

وفاعلاً، ومؤثّراً في حياة المجتمع من جميع النواحي. وليس من شك في أن القيام بهذه العملية على النطاق الأوسع، هو شرطُ ضرورة، بل هو فرضُ عينٍ على الجميع؛ ذلك أنه على الرغم من مضيِّ عقود من السنين على انتظام التعليم في البلدان العربية الإسلامية وَفْقاً للنظم الحديثة، فإن التعليم عندنا لم يساير في الغالب الأعم، التطورَ الذي عرفته هذه النظم، ولم ينفذ إلى العمق، وإنما ظل، في معظم الأحيان، سطحياً، ومقلداً لمراحل سابقة تجَاوزَهَا العصر.

إن التعليم هو العنصر الأشدّ حيويةً والعامل الأقوى في تقدم الأمم وتطور الشعوب وارتقاء الدول وامتلاكها لأسباب القوة. وإن حقائق العصر، لتؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك، أن قوة الحضارة الغربية، إنما جاءت من التركيز على التعليم، ومن الابتعاد به عن معترك الصراع السياسي أو التنافس بين الأطراف المتطلعة نحو تحقيق المصالح الآنية. ولذلك فإن التعليم القويَّ البنَّاء الهادف، هو شرطٌ لازمٌ من شروط المواجهة الحضارية، مع تحديات الحاضر والمستقبل.

ثانياً: دعم البحث العلمي في جميع حقول المعرفة

ويقتضي هذا الدعم في المقام الأول، إيلاء أكبر الاهتمام بالعلوم البحتة، وتخصيص نِسَبٍ أعلى في موازنات الحكومات، للإنفاق على البحوث والدراسات العلمية، وتوفير الأجواء الملائمة للباحثين والدارسين في الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث، للانقطاع الكامل للحياة العلمية، في مناخٍ ثقافيٍّ يشجع على حرية البحث والتأمل والدرس، ويزدهر فيه الإبداع والابتكار.

وتُثار هنا مسألةٌ في غاية الأهمية، وهي أن رعاية البحث العلمي ودعمه وتشجيعه، لا يمكن أن تبقى دائماً من اختصاص الحكومات التي يُثْقَلُ كاهلُها بالإنفاق على التعليم في مختلف مراحله، وهو إنفاقٌ مكلف كما نعلم، وإنما لابد من أن تنزل مؤسسات القطاع الخاص، إلى ساحة المعترك العلمي، لتساهم في النهوض بمسؤوليات الإنفاق على البحث العلمي، سواء في ميادينه التقليدية، كالجامعات والمعاهد ومراكز البحوث

والدراسات، أو في المؤسسات الاقتصادية والصناعية والطبية والزراعيـــة والتجاريـــة ذاتها. وبذلك تحدث حالةٌ من التوازن في المجتمع ؛ فلا تبقى الحكومات وحدها ملزمـــة بالإنفاق على البحث العلمي، ولكن تدخل مؤسسات القطاع الخاص شريكاً لها في ذلـك. بل إن المطلوب هو أن تتعدّى مساهمة القطاع الخاص في هذا الإنفاق، النسبةَ التي تلتزم بها الحكومات. ونذكر في هذا الصدد أن القسط الأكبر من تكاليف البحث العلمـــي فـــي الغرب، تتكفّل به مؤسسات القطاع الخاص. بل إن الاتجاه الآن يسير نحـــو أن تتولـــى المؤسسات الصناعية الكبرى التعليمَ الجامعي برمته. ونحن نعلم أن معظم الجامعات في الغرب تابعة للقطاع الخاص، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان، وأن في بعض الدول الأوروبية تنفق البلديات أو الكنائس على الجامعات، ولا تتبـــع الجامعـــات الجهات الحكومية، إلا فيما يخصّ وضع المناهج والمقررات والنُظُم. وهذا النظام هـــو الذي كان متبعاً ومعمولاً به في حضارتنا الإسلامية على مرّ العصور، حين كان الوقف الإسلامي يقوم برسالته في رعاية المؤسســـات التعليميـــة، وغيرهـــا مـــن مؤسســـات المجتمعات الإسلامية.

إن الاجتهاد في البحث العلمي والإبداع والتفوّق فيه، شرطٌ مؤكدٌ مـــن شـــروط ردّ التحدّي الحضاري، فالعلم، كما أسلفنا القول، هو الذي يصنع الحضـــارة، وهـــو الـــذي يصوغ مستقبل البشرية.

ثالثاً : تجديد أساليب الحياة العامة

يندرج تحت هذا الشرط الإصلاحُ السياسيُ والاقتصـــاديُ فـــي ناحيتَيْـــه النظريـــة والتنفيذية؛ إذ لا يمكن أن تتطور مناهج التربية والتعليم، ويقع الاهتمام بالبحث العلمـــي، ويُدعم ويُشجَّع وتُعطى له الأهمية القصوى في سلم الأولويات، إذا ظلت الأوضاع العامة في معظم البلدان العربية الإسلامية، على هذا المستوى من الضعف والتهلـــهل وعـــدم الاستقرار، والتراوح بين التجارب السياسية والاقتصادية التي ثبت فشلُها وتأكّد تهافتـــها، فلابد من إصلاحات عميقة تُعيد الاعتبار للإرادة الإنسانية الحرة، وتشيع أجواء الثقـــة،

وتبعث الحماسة، وتحيي الآمال، وتطفئ من نيران السخط والقلق، وتبدّد غيوم الخوف والفزع، وتقضي على التردّد والإحجام عن المشاركة في الشؤون العامة للمجتمع ؛ ذلك أن العلم لا يزدهر إلاّ في بيئة نظيفة، يمارس فيها وظائفه، ويؤدي إلى اكتساب القوة وامتلاك القدرة على التفوّق والعلوّ في الأرض بالحق.

وليس في مكنتنا أن نواجه التحديّ الحضاري، في ظل أوضاع تتخبط في مشاكل لا نهاية لها، تغرق فيها المجتمعات العربية الإسلامية، إلا القليل منها. فردُ التحدي إذن، هو قوةٌ حضاريةٌ، والقوةُ لا تنشأ من ضعف وفقر وعوز وحرمان. ومن أجل هذا كان تجديدُ أساليب ممارستنا لحياتنا الخاصة والعامة، شرطاً من شروط مواجهة التحديات التي تواجهنا اليوم، والتي تنتظرنا غداً.

إن بناء المستقبل الحضاري للعالم الإسلامي، لابد وأن يقوم على قواعد راسخة، أقواها هي قاعدةُ تجديد أساليب الحياة العامة في المجالات والمرافق كافة. وحياة المسلمين اليوم، هي في أشدّ الحاجة إلى التجديد الشامل، العميق، الذي لا يغادر شأناً من شؤون الفرد والمجتمع، ولا يترك أمراً من أمور الحياة، إلا وأتى عليها لإصلاحها، ذلك الإصلاح الجدّي الذي يبدأ من جذور المشاكل وفقاً لمنهجية علمية، وفي إطار من الحكمة وحسن التدبير.

إنّ هناك ترابطاً وتلازماً بين الشروط الثلاثة الآنفة الذكر، لا يمكن أن نخلّ بأحد منها، إذا أردنا أن ندخل معترك الحياة المعاصرة بقدرات أكبر وبإمكانات أوفر، فمواجهةُ التحدي، والتدافع معه، يتطلبان معايشة هذا التحدي، والدخولَ معه في جدل واقعيّ عملي.

إن حياتنا العامة على صعيد العالم الإسلامي، تحتاج منا إلى ترشيدٍ فكريٍ وثقافيٍّ، يستند إلى قيم الحضارة الإسلامية، وما إصلاح الأوضاع التعليمية والتربوية والعلمية، إلاّ جزء من الإصلاح السياسي والاقتصادي الشامل الذي هو من الشروط الضرورية لبلوغ المستوى الذي ننشده من القوّة والاقتدار.

إن منشأ الضعف العام الذي يعتري الكيانَ العربيَّ الإسلاميَّ يعود، في أبرز وجوهه، إلى أننا في مجتمعاتنا العربية الإسلامية نعيش مجتمعَيْن متغايرين، ونحيا حياة منفصلة بين أنماط متغايرة في الفكر والسلوك والنشاط الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية والأبنية التنظيمية والمؤسسات، وهذا يقيم شرخاً رأسياً في المجتمع، يفصم أبنيته وقواه، ويضع كلاً أولائك في تضادٍ وتعارض بعضهم مع بعض. وما ينبغي أن يكون عليه الوضعُ في البلاد العربية الإسلامية، هو تعديل ميزان الأمور كلّها، وتصحيح المقاييس، واعتماد المنهج العلمي أداةً ووسيلةً لعلاج الأدوات الاجتماعية والمشكلات الاقتصادية، وتقويم الأوضاع كلّها وترشيدها. فلن نقدر على مواجهة التحديات التي تحيط بنا اليوم، والتي ستحاصرنا في القريب، ونحن على هذه الحالة من التردد في اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، والتمزق في الانتماءات الفكرية والثقافية، والضعف أمام التصدّي للمعوّقات والمثبّطات والعراقيل.

الخلاصة :

إننا لا نرسم هنا صورة قاتمة تحجب عنا الرؤية إلى حاضرنا ومستقبلنا، فمهما يكن من أمرنا اليوم، فلا أحد يستطيع أن ينكر علينا، أننا نملك مقومات إثبات الذات، وفرض الوجود، والتزاحم في ساحة التدافع الحضاري.

إننا أمةٌ حيّةٌ تملك إرثاً ـــ ولا أقول تراثاً ـــ حيّاً. فإرثنا حيٌّ فينا، هو ديننا وثقافتنا وحضارتنا وأمجاد تاريخنا. ولا يردُّ أحد هنا بأن أمجاد التاريخ لا تجدي نفعاً اليوم، لأن تاريخنا هو رصيدٌ دائم لا ينفد، يمدّنا بالأمل والقوة العقلية والنفسية، وبالثقة بالنفس.

ولقد كان من بشائر النهضة الإسلامية في هذا العصر، أن اهتدى العالم الإسلامي إلى إنشاء جهاز إسلامي دولي عُهد إليه بالقيام بعمل حضاري كبير لـه صلـةٌ بهذه المحاور جميعاً، ألا وهو المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، التي تأسست في سنة ١٩٨٢، والتي حققت حصيلة وافرة من الإنجازات، نخصُّ منها بالذكر وضعها لثلاث استراتيجيات حضارية كبرى :

ـــــ أولاها هي استراتيجية تطوير التربية في البلاد الإسلامية].

ـــــ وثانيتها هي الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي].

ـــــ وثالثتها هي استراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية].

. وهذه الاستراتيجية الأخيرة، صادق عليها مؤتمر القمة الإسلامي الثامن الذي عقد في طهران بإيران، في الفترة ما بين ١١ - ٩ ديسمبر ١٩٩٧.

ولقد اكتملت اليوم العناصر الثلاثة التي تكوّن استراتيجيةَ المعرفة للعالم الإسلامي كلّه.وهذا إنجازٌ بالغُ الأهمية، عظيم النفع، ولكنه، يحتاج إلى إرادة قوية للتنفيذ. وتلك هي مسؤوليات حكومات بلدان العالم الإسلامي، وهي أيضاً مسؤوليةُ كل المساهمين في تنمية المجتمعات الإسلامية، من جامعات ومعاهد، وقطاع خاص، ومنظمات، ومؤسسات، وجمعيات، واتحادات، وصحافة وإعلام.

والحق أن هذه الاستراتيجيات الثلاث التي تختص بالتربية والعلوم والثقافة، والتي تكوّن معاً استراتيجيةَ المعرفة، هي إحدى الأدوات الفاعلة والمؤثرة في ردّ التحدي الحضاري، بكل المعاني والدلالات التي يوحي بها هذا التحدي، سواء بالمعنى اللفظي أو بالمفهوم المصطلحي. وهي إلى ذلك تشكّل الإطار المعرفيّ للنهضة التربوية والعلمية والثقافية، الذي يحدّد معالم الطريق أمام واضعي السياسات الوطنية في هذه المجالات الحيوية الهامة.

ونخلص من هذا كلّه، إلى أننا لا نقف في العراء، وإنما نحن نقف على أرضية ثابتة، ونستند إلى رصيد زاخر، ولا تعوزنا سوى إرادة الفعل الحضاري المؤثّر، حتى نستطيع أن نواجه التحدي الحضاري، وذلك يقتضي منا أن نطور مناهجنا وبرامجنا التعليمية والتربوية، وأن ندعم البحث العلمي ونضاعف الإنفاق عليه، ونجعل له الأولوية في سياساتنا الوطنية، وأن نقوي تعاوننا المشترك في هذه المجالات كلها، وأن نغيّر

ونطوّر ونجدّد من حياتنا العامة حتى تستقيم على سواء السبيل، وحتى تنسجم مع قيمنا ومبادئنا، وبذلك نصبح أقدر على مواجهة كل التحديات، في حاضرنا، وفي مستقبلنا.

إن الغرب يحسب للعالم العربي الإسلامي حساباً دقيقاً. وتبذل حالياً جهود علمية وأكاديمية في رصد كل ما يجري في بلداننا العربية الإسلامية. ولا تخفي دوائر الدراسات الاستراتيجية في الغرب تخوّفها من الإسلام وحضارته، واعتقادها أن العالم العربي الإسلامي يمثّل تحدياً مستقبلياً للحضارة الغربية. يقول الكاتبان جراهام إي. فوللر، وإيان أو. ليسر، في كتابهما المشترك "الإسلام والغرب : بين التعاون والمواجهة"، في فصل بعنوان : "المعضلات العصرية التي يفرضها العالم الإسلامي على الغرب"، : >هناك ضرب فريد من تحديّات السياسة الخارجية والأمنية لفترة ما بعد الحرب الباردة التي يواجهها الغرب، وهو ضرب له بعدٌ إسلامي. ولكن هذا لا يعني تلقائياً، أن الإسلام ذاته يمثل تحدياً موحداً أمام الغرب. بيد أن قوّة وتباين أسباب قلق الغرب واحتمال أن تتداخل أسباب القلق هذه مع تصورات المسلمين، إنما تشير إلى مستقبل يُرجّح فيه أن يغدو العامل الإسلامي أكثر بروزاً في الشؤون الدولية بعامّة، وفي الأمن الغربي بخاصّة.

وأيّاً كانت الدوافع التي تحفز الغرب إلى اتخاذ موقف الحذر والتوجس من العالم العربي الإسلامي، وأيّاً كانت الزوايا التي ينظر منها المفكرون والاستراتيجيون الغربيون إلى القضايا العربية الإسلامية على وجه الإجمال، فإن الأمر المؤكّد والمقطوع به، هو أن التحدّي الأكبر الذي يواجهنا باعتبارنا أمة عربية إسلامية، هو اعتبار الغرب لنا أننا نمثّل تحدياً له، يعدّ له العدّة الكافية للتعامل معه ولمواجهته بما يحفظ مصالحه الكاملة. وهو الأمر الذي يقتضينا أن نجدّد حياتنا بجديّة أكثر وبهمّة أقوى، وأن نصلح من أحوالنا، حتى نكون في المستوى الذي يتطلبه البناء القوي المتين للمستقبل، وعلى قدرة كافيّة لمواجهة التحدّي الحضاري بكل ضروبه، وعلى مختلف مستوياته

الفَصْلُ السَّابِعُ

قراءات للمناقشة

قوانين حماية المرأة في المواثيق العالمية والشريعة الإسلامية[1] :

تنطلق كل من الشريعة الإسلامية والمواثيق الدولية في مسألة حماية الأفراد من منطلق حقوق الإنسان، ويستمد كل منهما شرعيته في مسألة الحقوق من مرجعية ذات أصول فكرية وعقدية متباينة.

وتقتضي منا المقارنة عند تناول قوانين حماية المرأة في كل من النظامين الإسلامي والدولي، بيان المنهجية والأسس التي تشكل المنطلقات الرئيسة في التعامل مع التشريعات ذات العلاقة بحماية المرأة، والتي ينبغي الإشارة إليها:

- الحقوق في الشريعة الإسلامية تعتمد الكتاب والسنة كمرجعية شاملة، وتدور الحريات في فلك حفظ مصالح الفرد والمجتمع، بينما تستمد الحقوق في المواثيق الدولية من العلمانية التي ترفض الدين وتسعى لإلغاء أثره نهائيًا في المجتمعات الإنسانية.

الشريعة الإسلامية تعطي المرأة حقوقًا وتكلفها بواجبات، في حين أن المواثيق الدولية تركز على حقوق المرأة دون ذكر للواجبات، وتنظر إلى المرأة كفرد قائم بذاته، وفي حالة صراع وتنافس دائم مع الرجل.

- المواثيق الدولية تتعامل في تشريعاتها مع المرأة كفرد مستقل عن غيره، أما الإسلام فهو ينظر إلى المرأة والرجل ضمن مؤسسة الأسرة، وينظر إليهما وإلى الأسرة من خلال المصلحة العامة للمجتمع.

- تنطلق المواثيق الدولية من رؤية منهجية مستمدة من فكر الحركة الأنثوية (feminism)، وهي من أقوى الحركات الفكرية التي ترعرعت في ظل النظام العالمي الجديد، وتمارس هيمنتها عبر منظمات الأمم المتحدة ومؤسسات المجتمع

---

[1] د.نوره بنت عبد الله بن عدوان،(١٩٩٥) "قوانين حماية المرأة في المواثيق العالمية والشريعة الإسلامية"حقوق المرأة في التشريع والشريعة الإسلامية،

المدني، وتسعى لإحداث عمليات التغيير الثقافي والاجتماعي وعولمة القوانين والتشريعات المتعلقة بالمرأة عبر الدساتير والمواثيق الدولية.

- ترفض المواثيق الدولية حقيقة وجود اختلاف أو تمايز بين الجنسين، وتتبنى مصطلح النوع الاجتماعي (Gender) بديلاً لمصطلح ذكر وأنثى، وذلك لإلغاء جميع التشريعات والمفاهيم المترتبة على الجنس، والدعوة إلى تماثل المرأة التام مع الرجل في الأدوار والموارد والمسؤوليات، في حين أن الإسلام ينطلق في تشريعاته من وجود فروق جوهرية بين الرجل والمرأة تحقق لكل منهما وظيفته في الحياة، وتجعل كلاً منهما مكملاً للآخر.

ومن أهم المواثيق الدولية المتعلقة بالمرأة وحقوقها ما صدر عن مؤتمرات الأمم المتحدة الآتية:

- مؤتمر مكسيكو لعقد الأمم المتحدة للمرأة: المساواة والتنمية والسلام، المكسيك عام ١٩٧٥م. اعتمد فيه أول خطة عالمية متعلقة بوضع المرأة على المستوى الحكومي وغير الحكومي في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.
- مؤتمر الجمعية العامة للأمم المتحدة: القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، عام ١٩٧٩م. وخرج المؤتمر باتفاقية ملزمة للدول التي توافق عليها إما بتصديقها أو بالانضمام إليها، وقد نصت على إبطال جميع القوانين والأعراف دون استثناء لتلك التي تقوم على أساس ديني، واستبدل بها قوانين دولية[٢].
- المؤتمر العالمي لعقد الأمم المتحدة للمرأة: المساواة والتنمية والسلام، كوبنهاجن، الدانمارك عام ١٩٨٠م. لاستعراض وتقويم ما أنجز في توصيات مؤتمر المكسيك وتطويرها.

---

[٢] العبد الكريم فواد(١٤٢٠هـ) (قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية، دراسة نقدية في ضوء الإسلام)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

- المؤتمر العالمي لاستعراض وتقويم منجزات الأمم المتحدة للمرأة: المساواة والتنمية والسلم، نيروبي عام ١٩٨٥م. ووضع فيه استراتيجيات نيروبي للنهوض بالمرأة(٣).
- المؤتمر العالمي المعني بالمرأة في بكين عام ١٩٩٥م. وقد دعا المؤتمر بصراحة إلى عدد من الأمور التي تخالف الفطرة والشرع، ومنها: الدعوة إلى فتح باب العلاقات الجنسية المحرمة، والسماح بالإجهاض، وتحديد النسل، ومنع الزواج المبكر، وإباحة الزواج اللانمطي (رجل + رجل أو امرأة + امرأة) والدعوة إلى الاعتراف بالشواذ، والتركيز على التعليم المختلط بين الجنسين وتطويره والقضاء على أي فوارق بين الرجل والمرأة.
- مؤتمر الأمم المتحدة للمرأة: للمساواة والتنمية والسلام، نيويورك عام ٢٠٠٠م. وقد تضمنت وثيقة المؤتمر: الدعوة إلى الحرية الجنسية، والإباحية للمراهقين والمراهقات، والتبكير بها مع تأخير سن الزواج، وأوجدوا مسمى جديدًا للداعرات وهو (عاملات الجنس) وتشجيع جميع أنواع العلاقات خارج إطار الأسرة الشرعية (للرجل والمرأة) وتهميش دور الزواج في بناء الأسرة، والسماح بزواج الشواذ من الجنس نفسه، وفرض مفهوم المساواة الشكلي المطلق بين الجنسين في جميع النواحي، والمطالبة بإلغاء التحفظات التي أبدتها بعض الدول الإسلامية على وثيقة بكين. ويعتبر أهم هدف في هذا المؤتمر هو الوصول إلى صيغة نهائية ملزمة للدول بخصوص القضايا المطروحة على أجندة هذا المؤتمر، والتي صدرت بحقها توصيات ومقررات في المؤتمرات الدولية السابقة تحت إشراف الأمم المتحدة.
- وفي مناقشتنا لما يقدمه كل من النظامين الإسلامي والدولي للمرأة من حماية، ينبغي ألا تحجب الرؤية عن العديد من المواضيع المتفق عليها بحكم التلاقي الإنساني العام في المسائل التي لا تمس، القضايا الفكرية الأساسية في الغرب،

٣) هيئة الأمم المتحدة، الوثائق الدولية على الموقع www.un.org/ arabic/documents.

كالمساواة بين الرجل والمرأة في حق الحصول على التعليم والرعاية الصحية والأمن، والقضاء على الأمية والفقر بين النساء، ومحاربة البغاء والاتجار بالمرأة واستغلالها جنسيًا، وضمان مشاركة المرأة في أوجه الحياة العامة، وغيرها العديد من الجوانب الإيجابية المشتركة[٤].

وسوف نتناول فيما يلي أوجه الحماية التي تكفلها الشريعة الإسلامية للمرأة مقارنة بما تقدمه المواثيق الدولية سابقة الذكر:

أولاً: الجوانب الاجتماعية والأخلاقية

- العلاقات الجنسية:

تعد المواثيق الدولية الحرية في العلاقات الجنسية وفتحها بلا ضوابط حقًا من الحقوق الأساسية للمرأة، ومن ذلك الحرية الجنسية والتبكير بها للمراهقات وتأخير زواجهن، ورفع وصاية الوالدين، وتشجيع جميع أنواع العلاقات الجنسية خارج إطار الأسرة الشرعية، وممارسة الجنس دون قيود ولا أطر تقليدية، والاعتراف بحقوق الزناة والزانيات.

وفي المقابل نجد أن التشريع الإسلامي حرم الزنا، وسن حدوداً شرعية لضبط العلاقة بين الجنسين، وشجع الرابطة الزوجية، وجعلها هي الأساس الوحيد المنظم للعلاقة بين الرجل والمرأة، وأسس لها بحقوق وواجبات تحمي المرأة، وتحافظ على المجتمع من التفكك والانحلال وتعزز التمسك بقيم الطهر والعفاف.

- نظام الأسرة:

تعترف المواثيق الدولية بالأشكال المختلفة للأسرة وتشجع نماذج الأسرة اللانمطية، وتهمش دور الزواج في بناء الأسرة، كما تسمح بأنواع الاقتران الأخرى، والتي تتكون

---

[٤]) الكردي، أمين (١٩٩٧) (آراء الحركة الأنثوية الغربية من وجهة نظر إسلامية) رسالة ماجستير غير منشورة، قسم العقيدة، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان.

من جنس واحد (رجلين، أو امرأتين) وتبيح الشذوذ الجنسي (اللواط والسحاق)، وتطالب بمراجعة ونقض القوانين التي تعتبر الشذوذ الجنسي جريمة.

وقد اعتمدت الشريعة الإسلامية الأسرة الطبيعية فقط، المكونة من الرجل والمرأة بعقد قران له شروط وضوابط، وحرمت اللواط والسحاق والممارسات التي تتنافى مع الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، وأسست الشريعة لحماية المرأة والرجل معًا من الفوضى والانحدار الخلقي وتفشي الأمراض الفتاكة.

- القضايا الإنجابية:

دعت المواثيق الدولية إلى تحديد النسل، وطالبت بإجازة الإجهاض، وتعميم استخدام موانع الحمل والترويج لها، والتباعد بين الولادات، ومنع حالات الحمل المبكر، واعتبرت ذلك حقًا من حقوق المرأة دون موافقة الزوج. واعترفت للمرأة وحدها بحق التحكم في جميع الأمور المتعلقة بخصوبتها، ومنها تقرير عدد أطفالها.

وفي المقابل نجد أن الإسلام ينظر إلى الرجل والمرأة في إطار كيان الأسرة، وينظر لهما وللأسرة في إطار الكيان المجتمعي المتكامل، ويضع أهداف الإنجاب باعتبارها أهدافًا اجتماعية كبرى. والتناسل من المصالح والمقاصد الشرعية الأساسية التي شجع عليها الشرع، ولذا حرم تحديد النسل، وأجاز تنظيمه، وحرم الإجهاض دون عذر طبي، وشجع الزواج المبكر، واعترف للرجل والمرأة معًا بالاشتراك في تقرير الأمور المتعلقة بالإنجاب حماية للعلاقة فيما بينهما، وتأكيدًا لاستمرارها الذي يؤمن الاستقرار النفسي والاجتماعي للمرأة(٥).

- الاختلاط بين الجنسين:

---

٥) عواطف إبراهيم (١٩٨٩)، موقف الإسلام من اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، مركز دراسات المرأة، السودان.

تشجع المواثيق الدولية الاختلاط بين الجنسين في جميع أوجه الحياة، وتدعو إلى الاختلاط في التعليم، وفي بيئة العمل، وتعد الفصل بين الجنسين تمييزًا على أساس الجنس، في حين يحرم الإسلام الخلوة بين الرجل والمرأة، ويدعو إلى عدم الاختلاط للمحافظة على العفة، ويفرض الحجاب على المرأة عن الرجال من غير المحارم.

ثانيًا: الأحوال الشخصية

- الحقوق المالية:

تنادي الاتفاقيات الدولية بفرض مفهوم المساواة الشكلي والمطلق في الحقوق المالية بين الرجل والمرأة في عقد الزواج وفي أثنائه، وبعد فسخه، وفي رعاية الأبناء. وبالمساواة في الإرث بغض النظر عن الجنس.

وفي ذلك تعارض صريح مع الأحكام الشرعية المنظمة لعقد الزواج، والتي تصب في مصلحة المرأة، ومنها المهر قبل العقد، والنفقة، والقوامة على أمر الأسرة في أثناء العقد، والنفقة على الأبناء بعد انتهاء العقد. والحالات التي يرث فيها الذكر مثل حظ الأنثيين هي حالات محددة لا تنطبق على جميع الحالات، وأحكام الإرث في الإسلام توفر حماية مضاعفة للمرأة، حيث إن نظام النفقات في الإسلام يوجب النفقة ويلزم بها الرجل لا المرأة، وما يرثه الرجل تستفيد منه المرأة في جميع أحوالها، وذلك عن طريق التكليف الشرعي للرجل بالنفقة على الزوجة أو الأم والأخت والابنة، في حين أن ما ترثه المرأة لا تكلف شرعًا بالنفقة منه على نفسها أو أي من ذوي قرباها.

- الحقوق الشرعية:

تمنح المواثيق الدولية المرأة والرجل الحقوق نفسها على قدم المساواة في عقد الزواج وفي أثنائه وعند فسخه، وكذلك في القوامة والولاية على الأبناء.

وفي ذلك تعارض صريح مع التشريعات الإسلامية في مسائل رضا ولي الزوجة عند العقد، وقوامة الرجل على الأسرة، وتعدد الزوجات، ومنع زواج المسلمة بالكتابي، وأحكام الطلاق والعدة، وعدة الوفاة، وحضانة الأبناء. وفي هذه التشريعات تفاصيل جزئية تحقق العدل والحماية للمرأة من أوجه متعددة منها المادي ومنها المعنوي.

• الحقوق المعنوية:

تدعو المواثيق الدولية إلى القضاء على العنف ضد المرأة (الجسدي والمعنوي)، وتطالب بإلغاء الحدود الجزائية في الشريعة الإسلامية كحد القتل عمداً، وحد الزنا، وغيره من الحدود، وتصفها بالعنف، وتطالب بإنشاء محاكم أسرية تقاضي الزوج بتهمة اغتصاب زوجته. وفي المقابل تحرم الشريعة الإسلامية معاملة المرأة بقسوة، أو الاعتداء على حقوقها المادية أو المعنوية كحرمانها من النفقة، أو عدم العدل في المعاملة أو عضلها أو التضييق عليها، وقد وردت العديد من الأدلة في القرآن والسنة التي تحث على إيفاء النساء حقوقهن، والرفق بهن، وحسن عشرتهن.

ثالثًا: الحقوق العامة

• الحقوق الاقتصادية:

تطالب المواثيق الدولية الحكومات القيام بإصلاحات تشريعية وإدارية لتمكين المرأة من الحصول الكامل على الموارد الاقتصادية مناصفة مع الرجل في التوظيف والتدريب، وتيسير حصولها على القروض الربوية، والدعوة إلى خروجها للعمل بأجر للحصول على استقلالها الاقتصادي وذلك للتخلص من تبعيتها للرجل، والتقليل من عمل المرأة المنزلي، واعتبار ذلك عملاً ليس له مقابل، ومن ثم فهو من أسباب فقر المرأة، وتطالب الزوج بدفع أجر مقابل عمل المرأة المنزلي، وهو غير مكلف بالنفقة على المرأة. في حين أن نظام النفقات في الشريعة الإسلامية يكلف الرجل بتحمل جميع الحقوق المالية كالمهر والنفقة، وللمرأة الحق في مقاضاته عند التقصير في أداء هذه الحقوق، وجعلت خدمتها في منزل الزوجية من حسن العشرة ولا تلزم بها، وأعطتها الحق في أخذ مقابل مادي من الرجل عند الرضاعة، وأباحت لها العمل خارج منزلها عند تحقق الحاجة إليه، ويضمن الإسلام للمرأة حق التصرف في أموالها الشخصية(٦).

---

[٦]) كمال الدين أحمد،(٢٠٠١) المرأة والإسلام والنظام الدولي الجديد، مركز دراسات المرأة، الخرطوم.

• الحقوق السياسية:

تدعو المواثيق الدولية الحكومات والمنظمات لاتخاذ جميع الإجراءات لتحقيق مشاركة المرأة في جميع الأنشطة السياسية، ومنها حق التصويت للمرأة، وحقها في الانتخاب، والدعوة إلى تمثيلها تمثيلاً منصفًا على جميع المستويات في المجالس والهيئات، وحقها في أن تتولى جميع المناصب بما فيها رئاسة الدولة، ويمكن الشرع الإسلامي المرأة من المشاركة في النشاط السياسي كالبيعة والانتخاب والشورى، ولا تتولى الولاية العامة عند معظم الفقهاء.

• الحقوق الصحية

تنص المواثيق الدولية على أن يكون الإجهاض حقًا من حقوق المرأة، وتيسر حصولها على هذا الحق عندما تريد إنهاء حملها، وتدعو إلى إنشاء مستشفيات خاصة به، وتبيح قتل الأجنة داخل الأرحام بحجة أنه حمل غير مرغوب فيه، وتدعو إلى إلغاء الجزاءات المتعلقة بذلك، وتدعو إلى السلوك الجنسي المأمون، والاعتراف بالعلاقات الجنسية المحرمة المسببة للأمراض، وتجعل علاج الأمراض المنقولة جنسيًا جزءًا لا يتجزأ من خدمات برامج الصحة الإنجابية التي تلزم الحكومات بتوفيرها. في حين أن الشريعة الإسلامية بتحريمها الزنا والشذوذ تحمي المجتمع من الأمراض التي تنتقل عن طريق هذه العلاقات المحرمة، وتفرض الوضوء والطهارة والغسل، وتحرم قتل الأجنة وعمليات الإجهاض.

• الحقوق الاجتماعية:

تطالب المواثيق الدولية بالقضاء على الأدوار النمطية للمرأة، وهي أدوار المرأة المتعلقة بالإنجاب، وأدوار ربة البيت المتفرغة لرعاية أطفالها، وتطالب كذلك بتعديل الأنماط الاجتماعية والثقافية للقضاء على العادات القائمة على فكرة تفوق أحد الجنسين، وتدعو إلى اتخاذ جميع التدابير المناسبة بما في ذلك التشريعي منها لتغيير أو إبطال القائم من القوانين والأنظمة والأعراف التي تشكل تمييزًا ضد المرأة.

والإسلام يساوي بين الذكر والأنثى في النوع، ويفرق بينهما في الجنس، ويجعل لكل منهما وظائف ومهام تتفق مع أدوار كل منهما في الحياة، ولا يعني ذلك أن هناك جنسًا أفضل من الآخر، بل يعني أن كليهما يتميز على الآخر في بعض الجوانب، ويقدر الإسلام الأمومة ويمنح الأم مرتبة تفوق مرتبة الأب، ويجعل التقوى معيارًا للتفوق، ويعطي المرأة حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة في النشاط الاجتماعي مع توفر الحشمة والوقار.

ونلخص في الختام أن أوجه الحماية الممنوحة للمرأة في المواثيق الدولية تطرح حلولاً لمشاكل المرأة تقوم على الفكر الغربي العلماني الذي يهمش دور الدين في المجتمع، ولم تراع هذه المواثيق التباين الثقافي الواسع بين المجتمعات، واختلاف أوضاع المرأة ومشكلاتها من مجتمع إلى آخر، واختلاف الموروث التاريخي والديني والوضع الاقتصادي، ثم إن المشكلات التي نجمت عن تطبيق القيم الغربية، وما وصل إليه حال المرأة في الدول الصناعية المتقدمة في ظل الإباحية الجنسية والتحرر من القيم والأخلاق، وتفكك الأسرة وانحلالها، لهو دليل قاطع على فشل النموذج الغربي في صلاحيته ليكون نموذجًا يُحتذى في توفير الحماية للمرأة.

في المقابل تنطلق الحماية في الشريعة الإسلامية من تقييد الحريات وتجعلها تدور في فلك حفظ مصالح الفرد والمجتمع حماية لأفراده، وتجعل الحكم لله مرجعية شاملة بما تحويه من أحكام للمرأة والمجتمع ككل، تنتظم من خلالها العلاقات وتحقق الحماية والأمن في جميع جوانب الحياة مادية كانت أم معنوية.

طفولتنا المسروقة ! (*)

نحن نسرق في كل يوم وفي كل ساعة طفولة أطفالنا ونحرمهم إياها بحجة أننا تربيتهم ونعلمهم ونهيئهم للمستقبل ونحن نؤذيهم بهذه السرقة ونفسد عليهم مرحلة من مراحل العمر العزيزة، ثم نفشل مع ذلك في تحقيق غرضنا الذي نرمي إليه لأننا نتجاهل أحكام الطبيعة ونفسر الفطرة البشرية على تخطي حلقات الزمان ونحن دائبون على إنضاج الأطفال قبل الأوان، نلهب خطاهم حو التعقل والتوتر والتحلي بالفضائل، ونحاول أن نكبت في نفوسهم غرائز الأطفال ليصبحوا رجالاً وأن نملأ أذهانهم بالمعلومات ليصبحوا علماء فتكون النتيجة أن يكرهوا الأدب والفضيلة، وينفروا من العلم والمدرسة.

والوسائل التي نسرق بها طفولة هؤلاء المساكين كثيرة : في مقدمتها ذلك النظام العسكري الذي نأخذهم به في حجرات الدراسة، وذلك الكبح الذي نثقلهم به على المقاعد، بحيث نعد تململ الطفل على مقعده إخلالا بالنظام، أما تغييره لهذا المقعد بتبادله مع زميل له فهو جريمة لا تغفر، ويزيد على ذلك توقر المدرسين وتكشيراتهم التي تباعد بينهم وبين نفوس الأطفال البريئة وتقيم الحواجز والعراقيل دون المحبة والبساطة والتعاطف بين المدرس والتلميذ.

أذكر في السنوات التي قضيتها في التدريس أنني لم أكن أحفل بتلك القيود وكنت أدخل الحجرة فأرى التلاميذ كالعصافير المحبوسة في قفص وقد فتح بابه فإذا هي تنطلق فرحة بالحرية. وفي ما لا يزيد عن دقيقة كان معظم التلاميذ يغيرون مقاعدهم بالتبادل فيما بينهم، ثم ينصتون مستعدين للدرس بشوق عظيم. وكأنما هذه الحركة مع شعورهم

(*) – سيد قطب، "طفولتنا المسروقة"، مجلة الشئون الاجتماعية، العدد الثالث، مارس ١٩٤٢، ص ٩٢ – ٩٥ .

بالحرية فيها قد ثبت في نفوسهم نشاطاً وحيوية وتفتحاً يعوض على وعليهم هذه الدقيقة الضائعة.

واذكر أن الحواجز المتكلفة لم تكن قائمة بيني وبين هؤلاء الأطفال فقد كانوا يبثونني خواطرهم الصغيرة البريئة سراً وجهراً، ويصافحونني عند دخولي المدرسة في الصباح وعندما يلقونني في الطريق، ولم يكونوا يتكلفون في حركاتهم معي وألفاظهم. وفى مرة دخل أحد حضرات المفتشين فوجد عند منصة الدرس بعض التلاميذ وأنا أصحح لهم كراسات الإملاء وهم واقفون حولي يتأملون التصحيحات في كراسة أحدهم وقفة طبيعية غير متكلفة، وقد اتكأ أحدهم على كتفي بمرفقة بينما الثاني لم تعجبه ربطه عنقي فأخذ في تعديلها قليلاً! وثالث رأى بعض غبار الحكك على بذلتي فهو ينفضه بكفه الصغيرة! وثلاثة ينظرون في الكراسة التي أصححها.

وكان في هذا العمل مني عدة مخالفات "للنظام" لا تغتفر، أولاها أنني جالس في حجرات الدراسة، وثانيها أنني أصحح الكراسات في الحجرة، وثالثها أن التلاميذ مجتمعون حولي، ورابعها أنهم لا يراعون الأدب في وقفتهم وحركاتهم .. الخ.

ولولا أن كان هذا المفتش أستاذا لي أيام الدراسة، وكان يعلم عني ثورتي على القيود الشكلية وجهري بآراء جريئة في التربية، لساءت العاقبة وجاء "التقدير" سيئاً وحقت على العقوبة على الرغم من أن تجاربي الشخصية أثبتت لي أن كل كراسة تصحح في عيني صاحبها – وهو تلميذ صغير ولا يستفيد التلميذ من تصحيحها شيئاً، إذ يلقى باله إلى الدرجة التي نالها ولا يعنى بتتبع خطئه وإصلاحه، وعلى الرغم من أنني وجدت الصلات الودية بيني وبين التلاميذ بلا كلفه ولا قيود – إلا قيود الأدب الواجب هي في مصلحة الدرس وفى مصلحة الأخلاق، بل في مصلحة النظام.

ونحن لا نزال نكبح نشاط الأطفال العضوي في البيت وفي المدرسة على السواء حتى في أوقات الفسح المخصصة للعب والحركة ولا نزال نصف التلميذ الساكن الساكت أنه تلميذ مؤدب وننعت التلميذ الدائب الحركة والجري والقفز بأنه تلميذ شقي

في حين أن الأول مريض يجب الفحص عن علته النفسية أو الجسدية، والثاني صحيح سليم طبيعي في حركاته الغريزية، وذلك أثر من أثار العقلية القديمة المتبعة في كتاب سيدنا "القائمة على سوء الظن بالفطرة الإنسانية ووجوب قمعها بالكبت والزجر حتى لا ينطلق الشر الكامن فيها من عقاله!.

فإذا تجاوزنا مسألة "النظام" وجدنا أننا نسرق طفولة الأطفال بوسيلة أخرى، وهى تلك البرامج المطولة الثقيلة المحشوة بمعلومات متناثرة لا تشويق فيها ولا حياة. تلك البرامج والامتحانات من ورائها تضطر المدرسين لإلهاب ظهور التلاميذ الصغار والطلاب المراهقين بالحفظ والاستذكار لأنه لا وسيلة لتحصيلها - وهى هكذا مقتضبة متناثرة إلا الحفظ على ظهر قلب والحفظ يستنفذ طاقة عظيمة، ومجهوداً مضنياً وزمناً أطول، فلابد أذن من أن يشغل التلاميذ جميع أوقاتهم بالاستذكار أو يرسبوا في الامتحان. ومن هنا تنشأ لعنة الواجبات المدرسية "التي يقضي فيها التلاميذ ما تبقى من النهار وزلفا من الليل".

ولست أتورع عن الجهر بأن كل برنامج مدرسي يكلف تلميذ المدرسة الابتدائية أن يستذكره في المنزل بعد تمضيه ٨ ساعات في المدرسة إنما هو برنامج فاشل وفاسد من الوجهة الشكلية، يجب البحث عن العلة فيه بحيث يدرس ويحوز في ساعات الدراسة وجدها، حتى ندع للتلميذ الصغير وقتاً للنشاط الحر بعد اليوم المدرسي الطويل.

كنت أحنق وأثور عندما أرى تلميذاً يستذكر في أوقات الفسح بين الدروس، ولكنى كنت أراجع نفسي وأتذكر أنها لعنة البرامج المطولة والمعلومات المتقطعة المتناثرة والامتحانات في نهاية العام، وهى لعنة تصيب المدرسين فيصبونها على أدمغة الأطفال المساكين.

ونحن نسرق طفولة الأطفال - بعد هذا وذاك - بالكتب التي بين أيديهم ولا سيما كتب المطالعة والمحفوظات وبالتوجيهات الخلقية والتهذيبية التي نعتمد فيها على المواعظ والحكم في شروحنا الشفوية أو في القطع الإملائية فأما تلك الكتب فهي تفرض

أنها تخاطب رجالاً عركوا الدهر وخبروا الناس وتمرسوا بالتجارب، فتصب عليهم الحكم النظرية عن الشرف والمروءة والمجد وحسن التصرف وتنقلهم من عالمهم الساذج البريء المفعم بالنشاط والحركة والخيال الطائر إلى عالم معقد متوقر متفلسف يعالج مسائل الأخلاق علاج الفلاسفة أو علاج الوعاظ.

وحتى القصص الذي يجب أن تكون غايته في هذا الطور هي اللذة وتنشيط الخيال قد صبت عليه لعنة "المغزى" فما من قصة أو أقصوصة إلا والمقصود منها "مغزى" خلقي أو فلسفي لا يمكن أن يرقى إليه ذهن الطفل ولا تعينه تجاربه على تصوره مجرد التصور، علاوة على ما يحشى به من ألفاظ المعاني التي لا مدلول لها في نفوس الصغار المشوقين بالمحسوسات وبالأخيلة المنقولة عن المحسوسات.

تصور طفلاً في السنة الأولى الابتدائية بين سن (٧،٩) كان يطلب من أن يحفظ قطعه لعبد الله بن المقفع يقول فيها : "المودة بين الأخيار سريع اتصالها، بطئ انقطاعها، ومثل ذلك كمثل كوب الذهب الذي هو بطئ الانكسار هين الإصلاح، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطئ اتصالها كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث ثم لا وصل له أبداً.

أليست هذه المحاولة كانت جنوناً أو ما يشبه الجنون إلى عام ١٩٣٥؟ ثم فتح الله على كتب المحفوظات في سنة ١٩٤٠، فإذا بهذا الطفل يحادث عصفورته ولكن ماذا يقول؟ أنه يقول:

عصفورتي عصفورتي ... أنت الأنيس لوحدتي
طيري إلى ورفرفي ... يا سلوتي في خلوتي
طيري وغني أنني ... أجد الغناء يسرني
فالطير في تغريدها ... أنس يزيل كآبتي

ألم تر إذن لهذا الطفل في السابعة من عمره، له (وحدة) تؤنسها عصفوره، وله (خلوه) تحتاج إلى (سلوه) وله (كآبة) يزيلها أنس التغريد؟ ولم لا؟ ألا يجب أن يمسخ رجلاً وأن يسلق سلقاً حتى تحمل نفسه الصغيرة هموم الكبار وآلامهم وعواطفهم ليرضى بذلك كتب المحفوظات ويرتفع إلى مستواها وهكذا تمضي كتب المطالعة كذلك فلا تحفل مطلقاً بعالم الطفل الصغير ولا تحدثه بلغته ولا ما يحتويه قاموسه اللفظي والمعنوي من ألفاظ ومعان.

ثم هي فوق ذلك تجبر التلميذ على أن يقول في بعض الأحيان غير ما يحس، فهي تضطره أن يقول : انه يفضل العمل على اللعب، وأنه لا يحب صيد العصافير ولا تعذيبها، بينما غرائزه تهتف بعكس ما ينطق به لسانه.

ومثل هذه التوجيهات يجب أن تكون بالقدوة العملية في سن الطفولة لا بهذه الألفاظ الجوفاء، فإذا لم يكن بد من سوقها في الكتب فلتكن في قالب قصصي، بدون ذكر المغزى صراحة، بل يترك إدراكه لسياق القصة وفطرة التلميذ وقد ضحكت طويلاً حينما قرأت لأحد مؤلفي المحفوظات قوله في تعليق على قصة ترجمها ونظمها" تصرفت في هذه القصة بما يوجه فكرتها نحو المثل العليا للأخلاق" وهذه القصة في وضعها الأول كانت مشوقة جذابة منشطة لخيال التلاميذ الصغار فإذا بها في "تصرف" صاخباً خطبه منبريه مما تضيق به الصدور، فمتى يفهم هؤلاء أن المثل العليا أعلى من مستوى الأطفال، وأنها سرقة لطفولتهم كان ينبغي أن يعاقب عليها القانون؟!

وبعد فالطفولة مرحلة من مراحل العمر يجب أن يعيشها الأطفال أطفالاً، ويجب ألا نستحث فيها خطاهم ولا نعجلهم منها إلى المراحل التي تليها، فإننا لن نفلح في إنضاجهم قبل الأوان، وكل ما نصنعه هو أن نكتب نشاط الصغار ونعطل غرائزهم عن العمل ونمرض أجسامهم ونفوسهم، ونشوش أذهانهم بمعان مجردة لا يتصورون مدلولاتها.

الطفولة لعب والقفز والوثب، وللمحسوسات والخيالان الناشئة عنها، وكـــل مـــا يدرس للأطفال يجب أن يبنى على تنشيط غرائزهم وأخيلتهم، والتحدث معـــهم بلغتـــهم وبمعانيهم القريبة، كما تحاول المدارس الحديثة أن تصنع في مختلف البقاع .

صغارنا.. وحقوق الإنسان[1]

طالبة كندية اسمها "بيج ايرهاس" عمرها ثلاثة عشر عاما, مات والدها العائل الوحيد لأسرتها الصغيرة بالسرطان في العام الماضي, وأصيبت أمها في بداية هذا العام بمرض عضال ينخر في دماغها ويمتص قواها يوما بعد يوم.

وبيج لا تزال طفله في ضحكتها البريئة, في حركتها الخجولة, في اهتزاز خصلتها فوق جبينها حين تنفعل. صغيرة جدا, وجميلة جدا. ووحيدة إلى أقصى حدود الوحدة والضياع والتعاسة واليتم, ولكنها برغم ذلك تواجه الحياة القاسية في اعتداد الند, لا تحني رأسها للمأساة, ولا تستسلم لدموع الأحزان تغمرها. قلبها يتسع لأكبر من مأساتها الخاصة ليحتضن آلام الآخرين. تواصل دراستها, وترعى أمها المريضة, وتساهم في الأعمال الخيرية: تساعد المسنين, وتوزع الطعام في ملاجئ الفقراء, وتقرأ للأطفال المرضى بديلا عن زوار لا يأتون أبدا. وتهتم بقضايا حقوق الإنسان وتعرف كثيرا عن ظلم القادرين, وأحزان الجوعى والمحرومين, وتكتب عن ذلك باستفاضة في كراستها المدرسية.

وحين ينعقد أكبر مؤتمر عالمي لحقوق الإنسان بمدينه ادمنتون بكندا اليوم(السبت٢٨ نوفمبر) بمناسبة مرور خمسين عاما على مولد ميثاق حقوق الإنسان, ستجلس الطفلة "بيج" وسط كبار المدعوين, منهم الأسقف "ديزموند توتو", الحائز على جائزة نوبل للسلام, ورئيس لجنه الصفح والمكاشفة بجنوب أفريقيا, و"ماري روبنصون" رئيسه الجمهورية الايرلندية سابقا ورئيسة لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة, و"انطونيو لامير" رئيس قضاه كندا ورئيس المحكمة العليا, وكبار الشخصيات الناشطة في ميدان

---

[1]) محمود إبراهيم الشوش، "صغارنا وحقوق الإنسان" جريدة الأهرام، في ٢٨ نوفمبر ١٩٩٨ العدد ٤٠٨٩٩.

حقوق الإنسان. وقالت الكاتبة المعروفة "لندا جويت" عن حضور "بيج": إن هؤلاء الكبار هم الذين سيتشرفون أن يكونوا في معيتها.

استحقت "بيج" هذا الشرف بعد أن نال بحثها المرتبة الأولى في مسابقه مدرسيه حول حقوق الإنسان, اشترك فيها آلاف من طلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية.

تحدثت "بيج" عن القلق الذي كان يسود العالم قبل خمسين عاما من احتمال حرب ثالثه تهدد مصير البشرية. وفي قمة هذا الفزع ولد ميثاق حقوق الإنسان ليهب للناس أملا, وليجعل تحقيق السلام هدفا في متناول البشرية يمكن أن يتحقق بالمثابرة والحب والتسامح. أفاضت في الحديث عن الميثاق, قالت أنه يكفل الحماية للمظلومين, والعدل للمقهورين, والحرية للمضطهدين والأمان للخائفين. ويجعل الحريـة والملكيـة وحق اللجوء والأمان من الجوع والفقر والمرض حقوقا مكفولة لكل إنسان, ولدت معه حين ولد. وكما لم تستسلم لمأساتها الخاصة, رفضت الخضوع لسلبيات التجربة, قالت: أننا حتى بعد خمسين عاما لم نبلغ الكمال أو ما يقرب منه, فمازال الناس يموتون من سوء التغذية, وتفتك بهم أمراض كان يمكن تفاديها, ومازال الكثيرون يعيشون تحت وطأة أنظمة استبدادية, ومازالت الحروب مستعرة، نعم مازلنا في بداية الطريق ولكننا لا نزال نسير في منعرجاته نبطئ أحيانا وتعترضنا المشاكل كل يوم, ومع ذلك نحقق الكثير. فالحرب العالمية الثالثة لم تقع ومازلنا أحياء, ونحن أكثر وعيا وتعاطفا مع قضايا الآخرين وغدا ستصبح قضاياهم قضايانا وآلامهم آلامنا.

قالت: بالنسبة لي فان هذا الميثاق يؤكد حقوقا أعيشها في حياتي اليوميـة, وكنت احسبها لجهلي شاملة لكل الناس. ولا أستطيع أن أتخيل أن ابقي بلا طعام لأكثر من أربع ساعات, أو أن أتعرض للتعذيب والمهانة, تلك أشياء لا تحدث في عالمي إلا علي الشاشة أو في الكتب. أنني أدرك أنني محظوظة أنني ولدت في هذا البلد العظيم, ومع ذلك فإنني أبكي كل يوم حين آوي إلى فراشي علي أطفال في مثل سني في كثير من أنحاء العالم لا يجدون بعض ما أجد.

قالت "بيج" أشياء كثيرة لا يتسع المجال لها. ونحاول أن نلتمس وجه "بيج ايرهـلس" بين صغارنا وهم يتدفقون نحو المدارس فلا نجده.

لا لنقص في إنسانيتنا, بل نحن أمة تتغرس الرحمة في طبيعتنا ونرضعها أطفالا ثم نتركها علي أبواب المدارس. لان حقوق الإنسان لا تدخل في مناهجنا, ولا ذكر لها فـي احتفالاتنا ولا أدب الحوار في البيت والشارع بين الأب وابنه والمعلم وطالبه, والحـاكم ورعيته, من أنماط سلوكنا.

ويكبر الأطفال, وقد يعودون غدا بين جامعات أكسفورد وهارفـارد والسـوربون, وينخرطون في أوضاع قهرية فلا يرون ظلما ولا يشمون عفنا, لأنه ما من أحد, علمـهم صغارا عشق الحرية واحترام حقوق الإنسان.